

عَوْنُ الْحَمِيدِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

وَبَيَانِ مَا فِيهِ مِنَ الْهُدَايَاتِ وَالْفَوَائِدِ وَالْأَحْكَامِ

تَأَلِيفُ

أ. د. سُلَيْمَانَ بْنِ أَبِي هَيْسَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ

الْأَسْتَاذِ فِي قِسْمِ الْقُرْآنِ وَعُلُومِهِ

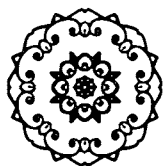
بِكَلِيَّةِ الشَّرِيعَةِ وَالذَّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ. جَامِعَةِ الْقَصِيمِ

المجلدُ التَّاسِعُ عِشْرَ

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ وَغَافِرٍ وَفُصِّلَتْ وَالشُّورَى

دار ابن الجوزي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



عَوْنِ الرَّحْمَنِ
فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

١٩



دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٨٤٢٨١٤٦ - ٨٤٦٧٥٩٣

ص.ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي: ٤٩٧٣

فاكس: ٨٤١٢١٠٠

الرياض - تلفاكس: ٢١٠٧٢٢٨

جوال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوال: ٠٥٩٢٠٤١٣٧١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٢/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

✉ aljawzi@hotmail.com

☎ +966503897671

🌐 aljawzi

📍 eljawzi

🌐 aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

عون الرحمن في تفسير القرآن وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد

والأحكام. / سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم. - الدمام، ١٤٤١هـ

٤٢٥ ص؛ ٢٤×١٧ سم

ردمك: ٨ - ٩٥ - ٨٢٧٤ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١ - القرآن - تفسير ٢ - علوم القرآن ٣ - القرآن - أحكام

أ. العنوان

١٤٤١/٥٤٤٣

ديوي ٢٢٧,٣

جميع الحقوق محفوظة

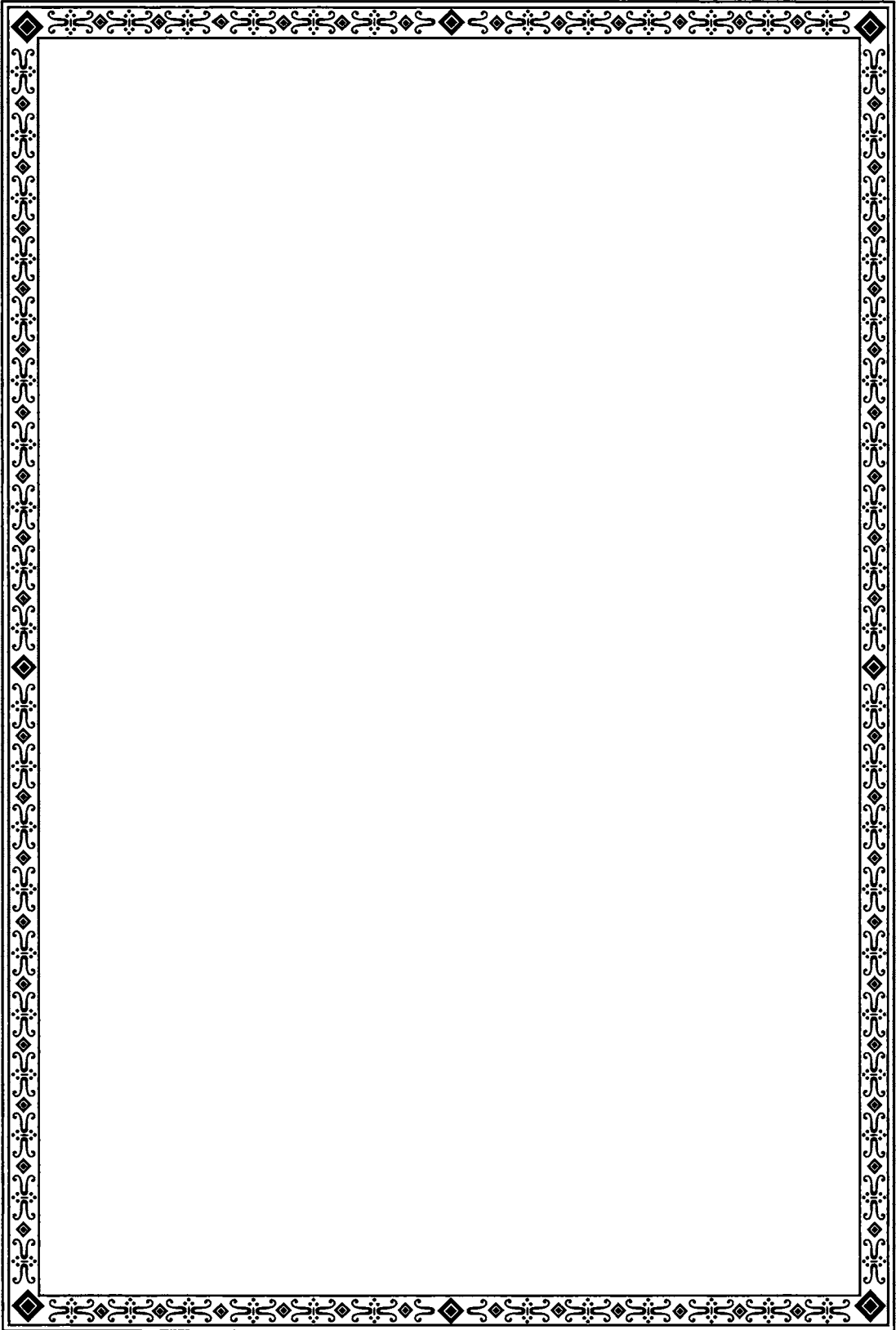
الطبعة الأولى

١٤٤١هـ

الباركود الدولي: 9786038274958

حقوق الطبع محفوظة © ١٤٤١هـ، لا يسمح بإعادة نشر هذا الكتاب
أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو ترجمته إلى أي
لغة أخرى دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

تَفْسِيرُ سُورَةِ الزُّمَرِ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة «سورة الزمر»؛ لقوله تعالى في آخرها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الآية: ٧١]، وقوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الآية: ٧٣]. وتسمى: «سورة الغُرف»، لقوله تعالى فيها: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ عُرفٌ مِّن فَوْقِهَا عُرفٌ مَّبِينَةٌ تَجْرِىٰ مِن تَحْتِهَا﴾ [الزمر: ٢٠].

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل»^(١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «وإن أكثر آية في القرآن فرجًا في سورة الغُرف: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]»^(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت سورة الزمر بتعظيم القرآن الكريم والثناء على الله عز وجل وإثبات تنزيله القرآن من عنده، والامتنان بإنزاله على النبي ﷺ بالحق ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾^(١) إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴿

٢- وجوب عبادة الله تعالى، وإخلاص الدين له، لاختصاصه بذلك، وبطلان ما يتخذه المشركون من دونه من أولياء يعبدونهم ويزعمون أنهم وسائط بينهم وبين الله: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾^(٢) أَلِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ^٤ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ^٥ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٠٥، وأحمد ١٨٩/٦.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٩٩/٧- ونسبه للطبراني.

هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٥﴾.

٣- الإنكار على المشركين في نسبتهم الولد لله تعالى وتخصيصه بالإناث ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾.

٤- إثبات عظمته عز وجل، وتماز قدرته، وواسع ملكه، وسابغ نعمته ووحدانيتها ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكْوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِيَّةً ۚ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مَنَازِلَ مِمَّا يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۗ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ نَصْرُوفٍ ﴿٦﴾﴾.

٥- إثبات غناه عن خلقه فلا يضره كفر من كفر، ولا ينفعه إيمان من آمن، وإثبات عدله بين الخلائق ورجوعهم إليه: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي وَعَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

٦- بيان أن من طبيعة الإنسان إلا من هداه الله اللجوء إلى الله في الضراء، ونسيان ذلك في السراء: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّبُضْلٍ ۗ عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۗ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾.

٧- لا يستوي من هو قانت أثناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه؛ لإيانه بالله ووعده، وبين من ليس كذلك؛ لكفره بالله وتكذيبه بوعده ووعيده: ﴿أَمَنْ هُوَ قَنِيتٌ ۗ أَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾.

٨- ترغيب المؤمنين بتقوى الله والإحسان والصبر ووعدهم بالأجر في الدنيا والآخرة ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ ۗ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

٩- تأكيد الأمر بعبادة الله تعالى، وإخلاص الدين له، وتهديد المشركين، وبيان خسرتهم الخسران المبين وما لهم من شديد العذاب في النار ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ

الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَأَمْرٌ لِأَنَّ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَعْبَادُونَ فَاتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴿١٧﴾

١٠- البشارة للذين اجتنبوا الشرك وأنابوا إلى الله تعالى ووحده واتفقه والثناء عليهم: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَيْنَاهُمْ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْأُولَاءُ ﴿١٨﴾﴾، وقوله: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقُوا رَبَّهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّيْبَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴿٢٠﴾﴾ [الآية: ٢٠].

١١- تقرير قدرته عز وجل على إنزال الماء من السماء، وإخراج الزرع به والنبات، ثم هيجان ذلك واصفراره وتحطمه، ودلالة ذلك على تمام قدرته تعالى على إحياء الموتى، وعلى زوال الدنيا وفنائها، وذكرى لأولي الألباب.

١٢- شتان بين من شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه، وبين من قسى قلبه من ذكر الله: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾﴾.

١٣- امتنانه عز وجل بإنزال القرآن أحسن الحديث وامتداحه له، والثناء على من يتتبعون به ويبتدون: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٢٢﴾﴾.

١٤- تهديد ووعيد المكذبين الظالمين بشدة عذابهم يوم القيامة وتقريعهم وتوبيخهم كما عذب الله المكذبين قبلهم: ﴿أَفَمَن يَتَّبِعِ بَوَاجِهَهُ سُوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاَتَتْهُمْ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاهُمُ اللَّهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

١٥- الامتنان على الناس بضرب الأمثال في القرآن: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّمُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ .

١٦- أن الموت مكتوب على كل حي من الخلق، ثم يبعثون يوم القيامة، وعند ربهم يختصمون: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ .

١٧- ذم من كذب على الله وكذب بالصدق، وتوعده بجهنم مثنى الكافرين، وامتنادح الذي جاء بالصدق صلوات الله وسلامه عليه، والذي صدق به وهم المتقون المحسنون، وبيان عظم ما أعد لهم: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾﴾ .

١٨- تقرير كفايته عز وجل لرسوله ﷺ وحفظه له: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۗ﴾ [الزمر: ٢٦].

١٩- من يضل الله فلا هادي له ومن يهد الله فلا مضل له: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي

انْتِقَامٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

٢٠- الإنكار على المشركين عبادتهم آلهة من دون الله مع إقرارهم بربوبيته، وأنه الذي خلق السموات والأرض: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرُّوهُ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ ۗ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَتَقَوَّمِرِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٠﴾﴾ .

٢١- تسليته ﷺ وأن مهمته إبلاغ الكتاب، وليس إليه هداية الخلق: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ ۖ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٣١﴾﴾ .

٢٢- تصرف الله عز وجل بأنفس العباد وأرواحهم: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمِمْسِكُ الْبَاطِنِ فِيهَا أُولَٰئِكَ يَرْسِلُ الْأَخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ

مُسْمَىٰٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ .

٢٣- الإنكار على المشركين اتخاذهم من دون الله شفعاء لا يملكون شيئاً ولا يعقلون، وبيان ملكه عز وجل للشفاعة جميعاً، وللسموات والأرض: ﴿أمر أنخذوا من دون الله شفعاءً قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴿٢٣﴾ قل لله الشفاعة جميعاً له. ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ﴿٢٤﴾ وإذا ذكر الله وحده أشمزت قلوب الذين لا يؤمنون بالأخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴿٢٥﴾ .

٢٤- تفرده عز وجل بالخلق، وعلم الغيب والشهادة، والحكم بين العباد: ﴿قل اللهم فاطر السموات والأرض عليم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك في ما كانوا فيه يخلفون ﴿٢٦﴾ .

٢٥- سوء عذاب الظالمين يوم القيامة وشدته: ﴿ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعاً ومثله معه، لآفدوا به من سوء العذاب يوم القيامة وبدأ لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون ﴿٢٧﴾ وبدأ لهم سيئات ما كسبوا وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٢٨﴾ .

٢٦- أن من طبيعة الإنسان إلا من هداه أنه إذا أصابه ضر دعا الله فإذا خوله نعمة وكشف ضره نسب ذلك لعلمه: ﴿فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا حوّلناه نعمة منا قال إنما أوتيته، على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴿٢٩﴾ قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ﴿٣٠﴾ إلى قوله: ﴿أولم يعلموا أن الله يسطر الرزق لمن يشاء ويقدر إن في ذلك لآياتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣١﴾ .

٢٧- بيان سعة رحمة الله تعالى، ودعوته لمن أسرف من عباده على نفسه بعدم القنوط من رحمته عز وجل، والإنابة إليه: ﴿قل يعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقسطوا من رحمة الله إن الله يعفو الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ﴿٣٢﴾ وأنبيؤا إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ﴿٣٣﴾ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بعته وأنتم لا تعلمون ﴿٣٤﴾ أن تقول نفس بحسرتي على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن السخريين ﴿٣٥﴾ أو تقول لو أن الله هدنى لكنت من المتقين ﴿٣٦﴾ أو تقول حين ترى العذاب لو أنك لى كرهه فأكوت من المحسنين ﴿٣٨﴾ بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ﴿٣٩﴾ ويوم القيامة ترى الذين

كذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوهَهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٠﴾ وَمِنجَى اللَّهِ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَقَارَتِهِمْ لَا يَمْسُهُمُ السُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١﴾.

٢٨- تأكد كمال عظمته عز وجل وتما قدرته: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ ﴿١٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٣﴾.

٢٩- الإنكار على دعاة الشرك وذمهم، وبيان وجوب عبادة الله تعالى وحده وشكره، وخسران الذين كفروا بآيات الله وأشركوا به: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَني بِعِبَادَةِ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحٰنَهُ وَتَعٰلٰى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ﴿١٧﴾.

٣٠- إثبات النفخ في الصور مرتين، الأولى: نفخة الصعق والموت، والثانية لقيام الناس من قبورهم للحساب والجزاء: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِيهَا يُنظَرُونَ﴾ ﴿١٨﴾ إلى قوله: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٩﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنْهَا نَجْمًا أَنْثَىٰ وَمِنْهَا خَلَقَ الذَّكَرَ إِنَّكُمْ لَعِنَآئِهِمْ فِي مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنَىٰ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ۗ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۗ إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ رِيحَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَنَّعَ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۗ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾ ۞﴾

قوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾

قوله: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ «تنزيل»: مبتدأ، أو خبر لمبتدأ محذوف، و«تنزيل»: مضاف و«الكتاب»: مضاف إليه، و«الكتاب»: القرآن الكريم، و«ال» في «الكتاب» للعهد الذهني، أي: الكتاب المعهود في الأذهان، الذي إذا أطلق انصرف الذهن إلى القرآن الكريم؛ لأنه أعظم كتب الله تعالى، وأشرف الكتب على الإطلاق. وسمي بـ«الكتاب»؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة، ومكتوب بأيدي المؤمنين بالمصاحف.

﴿مَنْ أَلَّه﴾ متعلق بـ«تنزيل»، أو بخبره، أي: من عند الله عز وجل.

فهو كلامه عز وجل تكلم به سبحانه بحرف مقروء، وصوت مسموع، لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١١٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله»، مجروران، أي: ذو العزة التامة: عزة القوة، وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.

وذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي.

وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية.

ولما ذكر عظمة القرآن، وعظمة من أنزله، ذكر شرف من أنزل إليه فقال:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، أي: أنزلنا إليك القرآن

﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، أي: متلبسًا بالحق مصاحبًا له في طريق

وصوله إليك بأصح إسناد، تلقاه الروح الأمين جبريل عليه السلام عن الله عز وجل

وأداه إلى النبي ﷺ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ

الْمُنذِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

فليس في سنده انقطاع، ولا إرسال ولا غير ذلك، ولم يتعرض إلى أي تغيير وتبديل

لحفظ الله تعالى له، كما قال تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ

حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾

[الحجر: ٩]، وقال تعالى: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥].

ومتلبسًا بالحق داعيًا إليه، ومشتملًا عليه؛ أخباره صدق، وأحكامه عدل، كما قال

تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾

[الأنعام: ١١٥].

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ﴾ الفاء: عاطفة؛ لربط المسبب بالسبب، أي: فاعبد الله حال

كونك مخلصاً له وحده ﴿الَّذِينَ﴾، أي: التوحيد والعبادة والطاعة.
والإخلاص: التنقية، أي: مخلصاً له الدين من الشرك وشوائبه، داعياً الناس إلى
عبادته وحده والإخلاص له؛ ولهذا قال:

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ «ألا» للتنبيه، والاهتمام، أي: ألا لله وحده استحقاقاً،
واختصاصاً ﴿الَّذِينَ الْخَالِصُ﴾، أي: العبادة والطاعة والتوحيد الخالص النقي من الشرك
وشوائبه، وهذا تقرير للأمر بالإخلاص.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

لما أمر بالتوحيد وإخلاص العبادة لله تعالى وحده نهى عن الشرك وذم المشركين
وتوعدهم.

أي: والذين جعلوا ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، أي: غيره ﴿أَوْلِيَاءَ﴾، أي: آلهة من الأصنام
والأوثان يعبدونهم ويوالونهم ويدعونهم.

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، أي: معتردين ومعللين لعبادتهم بقولهم: ﴿مَا
نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، «ما»: نافية، و«إلا»: أداة حصر، واللام: للتعليل، أي:
إلا لأجل أن يقربونا ﴿إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، أي: قربي، أي: ما نعبدهم إلا لأجل التقرب بهم
إلى الله.

أي: لأجل أن يكونوا وسائط بيننا وبين الله، فيرفعوا حوائجنا إليه من طلب
الرزق، والنصر، وكل ما ينوبنا، ويقربونا إليه ويشفعوا لنا عنده، وليست عبادتنا إياهم
لاعتقاد منا أنهم يملكون من الأمر شيئاً، من خلق أو رزق أو غير ذلك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَخْتَصِمُ بَيْنَهُمْ﴾، أي: بين المشركين، وبين الخلائق كلهم.

﴿فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من العقائد والأحكام وغير ذلك وأخذ حقوق بعضهم
من بعض ومجازاة كل منهم بعمله، كما يفصل بين المشركين وبين معبوداتهم، قال تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ إِنَّا كَرِهْنَا أَنْ نَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ

أَنْتَ وَلِيْنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ [سبأ: ٤٠، ٤١].

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي﴾، أي: لا يوفق لسلوك الصراط المستقيم، والطريق القويم.

﴿مَنْ هُوَ كَذِبٌ كَفَّارٌ﴾ «من»: موصولة، أي: الذي هو كاذب في قوله، مكذب للآيات، ﴿كَفَّارٌ﴾ بها، منكر جاحد لها.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، وأن الفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لـ «أراد»، أي: لو أراد الله اتخاذ، أي: لو أراد الله كونًا، أي: لو شاء أن يجعل ولدًا- كما قال المشركون: الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ ۗ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وقالت النصارى المسيح ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيُّرَ بْنَ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

﴿لَا صُفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، و«ما»: موصولة، أي: لا اختار من الذي يخلقه، أي: من مخلوقاته.

﴿مَا يَشَاءُ﴾، أي: الذي يشاؤه؛ لأنه لا أحد يمنعه، له الخلق والأمر.

قال ابن كثير^(١): «أي: لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه، ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه، كما قال: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ مِنْ لَدُنَّا ۗ إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ [الزخرف: ٨١].

كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لقصد المتكلم.

﴿سُبْحٰنَهُ ۗ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، أي: تنزيهاً لله عز وجل وتقديساً وتعظيماً عن الشريك والصاحبة والولد، وعن النقائص والعيوب.

﴿هُوَ اللَّهُ﴾ «هو»: ضمير فصل للتأكيد والحصر، أي: هو المألوه المعبود حقاً وحده لا شريك له.

﴿الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ نعتان للفظ الجلالة «الله» مرفوعان.

﴿الْوَاحِدُ﴾، أي: الأحد الفرد الصمد، ذو الوجدانية التامة في ربوبيته وألوهيته

وأسمائه وصفاته.

ولو كان له ولد لشاركه في الألوهية، والألوهية ليست إلا له وحده، ولو كان له ولد لكان اثنين؛ لأن الولد يماثل أباه، والله تعالى واحد لا ثاني له عز وجل.

﴿الْفَهَارُ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر كل شيء، ودان وخضع وذل له كل

شيء.

قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ۝٥﴾
خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَنَزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِينَ ۚ أَرْسَلَ بَيْنَكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ۗ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ نَّصْرُونَ ﴿٦﴾.

نزه عز وجل نفسه عن الشريك والولد، وذكر تفرده بالوحدانية والقهر، ثم استدل على ذلك وبيّنه بذكر تفرده بالخلق، وغناه عن الولد.

قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾، أي: بالعدل والحكمة، ولعبادته وحده لا شريك له؛ ليجزي الذين أساءوا بها عملوا ويمجزي الذين أحسنوا بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ ۗ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ۚ ذَلِكُمْ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧].

﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾، أي: يُدَوِّرُ وَيَطْوِي اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ، وَيُدَوِّرُ وَيَطْوِي النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ؛ لمصالح الخلق، كما قال تعالى: ﴿يُعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَيْثُ شَاءَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾، أي: وذلل الشمس والقمر؛ لمصالح العباد.

﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾، أي: كل منهما يسير في فلكه بنظام متقن مقنن.

﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى أجل، أي: غاية ووقت معلوم محدد، وهو انقضاء هذه

الدنيا وخرابها يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَرِقَ الْبَصُرُ ۗ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۗ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ

وَالْقَمَرُ ۗ ﴿٩﴾ [القيامة: ٧-٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۗ ﴿١﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ ۗ ﴿٢﴾

[التكوير: ١، ٢].

﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾ «ألا» للتوبيه والاهتمام، أي: ألا هو ذو العزة التامة والقوة والغلبة.
 ﴿الْغَفَّارُ﴾، أي: ذو المغفرة الواسعة للتائبين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾
 [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَحَمَلَ صَلِحَاتِهِمْ أَهْتَدَى﴾ ﴿٨٢﴾ [طه: ٨٢]،
 وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

وفي اقتران «العزیز» و«الغفار» كمال إلى كمال في أوصافه عز وجل، فمع عزته وعظمته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأناب إليه.

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ الخطاب لبني آدم، أي: قدركم وأنشأكم أيها الناس من نفس واحدة، هي نفس أبيكم آدم عليه السلام، مع كثرتكم، واختلاف أجناسكم وأصنافكم وألوانكم.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، أي: ثم خلق منها زوجها حواء عليها السلام، خلقها عز وجل من نفس آدم، فهي مخلوقة منه.

وهي أيضًا: من جنسه، كل منها بشر من البشر؛ ليسكن كل منهما إلى الآخر، فلو كان أحدهما من فصيلة غير فصيلة الآخر ما حصل السكون بينهما.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَطَ بِهِ الْأَشْيَاءَ﴾، أي: وخلق وأوجد لكم من الأنعام، بقدره النازل منه رحمة بكم، كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] أي: من المطر، وما يقدره الله لكم من الرزق وغير ذلك.

وسميت الأنعام بهذا الاسم؛ لما فيها من النعمة، ولما في مشيها من اللين.

﴿ثَمِينًا أَرْوَاهُ﴾، أي: ثمانية أصناف، ذكورًا وإناثًا، من الإبل، والبقرة والضأن

والمعز، كما قال تعالى: ﴿ثَمَنِيَّةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّكَّانِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ﴾، وقال: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].

وخص الأزواج الثمانية - مع أنه عز وجل خلق وأوجد لمصالح عباده كثيرًا من البهائم غيرها - لكثرة منافعها، ولشرفها، واختصاصها بأشياء لا يصلح لها غيرها كالأضحية والهدي والعقيقة، والدية، ووجوب الزكاة فيها دون غيرها من البهائم.

﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾.

لما ذكر ابتداء خلقهم من نفس واحدة، ذكر كيف تسلسل خلقهم.

أي: يقدركم وينشئكم في بطون أمهاتكم. والبطون: جمع بطن، سميت بذلك لخفائها، مقابل الظهور، و «أمهات»: جمع أم، وأمهة.

﴿خَلَقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقِ﴾ «خلقًا»: مفعول مطلق، أي: خلقًا متطورًا، ينتقل من خلق إلى خلق آخر، أي: طورًا من بعد طور، من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم عظامًا، ثم يكسو العظام لحمًا، ثم ينشئه خلقًا آخر.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ ﴿١١﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٢-١٤].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن أحدكم يجمع خلقه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك، فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات: يكتب رزقه وأجله وعمله، وشقي أم سعيد»^(١).

﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ لا يصل إليها الضوء، وهي: ظلمة البطن، وظلمة الرحم،

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق - ذكر الملائكة ٣٢٠٨، ومسلم في القدر - كيفية خلق آدمي في بطن أمه

وظلمة المشيمة، التي تكون كالغشاوة على الجنين؛ لوقايته وحمايته.
وهذا من عظيم عناية الله عز وجل به وحفظه له؛ لأن أشعة الضوء لو وصلت إليه
لأثرت عليه وأفسدته.

﴿ذَلِكُمْ﴾، أي: ذلكم الذي خلق السموات والأرض، ويكور الليل على النهار،
ويكور النهار على الليل، وسخر الشمس والقمر، والذي خلقكم من نفس واحدة،
وخلق منها زوجها، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج، ونقلكم في مراحل خلقكم
طوراً من بعد طور، واعتنى بكم ﴿اللَّهُ﴾، أي: المألوه المعبود ﴿رَبُّكُمْ﴾: خالقكم
ومالككم، والمتصرف فيكم، ذو العناية العظيمة التامة بكم.

﴿لَهُ الْمُلْكُ﴾، أي: له وحده خاصة الملك والتدبير؛ لأن من له الملك يملك
الأعيان، والتصرف فيها وتديرها.

وأشار إلى نفسه عز وجل بإشارة البعيد «ذلكم»؛ تعظيماً لنفسه، وبيانا لعلو شأنه،
وكماله في ذاته وصفاته.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود حق إلا هو، فكما أنه الواحد في خلقه ومملكه
وربوبيته، لا شريك له في ذلك، فهو الواحد في ألوهيته، لا تنبغي العبادة إلا له وحده،
لا شريك له.

﴿فَأَن تَصْرَفُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: فكيف تُصرفون عن عبادته، وتعبدون
معه غيره، مع قيام الأدلة والبراهين على وحدانيته - أين يُذهب بعقولكم؟

﴿إِن تَكْفُرُوا﴾، أي: إن تكفروا أيها الناس بالله، وبما أوجب عز وجل الإيمان به
﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنكُمْ﴾، أي: لا يضره كفركم، كما لا ينفعه إيمانكم؛ لأنه سبحانه الغني
عما سواه من الخلق كلهم، كما قال موسى عليه السلام: ﴿إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَعَنِي حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل أنه
قال: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل

واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً»^(١).

﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، أي: لا يرضى ولا يجب لعباده عامة الكفر، ولا يريده منهم شرعاً؛ لأنه سبب للشقاء في الدنيا والآخرة؛ ولهذا نهاهم عنه، رحمة بهم ومحبة للإحسان إليهم، وهذا لا ينافي تقديره الكفر على من كفر منهم، وإرادته منهم كوناً.

﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا﴾ فتؤمنوا بالله وتطيعوه، ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ «يرضه»: جواب الشرط «إن» مجزوم بحرف العلة، وأصله: «يرضاه»، وضمير الهاء يعود إلى الشكر، أي: وإن تشكروا بالإيمان والطاعة يرضى ذلك لكم؛ لأنه خلقكم لذلك، ولأن فيه سعادتك في دينكم ودنياكم وأخراكم؛ ولهذا أمركم بذلك رحمةً بكم ومحبةً للإحسان إليكم، وإثابتكم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴿٨﴾ [البينة: ٧-٨].

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: ولا تحمل أيُّ نفس، ﴿وَازِرَةٌ﴾، أي: مكلفة قابلة لحمل الوزر وهو الإثم والذنب ﴿وَزْرَ أُخْرَىٰ﴾، أي: إثم وذنب أيِّ نفس أخرى.

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ وحده ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ كلكم، من كفر منكم، ومن شكر، أي: مصيركم ومردكم بعد موتكم وبعثكم يوم القيامة.

﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و«ما» موصولة، أو مصدرية، أي: فيخبركم بالذي كنتم تعملونه، أو بعملكم، أي: فيخبركم بأعمالكم جزائها.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل لما قبله، أي: لعلمه بذات الصدور، أي: بصاحبة الصدور، وهي القلوب، وما تكنه وتسره من المعتقدات والمضمرات.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴿٩﴾﴾ [الطارق: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾﴾ [العاديات: ١٠].

(١) سبق تخرجه.

وعلمه عز وجل بالظاهر من باب أولى.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾، أي: وإذا أصاب الإنسان، أي: الكافر.

﴿ضُرُّ﴾ نكرة في سياق الشرط، أي: أيّ ضرر، من مرض أو فقر، وشدة وكرب، ونحو ذلك، في نفسه أو أهله أو ولده.

﴿دَعَارِيَهُ﴾، أي: تضرع إلى ربه وحده، لكشف ضره.

﴿مُنِيْبًا إِلَيْهِ﴾، أي: راجعًا تائبًا إليه، مستعينًا به وحده على إزالة ما أصابه.

ودعاه بوصف الربوبية معتقدًا أنه وحده الرب الذي يملك جلب النفع وكشف

الضرر، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ النمل: ٦٢.

﴿ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ﴾، أي: إذا أعطاه ومنحه ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ بأن كشف عز وجل ما

أصابه من ضرر، وأسبغ عليه نعمته.

﴿نَسِيَ﴾، أي: ترك ﴿مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ «ما»: اسم موصول يعود إلى الله،

وكذا الضمير في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾ يعود إلى الله، أي: نسي وترك الذي كان يدعو إليه من قبل؛ لكشف ضره، وهو «الله»، وغفل عنه.

ونسي أيضًا ذلك الضرر الذي دعا الله لأجله، ومر كأنه ما أصابه ضرر، واستمر على

شركه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا

عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي

الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ دَعَا إِلَىٰ آيَاتِهِ فَلَمَّا بَلَغْنَا إِلَيْهِ لَمَّا بَلَغْنَا إِلَىٰ الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، أي: شركاء وأمثالًا، فلم ينسبهم، ولم يغفل عنهم، يعبدهم من

دون الله.

﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب بفتح الياء: ﴿لِيُضِلَّ﴾، أي:

ليضل بنفسه، وهو إذا ضل أضل الناس بدعوتهم إلى الضلال، إما بمقاله، أو بحاله.

وقرأ الباقر بضم الياء: ﴿لِيُضِلَّ﴾، أي: ليضل الناس بعدما ضل بنفسه.

واللام: للتعليل، أي: لأجل أن يضل ويضل الناس عن سبيل الله، أي: عن

صراطه المستقيم، وطريقه القويم، الموصل إليه، وإلى مرضاته وجنته، وهو دين

الإسلام.

﴿قُلْ﴾ الأمر له ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿تَمَتَّعَ بِكُفْرِكَ﴾ الخطاب لمن حاله ما ذكر: الإخلاص والإنابة حال الضراء، والشرك في حالة السراء.

والتمتع: الانتفاع المؤقت، أي: تمتع متلبسًا بكفرِكَ، أو بسبب كفرِكَ.

﴿قَلِيلًا﴾، أي: مدة حياتك القليلة في هذه الدنيا الحقيرة الفانية، كما قال تعالى:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦].

والمراد بالأمر في قوله: ﴿تَمَتَّعَ بِكُفْرِكَ﴾: التهديد والوعيد؛ ولهذا قال:

﴿إِنَّكَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ تعليل لما قبله، أي: فلا يغنيك ولا ينفعك ما تتمتع به؛

لأنك من أصحاب النار الملازمين لها الخالدين فيها.

وفي هذا تهديد شديد، ووعيد أكيد لكل من كان هذا طريقه ومسلكه.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقال تعالى:

﴿نُمِتْنَاهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّضْنَاهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٢٤) [لقمان: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ

مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَمْتَنِعُونَ ﴿٢٧﴾

[الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًىٰ لَهُمْ﴾ (١٣)

[محمد: ١٢].

الفوائد والأحكام:

١- إثبات تنزيل القرآن من الله عز وجل، وأنه كلامه سبحانه، وتعظيمه، وأنه نزل

مفرقًا؛ لقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْكِتَابِ﴾.

٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.

٣- الرد على المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

٤- أن القرآن الكريم مكتوب في اللوح المحفوظ وفي الكتب التي بأيدي الملائكة

كما أنه مكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لهذا سمي: «الكتاب».

٥- أن القرآن الكريم هو أفضل الكتب على الإطلاق؛ لأنه إذا أطلق اسم الكتاب انصرف إلى القرآن الكريم.

٦- تعظيم الله عز وجل لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، بالإظهار مقام الإضمار بقوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾، ووصف نفسه بقوله: ﴿الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾؛ ولقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ بضمير الجمع؛ تعظيماً لنفسه.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «العزیز» وأنه سبحانه ذو العزة التامة: عزة القوة وعزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾، وقوله: ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ﴾.

٨- إثبات اسم الله تعالى «الحكيم» وأنه سبحانه ذو الحكم التام: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، وذو الحكمة البالغة: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمِ﴾.

٩- في اقتران اسميه عز وجل «العزیز» و«الحكيم» كمال إلى كمال، فعزته وقوته مقترنة بالحكمة، وحكمته وحكمه كل منهما مقترن بالعزة والقوة.

بخلاف الخلق الضعاف، فإن وجدت فيهم من فيه شيء من العزة والقوة، وجدته غشياً غير حكيم، وإن وجدت فيهم حكيماً، وجدته ضعيفاً، وقل منهم من تجتمع فيه القوة ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

١٠- إثبات رسالته ﷺ وتشريفه بإنزال الكتاب إليه، وخطاب الله عز وجل له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

١١- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ متلبساً بالحق، فسنده أصح الأسانيد، تلقاه جبريل عليه السلام من الله عز وجل، وأداه إلى النبي ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ولا تغيير ولا تبديل، وهو مشتمل على الحق في دعوته وأخباره وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

١٢- وجوب عبادة الله تعالى وإخلاص العبادة والطاعة له وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا أمر له ﷺ، وهو العابد المخلص، ولا غضاضة في ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

والأمر في الآية له ﷺ ولأمته.

١٣- أن الله عز وجل - وحده - الدين والتوحيد الخالص من الشرك وشوائبه، فمن أشرك مع الله غيره فعبادته باطلة؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَالَصُوا﴾. وقوله تعالى في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(١).

١٤- ذم الذين اتخذوا غير الله أولياء يعبدونهم ويوالونهم ويدعونهم، ويزعمون أنهم يقربونهم إلى الله ويشفعون لهم عنده، وإيذانهم، وتهديدهم بحكمه عز وجل بينهم فيما هم فيه يختلفون، ومجازاتهم بأعمالهم، والفصل بينهم وبين معبوداتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

١٥- إقرار المشركين بأنهم يعبدون أصنامهم؛ لقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾.

١٦- اعترافهم بوجود الله، وأنه أعظم من معبوداتهم، وأنه الذي بيده النفع والضر.

١٧- حرمانه عز وجل من هداية التوفيق من كان وصفه الكذب والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾.

وفي هذا تحذير من الكذب والكفر، وترغيب بالصدق والإيمان.

١٨- نفي أن يكون له تعالى ولد، وبيان أنه سبحانه لو أراد أن يجعل له ولداً لاختار من خلقه الذي يشاؤه، لكنه عز وجل لا يريد ذلك؛ لكمال غناه، لعدم حاجته إلى أحد من خلقه، وافتقار الخلق كلهم إليه؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾.

١٩- إثبات صفة الإرادة الكونية والمشیئة لله تعالى، وهما بمعنى واحد؛ لقوله

(١) سبق تخريجه.

تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

٢٠- كمال سلطانه عز وجل وتفرده بالخلق والملك والتدبير؛ لقوله تعالى:

﴿لَأَصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

٢١- تنزيه الله تعالى عن الشريك، وعن الصاحبة والولد، وعن كل عيب ونقص؛

لقوله تعالى: ﴿سُبْحٰنَهُ﴾.

٢٢- إثبات أنه- عز وجل- هو المعبود حقاً وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ

اللَّهُ﴾.

٢٣- إثبات اسم الله تعالى «الواحد»، وأنه سبحانه ذو الوجدانية، الواحد الأحد

الفرد الصمد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾.

٢٤- إثبات اسم الله تعالى: ﴿الْقَهَّارُ﴾، وأنه سبحانه ذو القهر والغلبة، الذي قهر

كل شيء، وخضع ودان له كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَهَّارُ﴾.

٢٥- في اقتران اسميه عز وجل: «الواحد»، و«القهار» إشارة إلى تلازم هذين

الوصفين في حقه عز وجل؛ لأن من يتصف وحده بالوجدانية لا بد أن يكون قهاراً،

ومن يتصف وحده بالقهر لا بد أن يكون واحداً.

٢٦- إثبات تفرد عز وجل بالخلق والتدبير والملك، وعظمته وكمال قدرته؛ لقوله

تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ إلى قوله: ﴿ذٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

٢٧- أن السموات والأرض وما بينهما وما فيهما من الأشياء كلها مخلوقة، خلقها

الله وأوجدها بعد العدم، وليس منها شيء أزلي، كما يقول الفلاسفة والطبائعيون.

٢٨- أن الله خلق السموات والأرض، والخلق كله بالحق والعدل؛ ليعبده الخلائق،

ويجازيهم على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ الآيات.

٢٩- أن من أعظم المخلوقات السموات والأرض؛ لهذا قدمت في الذكر في الآية.

٣٠- نعمة الله تعالى وتمازج قدرته في تكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على

الليل، وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى يوم القيامة، وما في ذلك من المصالح

العظيمة للخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿يَكْوِرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ

السَّمْسِ وَالْقَمَرِ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿١﴾.

٣١- إثبات كروية الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿يَكْوَرُ أَيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيَكْوَرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ عَلَى أَيْلٍ﴾ فإذا كان تعاقب الليل والنهار على الأرض وسيرهما يسمى تكويراً دل على أنها كروية، وهذا هو الصحيح.

٣٢- إثبات جريان الشمس والقمر، والرد على من قال: بأن الشمس والقمر ثابتان.

٣٣- الإشارة إلى فناء الدنيا وزوالها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٣٤- إثبات اسم الله «الغفار»، وأنه- عز وجل- ذو المغفرة الواسعة لذنوب

التائبين من عباده مهما كثرت وعظمت؛ لقوله تعالى: ﴿الْغَفَّارُ﴾.

٣٥- في اقتران اسميه عز وجل «العزیز» و«الغفار» دلالة على كمال أوصافه

وعظمته، فمع عزته وكبريائه هو غفار لمن عصاه ثم تاب وأنا ب إليه.

٣٦- أن الناس خلقوا كلهم من نفس واحدة، أي: من آدم عليه السلام؛ لقوله

تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾.

٣٧- أن حواء- عليها السلام- خلقت من آدم، وجعلت من جنسه، من تمام

قدرته عز وجل، وعظيم منته على العباد؛ ليسكن كل من الزوجين إلى الآخر؛ لقوله

تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا رَوْحَهَا﴾.

٣٨- امتنانه عز وجل في خلق الأزواج الثمانية من الأنعام، وما فيها من المصالح

والمنافع العظيمة للعباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكُمْ مِنْ الْأَنْعَامِ ثَمِينَةَ أَرْوَاحٍ﴾.

٣٩- عناية الله تعالى في خلق الإنسان، ونقله في مراحل وأطوار خلقه، من نطفة،

ثم علقه، ثم مضغه، ثم عظاماً إلى أن تم خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ

أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ﴾.

٤٠- حفظه عز وجل للإنسان في بطن أمه من كل شيء يؤثر عليه، حتى من الضوء؛

لقوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾.

٤١- تفرد عز وجل بالربوبية واختصاصه بالملك كله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ اللَّهُ

رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾.

٤٢- إثبات تفرد عز وجل وحده بالألوهية، ووجوب عبادته وحده، وأن من لازم الإقرار بتوحيد الربوبية الإقرار بتوحيد الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٤٣- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿دَعَارِبُهُ﴾.

٤٤- الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله، ربهم؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصَرِّفُونَ﴾.

٤٥- غنى الله عز وجل التام عن خلقه، فلا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ﴾، وإنما أمرهم عز وجل بعبادته لحاجتهم إلى ذلك ومنفعتهم.

٤٦- أن الله عز وجل لا يرضى ولا يجب لعباده الكفر؛ لأن فيه شقاءهم وعدم سعادتهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾.

٤٧- إثبات صفة الرضا لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

٤٨- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِعِبَادِهِ﴾.

٤٩- رضاه عز وجل لعباده أن يشكروه، فيؤمنوا به ويطيعوه؛ لمحبتة الخير والسعادة لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾.

٥٠- التحذير من الكفر والترغيب في الشكر، وذم الكفر، وبيان فضيلة الشكر.

٥١- تمام عدل الله عز وجل في حساب الخلائق، فلا تحمل نفس إثم نفس أخرى، بل يجازى كل بعمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

٥٢- أن الإثم إنما يتحملة من كان قابلاً له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ﴾ والوازره هي التي تكون أهلاً لتحمل الوزر، وهي المكلفة.

وفي الحديث: «رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ، والمجنون حتى يفيق،

والصغير حتى يبلغ»^(١).

٥٣- إثبات المعاد ورجوع الخلائق كلهم إلى ربهم، وإخباره إياهم بأعمالهم كلها، ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

٥٤- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. ولم يقل: فينبئكم بجزاء ما كنتم تعملون، أو بجزائكم؛ لإفادة أن الجزاء من جنس العمل.

٥٥- علم الله تعالى التام بما تكنه الصدور والقلوب من المعتقدات والأسرار والمضمرات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

وعلمه عز وجل بالظواهر من باب أولى.

٥٦- الإشارة إلى أن العبرة بصلاح القلوب، إذ بصلاحتها تصلح الأجساد.

٥٧- ذم الكافر؛ لأنه لا يعرف ربه إلا عند الضرورة، فإذا مسه ضر دعا ربه، وتضرع إليه؛ لكشف ضره، منيباً إليه، وإذا أنعم عليه، وكشف عنه ضره نسيه، ونسي ما كشفه عنه من الضر، وارتكس بالشرك؛ ليضل ويضل عن سبيل الله وصراطه المستقيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا حَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلٍ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾.

٥٨- أن الكفار يؤمنون بالله وبربوبيته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَا رَبَّهُ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَلَكِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧].

٥٩- أن الله عز وجل يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً؛ لأن رحمته عز وجل تسبق غضبه، كما يجيب دعوة المظلوم ولو كان كافراً؛ إحقاقاً للحق والعدل، كما قال ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «واتق دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»^(٢).

٦٠- أن الله تعالى هو وحده كاشف الضر، ودافع النقم، وجالب الخير، ومسبغ

(١) سبق تخرجه.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤٨، ومسلم في الإيمان ١٩، وأبو داود في الزكاة ١٥٨٤، والترمذي في الزكاة ٦٢٥، وابن ماجه في الزكاة ١٧٨٣- من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

النعم.

٦١- أن الشر ليس إليه عز وجل، والخير كله بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾ فنسب المس إلى الضر نفسه، ولم ينسبه إلى الله تعالى مع أنه بتقديره عز وجل، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾، فنسب النعمة إليه عز وجل.

٦٢- أن جعل الأنداد لله تعالى ضلال وكفر؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، وقوله: ﴿تَمَتَّعَ بِكُفْرِكَ﴾.

٦٣- الحذر من أهل الضلال؛ لأنهم قدوات سيئة بأقوالهم وأفعالهم.

٦٤- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد لمن سلك هذا المسلك وأشرك بالله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾.

٦٥- أن من كان مصيره النار والخلود فيها لا يغنيه ولا ينفعه ما تمتع به من متاع الدنيا.

وفي الحديث: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مرّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله، يا رب»^(١).

٦٦- أن الدنيا كلها ومتاعها قليل بالنسبة إلى الآخرة.

٦٧- إثبات وجود النار وعذابها، وملازمة أهلها لها، وخلودهم فيها.

* * *

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٨٠٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢١ - من حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَسْعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلْ اللَّهُ أَغْبَدُ مَخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَّذِينَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمَبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُمْ مِنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَتَّبِعُونَ يَتَّبِعُونَ فَاتَّقُوا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمِعَادَ ﴿٢٠﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾ ۞

قوله: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاتَاءَ الْيَلِّ سَاجِدًا وَقَائِمًا ۞

قرأ ابن كثير ونافع وحزمة بتخفيف الميم: ﴿ أَمَّنْ ۞

وقرأ الباقر بتشديدها: ﴿ أَمَّنْ ۞: مركبة من «أم» المنقطعة التي بمعنى «بل» التي

للإضراب الانتقالي، وهزمة الاستفهام الإنكاري، ومن «مَن»: الموصولة.

أي: أَمَّنْ هو قانت: مطيع خاشع خاضع لله تعالى، ﴿ءَاتَاءَ الْيَلِّ﴾، أي: أوقات الليل

وساعاته، كما شرع الله تعالى، بقيام الليل كله، كما في العشر الأخيرة من رمضان، وقيام

ثلث الليل وسدسه، كما هو قيام داود وقيام نبينا عليهما الصلاة والسلام^(١).

﴿سَاجِدًا﴾ حال، أي: مصليًا، ساجدًا على أعضائه السبعة، خاضعًا لله متذللًا له.

﴿وَقَائِمًا﴾ معطوف على ﴿سَاجِدًا﴾، أي: قائمًا لله تعالى يصلي.

وخص السجود والقيام؛ لأن السجود والقيام؛ لأن السجود أشرف أعمال الصلاة

(١) انظر تفسير مطلع سورة الزمر.

من حيث هيئته، والقيام أفضلها من حيث ذكره.

﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ الجملة: حالية، أي: حال كونه يحذر الآخرة، أي: يخاف الدار الآخرة والقيامة وأهوالها، والنار وعذابها.

﴿وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، أي: ويؤمل أن يرحمه ربه برحمته الواسعة، فيزحزحه عن النار، ويدخله الجنة، كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»^(١).

وهذه الحال- وهي الجمع بين الخوف والرجاء- أفضل الأحوال.

عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجددك؟ قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وأمنه مما يخاف»^(٢). وقد أحسن القائل:

أسير الخطايا عند بابك واقف على وجل مما به أنت عارف
يخاف ذنوباً لم يغب عنك غيبها ويرجو ك فيها فهو راج وخائف^(٣)

والمراد: أفمن هذه صفته، كمن هو كافر مشرك، عاص لله، مكذب بالآخرة، لا يخاف عذابها ولا يؤمن بربه ولا يرجو رحمته، شتان بين هذا وهذا.

كما قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]؛ ولهذا قال:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمَلُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْمَلُونَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له،

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز ٩٨٣، وابن ماجه في الزهد- ذكر الموت والاستعداد له ٤٢٦١- وقال الترمذي: «حديث غريب».

(٣) البيتان لابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف القرطبي. انظر: «نفع الطيب» ١٢٩/٢، «مجانى الأدب» ١٤/٣.

والاستفهام للإنكار والنفي، أي: لا يستوي الذين يعلمون وهم أهل العلم بالكتاب والسنة، والفقهاء في الدين، العارفون بالله وما يجب له، العاملون بعلمهم، الذين يرجون رحمة الله ويخافون عذابه.

وليس المراد بالذين يعلمون الذين حفظوا كثيرًا من العلوم والمتون الشرعية وغيرها وأحاطوا بكثير من المعارف، مع الجهل برهيم، وعدم المعرفة بحقه وما يجب له، كما هو حال كثير من المتشبعين بالعلم، علماء الشهرة والدرهم والدينار، وما أكثرهم، والذين هم أول من تسعروهم النار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرفه نعمه، فعرفها. قال: ما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت؛ لأن يقال: جرى، فقد قيل، ثم أمر به، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ورجل تعلم العلم وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرفه نعمه، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم؛ ليقال: عالم، وقرأت القرآن؛ ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار.

ثم ذكر الثالث، وهو: رجل وسع الله عليه في المال، فكان ينفق؛ ليقال: جواد. قال: فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار»^(١).

وفي رواية قال ﷺ: «يا أبا هريرة أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعروهم النار يوم القيامة»^(٢).

وقد أحسن القائل:

وعالم بعلمه لم يعملن معذب من قبل عبّاد الوثن^(٣)

وقال الآخر:

(١) أخرجه مسلم في الإمامة ١٩٠٥، والنسائي في الجهاد ٣١٣٧، والترمذي في الزهد ٢٣٨٢.

(٢) أخرجه الترمذي، وقال: «حديث حسن غريب».

(٣) البيت لابن رسلان الشافعي. انظر: «غاية البيان شرح زيد ابن رسلان» (ص ٤).

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه في النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما^(١)

﴿وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وهم أهل الجهل بالله وحقوقه وما يجب له، المشركون به،
المكذبون بالآخرة، المنكرون رحمة الله وجنته.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما يتذكر إلا أولو الألباب،
ومعنى ﴿يَتَذَكَّرُ﴾: يعتبر وينتفع بالمواعظ ﴿أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، أي: أصحاب العقول
السليمة، الذين ينتفعون بعقولهم، ويهتدون بها- بتوفيق الله- إلى الحق، فيكونون في
طليعة الذين يعلمون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ
وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾
وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له، أي: قل يا محمد مبلغاً
عني: ﴿يَاعِبَادِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: صدقوا بقلوبهم.

﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ بجوارحكم بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وذلك لأن الإنسان في
كل لحظة في حاجة إلى الإيمان والتقوى، والثبات على ذلك والاستزادة منه، كما قال
تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ
وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، أي: للذين أحسنوا خاصة، في هذه الدنيا،
بالإخلاص بعبادة الله تعالى، واتباع شرعه، كما قال ﷺ في حديث جبريل: «الإحسان
أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٢).

(١) البيتان للقاظمي علي بن عبد العزيز الجرجاني. انظر: «محاضرات الأدباء» ١/ ٥٢، «ربيع الأبرار» ٤/ ٣٥،
«المستطرف» ١/ ٥٠.

(٢) سبق تخريجه.

أي: أن تعبد الله كأنك تراه، طمعاً ورجاء فيما عنده، وتعبده لأنه يراك رهبة وخوفاً منه.

وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولاً وفعلاً وبذلاً - مع بذل الندى، وطلاقة الوجه، وكف الأذى.

﴿حَسَنَةٌ﴾ نكّرت: للتعظيم، أي: حسنة عظيمة، من التوفيق، والسعادة، وسعة الرزق وانسراح الصدر وطمأنينة النفس، وطيب الحياة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً﴾: تعريض بالحث على الهجرة، وهي من جملة الإحسان المذكور في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَنُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

والإخبار بسعة أرضه عز وجل من جملة الحسنة التي وعد بها بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾، أي: فمن خرج مهاجرًا من بلد الكفر إلى بلد الإسلام، فسيجد سعة في الأرض وسعة في الرزق، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْعًا كَثِيرًا وَسِعَةً﴾ [النساء: ١٠٠] (١).

﴿إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ﴾، أي: إنما يعطى الصابرون، الذين صبروا على طاعة الله تعالى، وعلى الهجرة في سبيله، وعن معصيته، وعلى أقداره ﴿أَجْرَهُمْ﴾، أي: ثوابهم في الآخرة، تامًا وافيًا.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: بغير حد ولا عد ولا مقدار، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وذلك؛ لفضيلة الصبر وعظم منزلته عند الله؛ لأنه عون على كل الأمور.

فوعدهم الله بالحسنة في الدنيا والأجر في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ

(١) راجع تفسير هذه الآية في سورة النساء.

﴿النحل: ٣٠﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آئِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةٌ وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ ﴿٢٠١﴾ [البقرة: ٢٠١].

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ ﴿١١﴾، أي: قل يا محمد: إني أمرت، أي: أمرني ربي، فأنا عبد مأمور له.

و«أن»، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، أي: بعبادة الله ﴿مُخْلِصًا﴾: حال، أي: حال كوني ﴿مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ من الشرك وشوائبه. أي: مخلصًا له التوحيد والعبادة والطاعة، وحده لا شريك له، كما في قوله تعالى له في أول السورة: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿١٢﴾، أي: أقوى المسلمين إسلامًا من جميع الأمم، وأسبق المسلمين من هذه الأمة وأقواهم إسلامًا، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٣﴾ لا شريك له. وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴿١٣﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

ولهذا قال ﷺ: «أما والله إني لأتفاكم الله، وأخشاكم له»^(١).

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ﴾، أي: قل يا محمد إني أخشى.

﴿إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾، المعصية: ترك المأمور، أو ارتكاب المحذور، ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهو يوم القيامة، والشرط لا يدل على وقوع المشروط ولا على تحققه، وفيه تحذير لأمته من معصية الله تعالى.

﴿قُلْ اللَّهُ أَعْبُدُ﴾ وحده ﴿مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ «مخلصًا»: حال، أي: منقيًا له ﴿دِينِي﴾، أي: عبادتي وتوحيدي وطاعتي، من الشرك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَأْتِيهَا الْكُفْرُوتُ﴾ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَعَ عَبْدِكُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ [الكافرون: ١-٦].

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٠٨- من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه.

﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ﴾ «ما»: موصولة، أي: فاعبدوا الذي شئتم ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، أي: غيره من المخلوقات، وهذا تبرؤ منهم وتهديد لهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ﴾ حقيقة هم: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ حيث حرموها بسبب كفرهم الثواب، وأبقوها في العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا﴾ [الشمس: ١٠] وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه، فمعتقها، أو موبقها»^(١).

﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾، أي: وخسروا أهلهم من أولادهم وأزواجهم؛ لكفرهم بسببهم. ولا ينفعهم كونهم كلهم في النار؛ لأن أهل النار قد تقطعت بهم الأسباب فلا تواصل بينهم.

ويحتمل أن يكون سبب خسرتهم كونهم في النار وأهلهم في الجنة. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يوم يقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، و﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨]، يوم قيام الحساب، وقيام الأشهاد، وقيام العدل الحقيقي بين العباد.

﴿أَلَا ذَلِكَ﴾ «ألا»: حرف تنبيه، والإشارة للمصدر المفهوم مما سبق، أي: لخسران الأنفس والأهل يوم القيامة.

﴿هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ «هو»: ضمير فصل؛ للتوكيد والحصر، أي: هو الخسران البين الظاهر الواضح، الذي لا خسران أبين منه، ولا أظهر، الذي لا ربح بعده، بل، ولا سلامة.

﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾. لما ذكر شدة خسران الكفار الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة، أتبع ذلك بذكر ما يحصل لهم من ألوان العذاب والشقاء في النار.

و﴿ظُلَلٌ﴾: جمع «ظلة»، كظلل الغمام والسحاب والدخان، وغير ذلك.

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣ - من حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

أي: لهم من فوق رءوسهم أطباق محيطة بهم من النار، ﴿وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾، أي: ولهم من تحت أرجلهم ظلل، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٥].

﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ﴾، الإشارة إلى قوله: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

أي: ذُكِرَ ما أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ هَذَا الْعَذَابِ مِمَّا يَخَوْفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، وَيَحْذِرُهُمْ بِهِ لِيَتَّقُوهُ وَيَطِيعُوهُ؛ وَهَذَا قَالَ: ﴿يَعْبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ بفعل ما أمرتكم به وترك ما نهيتكم عنه، واخشوني واحذروا عذابي ونقمتي.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ] ﴿١٨﴾.

لما ذَكَرَ ما أَعَدَّ لِلْمُشْرِكِينَ الْخَاسِرِينَ مِنَ الْعَذَابِ الْأَلِيمِ، أَتْبَعَهُ بِذِكْرِ ما أَعَدَّ لِلْمُوحِدِينَ الْمُنِيِّينَ مِنَ الْبَشْرَى بِالْجَنَّةِ وَالنَّعِيمِ، جَمْعًا بَيْنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ، وَالرَّغِيبِ وَالرَّهَيْبِ.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾، أي: تركوا الطاغوت وابتعدوا عنها.

والطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع^(١) في غير طاعة الله ورسوله. فيدخل فيه: الأصنام والأوثان، وكل من عبد من دون الله وهو راض، ونحو ذلك.

﴿أَنْ يَعْبُدُوهَا﴾ أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب بدل من ﴿الطَّاغُوتَ﴾.

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: تابوا ورجعوا إلى الله بإخلاص الدين له وحده لا شريك له.

﴿لَهُمُ الْبُشْرَى﴾، أي: لهم خاصة البشرية، و«البشرى»: الإخبار بما يسر القلب ويفرح النفس، أي: البشارة العظيمة التي لا يقدر قدرها إلا من بشرهم بها وأكرمهم بها، في الدنيا

(١) انظر: «إعلام الموقعين» ٤٠/١.

والآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ [يونس: ٦٣-٦٤].

فلهم البشرى في الدنيا بالتوفيق والسعادة، والحياة الطيبة، كما قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير، ويحمده الناس عليه؟ قال: «تلك عاجل بشرى المؤمن»^(١).

ولهم البشرى عند الموت والاحتضار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت: ٣٠].

ولهم البشرى في القبر والبرزخ، كما جاء في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه: «ويأتيه رجل حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: «أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعده»^(٢).

ولهم البشرى في القيامة بالجنات، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانِكُمْ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾ [الحديد: ١٢].

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ لما ذكر أن البشرى للذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله خاصة، أمر بالتبشير لهم فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾، أي: فبشر عبادي، وحذفت الياء للتخفيف.

﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ﴾، أي: يصغون إليه، والاستماع: متابعة المتكلم والإنصات والإصغاء إليه.

والمراد بـ«القول»: القرآن، و«ال»: للتعريف والعهد، أي: الذين يستمعون القرآن

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٤٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٥.

(٢) سبق تخريجه.

المعروف المعهود، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، يعني القرآن، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) [القصص: ٥١-٥٣].

وهؤلاء هم الذين عناهم الله تعالى في قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْآذَانِ سُجَّدًا﴾ (١٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٨) [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨]، وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ (٢١) [الأحقاف: ٢٩].

﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ القرآن كله أحسن، قد بلغ غاية الحسن، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا﴾ [الزمر: ٢٣].

ومعنى قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾، أي: فيعملون بأحسن ما أمرهم به. وذلك أن مقتضى ما أمر به القرآن الكريم فيه حسن وأحسن، فالقرآن أمر بفعل الواجبات والمستحبات، فالإقتصار على فعل الواجبات حسن، وفعل المستحبات مع الواجبات أحسن.

ونهى القرآن عن المحرمات والمكروهات، فترك المحرمات حسن، وأحسن منه ترك المكروهات مع المحرمات وهكذا.

وسلوك طريق الأبرار حسن، وأحسن منه سلوك طريق المقربين.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥].

ومعنى قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا﴾ [الأعراف: ١٤٥].

﴿أُولَئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك»؛ لعلو مرتبتهم ورفعة شأنهم، أي: أولئك الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه هم وحدهم:

﴿الَّذِينَ هَدَاهُمْ اللَّهُ﴾، أي: الذين أرشدهم الله، وخصهم بهدايته الخاصة: هداية التوفيق، فوفقهم للإيمان واتباع القرآن؛ للعلم النافع والعمل الصالح، لأحسن الأقوال والأعمال والأخلاق.

﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ كرر الإشارة إليهم بإشارة البعيد تأكيداً لعلو شأنهم وفضلهم. و«هم» ضمير فصل يفيد التوكيد والحصر، فالجملة مؤكدة بتكرار الإشارة، وبكونها اسمية معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، أي: وأولئك المتصفون بما ذكر الذين هداهم الله ووفقهم، هم أصحاب العقول السليمة الذين هدتهم عقولهم بتوفيق الله إلى الحق، وتغلبوا بها على أهوائهم وشهواتهم فنجوا وأفلحوا- كما قيل:

وأفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا^(١)

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٦﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِهْمَهُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّبِينَةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾ الاستفهام في الموضوعين: للإنكار والنفي. أي: أفمن وجبت عليه كلمة العذاب، وكتب الله عليه الضلال والشقاء والهلاك.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾، أي: أفأنت يا محمد تستطيع إنقاذ من في النار وتخليصه وإنجاءه منها؟

والجواب: أنت لا تستطيع هداية من كتب عليه الضلال والشقاء والعذاب، كما لا تستطيع تخليص الذي في النار وإنقاذه، كما قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الجن: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُضَلِّلِ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيَ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْفَقُوا رِهْمَهُمْ﴾ «لكن»: حرف استدراك مهمل، وفيه معنى الإضراب، أي:

(١) البيت لابن دريد. انظر: «العقد الفريد» ١١٣/٢.

لكن الذين اتقوا ربهم بفعل ما أمرهم به، واجتناب ما نهاهم عنه.

﴿لَهُمْ عُرْفٌ﴾ لهم خاصة منازل عالية واسعة في الجنة.

﴿مَنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾، أي: من فوقها طبقات قصور عالية، بعضها فوق بعض مبنية، لبنة من ذهب ولبنة من فضة، ملاحظها المسك الأذفر، يُرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، تُرى من علوها وارتفاعها كما يُرى الكوكب الغابر في الأفق الشرقي أو الغربي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرّي الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين»^(١).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون الغرف في الجنة كما تراءون الكوكب في السماء، وفي رواية: كما تراءون الكوكب الغابر في الأفق الشرقي والغربي»^(٢).

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾، أي: من تحت هذه الغرف والمنازل والقصور.

﴿الْأَنْهَارُ﴾ من الماء واللبن والخمر والعسل، يشربون منها ويغتسلون فيها، ويتمتعون برؤيتها وجمالها، ويصرفونها كيف شاءوا في غير أحوالهم.

﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ «وعد»: مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وعد الله للذين اتقوا ربهم بهذه الغرف والمنازل العظيمة، ﴿لَا يَخْلِفُ اللَّهُ أَلْمِيعَادَ﴾، أي: لا يخلف الله وعده لكمال صدقه، وتمام قدرته، كما قال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق - ما جاء في صفة الجنة ٣٢٥٦، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣١.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٥٦، ومسلم في الموضوع السابق ٢٨٣٠، وأحمد ٥ / ٣٤٠. وأخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بنحوه الترمذي في صفة الجنة - تراثي أهل الجنة الغرف ٢٥٥٦، وأحمد ٢ / ٣٣٩ - وقال الترمذي: «حسن صحيح».

الفوائد والأحكام:

١- شتان بين من هو قانت مطيع لله، آناء الليل مصليًا ساجدًا وقائمًا، يحذر الآخرة وأهوالها وعذابها، ويجو رحمة ربه وجنته، وبين من هو مشرك عاص مكذب بالآخرة وعذابها، لا يؤمن بربه، ولا يرجو رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾.

٢- الترغيب بالقنوت والطاعة والعبادة وقيام الليل، قال ﷺ: «أفضل الصلاة بعد الفريضة قيام الليل»^(١).

٣- إطلاق السجود والقيام على الصلاة كلها؛ لأنها من أعظم أركانها، فالسجود أعظمها من حيث الهيئة، والقيام أعظمها من حيث الذكر.

٤- ينبغي أن يجمع العبد بين الخوف والرجاء، فيخاف الآخرة وعذابها، ويرجو رحمة ربه، وجنته ونعيمها.

٥- إثبات الدار الآخرة ويوم القيامة وأهواله وعذابه العظيم؛ لقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الآخِرَةَ﴾، وقوله: ﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٦- إثبات صفة الرحمة الذاتية لله تعالى، والرحمة الفعلية، التي يوصلها إلى من شاء من خلقه.

٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّهُ﴾، وقوله: ﴿أَنْقُوا رَبَّكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رَبَّهُمْ هُمْ عُرِفُوا بِفُوقِهَا عُرْفًا مِّنْ فَوْقِهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَةٌ جَنَّتِ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾.

٨- أنه لا يستوي الذين يعلمون عظمة الله تعالى وما يجب له ويؤمنون به وينقادون لأمره، والذين لا يعلمون عظمتهم تعالى، ويكفرون به، ولا يقدرُونَ الله حق

(١) أخرجه مسلم في الصيام ١١٦٣، وأبو داود في الصوم ٢٤٢٩، والترمذي في الصلاة ٤٣٨- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قدره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: لا يستوي هؤلاء وهؤلاء.

٩- فضيلة العلم والفقه في الدين إذا صاحبه العمل، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون.

قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١).

وقد أحسن القائل:

تفقه فإن الفقه أفضل قائد إلى البر والتقوى وأعدل قاصد

فإن فقيهاً واحداً متورعاً أشد على الشيطان من ألف عابد^(٢)

أما إذا لم يصاحبه العمل فالجهل خير منه، كما قال أحدهم:

وإن ألقاك فهمك في مهاوٍ فليتك ثم ليتك ما فهمت^(٣)

١٠- أنه إنما يتذكر ويتنفع بالمواعظ أصحاب العقول السليمة، الذين يعلمون،

وتهديم عقولهم إلى المعرفة بالله، وما يجب له، والإيمان به وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا

يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ﴾ وفي هذا ثناء عليهم، وتعريض بغيرهم.

١١- حث المؤمنين على تقوى ربهم، والجمع بين الإيمان والتصديق في الباطن،

والعمل في الظاهر، بفعل الأوامر، وترك النواهي؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا

أَنْقُورِيكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَنْقَرُوا رَهْمَ﴾.

١٢- إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِ﴾، وقوله:

﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

(١) أخرجه البخاري في العلم- من يرد الله به خيراً ٧١، ومسلم في الزكاة- النهي عن المسألة ١٠٣٧، وابن

ماجه في المقدمة ٢٢١- من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه.

(٢) البيتان ينسبان لمحمد بن الحسن الفقيه صاحب أبي حنيفة. انظر: «الدر المختار وحاشية ابن عابدين رد

المحتار» ٤٠/١، «نشر طي التعريف في فضل حملة العلم الشريف» ص ١٩٩، «حسن التنبه فيما ورد في

التشبه» ١٢٢/٦.

(٣) البيت لأبي إسحاق الألبيري. انظر: «ديوانه» ص ٢٧.

١٣- أنه لا بد من الجمع بين إيمان القلب، وعمل الجوارح، بفعل المأمورات وترك المحظورات.

١٤- وعد الله تعالى لمن أحسنوا في هذه الدنيا، بإخلاصهم لله تعالى ومتابعة شرعه، والإحسان إلى عباده، في القول والعمل والبذل، بتوفيقهم وإسعادهم، وطيب الحياة، بسعة الرزق، وانسراح الصدر، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾.

١٥- التعريض بالهجرة والترغيب فيها، بل ووجوبها على من ضيق عليه في دينه، وبيان سعة أرض الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةٌ﴾.

١٦- أن الأرض كلها لله تعالى يورثها من شاء من عباده.

١٧- فضيلة الصبر والحث عليه؛ لوعده عز وجل للصابرين بتوفيتهم أجورهم بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١٨- أمر الله تعالى له ﷺ بعبادة الله تعالى، وإخلاص التوحيد والعبادة والطاعة له وحده لا شريك له، وإعلان ذلك وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾.

١٩- وجوب عبادة الله تعالى وإخلاص الدين له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ وهذا أمر له صلى الله عليه وسلم ولأمته.

٢٠- أمر الله تعالى له ﷺ أن يكون أول المسلمين، أي: أقوى المسلمين كلهم إسلامًا، وأسبق المسلمين من هذه الأمة وأقواهم إسلامًا؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾، وهذا يدل على وجوب المبادرة إلى الإسلام، والمنافسة فيه.

٢١- أمر الله تعالى له ﷺ أن يقول: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ ردًا على المشركين في دعوتهم إياه إلى الشرك- وحاشاه من ذلك- وتحذيرًا للأمة من ذلك.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

٢٣- إثبات يوم القيامة وشدة أهواله وعذابه، مما يوجب الحذر منه والاستعداد

له؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

٢٤- أمره عز وجل له ﷺ بإعلان عبادته لله تعالى مخلصاً له دينه، والاعتزاز بذلك، والبراءة من الشرك وأهله وتهديدهم، وعدم المبالاة بهم، وما يعبدون من دون الله؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴿١٤﴾ فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾.

٢٥- حاجة الرسول ﷺ، وكذا غيره من الرسل لعبادة الله تعالى والإخلاص له للنجاة من عذاب الله، ودخول الجنة، بل الأمر في ذلك عليهم أوجب، وهم أشد امتثالاً لذلك؛ ولهذا قال ﷺ: «لن يدخل الجنة أحدًا عمله الجنة. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته منه وفضل»^(١).

وقال ﷺ: «والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بما أتقى»^(٢).

٢٦- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَا شِئْتُمْ﴾ وفي هذا الرد على الجبرية، الذين ينفون ذلك.

٢٧- أن الخاسرين حقيقة الخسران المبين هم الذين خسروا أنفسهم وأهلهم يوم القيامة بموتهم على الشرك، واستحقاقهم الخلود في النار، وافتراقهم فرقة لا اجتماع بعدها أبداً؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

٢٨- أن كل خسارة في الدنيا تهون، دون الخسارة في الدين، بالموت على الكفر والشرك.

٢٩- أن عمر الإنسان حقيقة هو ما أمضاه في طاعة الله تعالى؛ ولهذا وصف المشركين بأنهم خسروا أنفسهم؛ لأنهم لم يعملوا خيراً.

٣٠- شدة عذاب الخاسرين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿هُم مِّنْ قَوْفِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾.

٣١- أن الحكمة من ذكر شدة عذاب أهل النار تخويف عباده، وحثهم على تقوى

(١) أخرجه البخاري في المرضى - تمني المريض الموت ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة - لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله تعالى ٢٨١٦.

(٢) أخرجه مسلم في الصيام ١١١٠، وأبو داود في الصوم ٢٣٨٩ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ، يَعْبَادُوا فَاتَّقُونِ﴾.

٣٢- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله: ﴿يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ،

يَعْبَادُوا فَاتَّقُونِ﴾.

٣٣- وجوب تقوى الله تعالى على جميع العباد، بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه؛

لقوله تعالى: ﴿يَعْبَادُوا فَاتَّقُونِ﴾.

٣٤- التنويه بالذين اجتنبوا عبادة غير الله، وأنابوا إلى الله وحده، والثناء عليهم،

وتخصيصهم بالبشرى العظيمة، بالسعادة في الدنيا والآخرة والجنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ

أَجْتَنَبُوا الظَّالِمَاتِ أَنْ يعبُدوها وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ البُشْرَى﴾.

٣٥- التحذير من عبادة غير الله، وأنها كلها من الطاغوت، والترغيب في الإنابة

إلى الله تعالى وعبادته وحده.

٣٦- البشارة لعباد الله الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والثناء عليهم؛

لقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

٣٧- أن مقتضى ما أمر به القرآن الكريم وكذا السنة النبوية، فيه حسن وأحسن،

فالحسن الإتيان بالواجب، والأحسن الإتيان بالواجب والمستحب، والحسن: ترك

المحرم، والأحسن: ترك المحرم والمكروه.

٣٨- امتداح الذين يستمعون القول سماع فهم وتدبر، ويتبعون أحسنه، وإظهار

منة الله تعالى عليهم بهدأيته تعالى إياهم، وبكونهم هم أصحاب العقول حقاً؛ لقوله

تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَيْتَهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾.

٣٩- التهديد للمكذبين والمشركين؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ أَفَأَنْتَ

تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

٤٠- أن من كتب الله عليه الكفر والشقاء والعذاب ودخول النار فلا سبيل إلى

هدأيته وإنقاذه من العذاب والنار؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ

فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

٤١- إثبات القدر السابق، وأن الله قدر مقادير كل شيء في الأزل قبل خلق

السموات والأرض.

٤٢- أن الرسول ﷺ لا يملك هداية أحد من الخلق، ولا إنقاذه من النار، وغيره من الخلق من باب أولى، وإنما الهداية والتوفيق بيد الله عز وجل.

٤٣- إثبات النار، وأنها موجودة الآن، معدة للكافرين.

٤٤- فضيلة التقوى، وعظم ما وعد الله به الذين اتقوا ربهم من الغرف والقصور

العالية، المبنية بعضها فوق بعض، الدالة على علو منزلتهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَقَوْا رَبَّهُمْ هُمْ هُمْ عُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

٤٥- إثبات تحقق موعود الله للمتقين؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد؛ لقوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِعَادَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَدِّهَا مَثَانِي نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ يَبْقَى بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاهُمْ اللَّهُ لِعِزَّتِهِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢١﴾ أَلَمْ نَشْرَحْ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ ۞

قوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾، الاستفهام للتقرير، أي: ألم تشاهد ببصرك، وتعلم ببصيرتك. والخطاب لكل من يصلح له.

﴿ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ﴾، أي: من السحاب الذي في السماء، أي: في العلو ﴿ مَاءً ﴾ وهو المطر الطهور، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ ﴿٤٨﴾ [الفرقان: ٤٨].

﴿ فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ﴾، أي: أدخله في ينابيع وعيون ومجارٍ في الأرض، يستخرج منها بيسر وسهولة - حسب الحاجة، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ ﴿١٨﴾ [المؤمنون: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴾ ﴿٢٢﴾ [الحجر: ٢٢].

قال ابن تيمية: «فأخبر سبحانه أنه يسلك الماء النازل من السماء ينابيع، والينابيع جمع «ينوع»، وهو منبع الماء، كالعين والبئر، فدل القرآن على أن ماء السماء ينبع من الأرض، والاعتبار يدل على ذلك، فإنه إذا كثرت السماء كثرت الينابيع، وإذا قلَّت قلت. وماء السماء ينزل من السحاب، والله ينشئه في الجو، وما يتصاعد من الأبخرة.

وليس في القرآن أن جميع ما ينبع يكون من ماء السماء، ولا هذا أيضًا معلومًا في الاعتبار، فإن الماء قد ينبع من بطون الجبال، ويكون فيه أبخرة يخلق منها الماء، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد يستحيل - إلى أن قال: فعلم أنه ممكن أن يكون في الأرض ماء ليس من السماء، فلا يجزم أن جميع المياه من ماء السماء، وإن كان غالبها من ماء السماء»^(١).

﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾، أي: بسبب هذا الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض.
﴿زَرَعًا﴾، أي: أنواعًا كثيرةً من الزرع والنباتات ﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾، أي: مختلف الألوان والأشكال، والثمار، والطعوم، والروائح، والمنافع الكثيرة.

ولهذا شبه ﷺ ما بعثه الله به من الوحي والهدى والعلم بالغيث في عموم نفعه، فقال ﷺ: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث كثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا..»^(٢).

﴿ثُمَّ يَهَيِّجُ﴾، أي: يستكمل عمره أو تصيبه آفة من ريح أو برد، أو عطش أو غير ذلك.

﴿فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا﴾، أي: قد ذهبت نضارته واصفر وييس بعد اخضراره.

﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا﴾ متكسرًا متفتتًا بعد أن ييس.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في إنزال الماء من السماء وإخراج الزرع به مختلف الألوان نضراً، ثم هيجانه واصفراره ويوسه وتكسره.

﴿لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: لأصحاب العقول السليمة يتذكرون عظيم نعمة الله تعالى عليهم، واستحقاقه للعبادة وحده دون سواه، ويتذكرون أن حال الدنيا كلها هكذا تكون خضرة نضرة حلوة، ثم تنتهي إلى الزول والفناء، كما قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ

(١) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤ / ٥٠٥ - ٥٠٦.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٧٩، ومسلم في الفضائل ٢٢٨٢ - من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

الرِّيحُ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٥٥﴾ [الكهف: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا رَبَّ عَلَيْهِمَ آتِنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ ۗ﴾ [يونس: ٢٤].

وليس بعد الكمال إلا النقص، فالصحة مآلها إلى المرض، والحياة مآلها إلى الموت، وهكذا. قال الشاعر:

إذا كنت تهوى العيش فاقنع توسطاً فعند التناهي يقصر المتناول
توقى البدور النقص وهي أهلة ويدركها النقصان وهي كوامل^(١)

ويتذكرون بذلك تمام قدرة الله تعالى على إحياء الخلق بعد موتهم، كما أحيا الأرض بعد موتها.

﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن شرح الله صدره ووسعه للإسلام، فوفقه للإيمان والعمل الصالح، والمنافسة فيما يقرب إلى الله تعالى، منشرح الصدر، مطمئن القلب، قرير العين.

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ۗ﴾، أي: فهو على علم وهدى، وإيمان ويقين، وبصيرة من ربه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿أَوْمَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۗ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

أي: هل يستوي هذا ومن هو قاسي القلب من ذكر الله، بعيد عن الحق، قد ضاق صدره بالإسلام، أي: لا يستوي هذا وهذا؛ ولهذا قال:

﴿فَوَيْلٌ ۗ﴾، أي: هلاك وحسرة، وعذاب ووعيد، كما قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

(١) البيتان لأبي العلاء المعري. انظر: «شرح نهج البلاغة» ٣/١٦٣، «حياة الحيوان الكبرى» ٢/١٧٣، «زهر الأكم في الأمثال والحكم» ٢/٢٠٣.

﴿لَلْقَسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، أي: للذين قلوبهم قاسية، لا تلين ولا تحشع عند ذكر الله، ولا تطمئن به، ولا تتذكر، ولا تعتبر ولا تتعظ، من المشركين وأهل الكتاب ونحوهم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

﴿أُولَئِكَ﴾ الإشارة تعود إلى القاسية قلوبهم من ذكر الله، وأشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، أي: في تيه وبعد عن الحق بين واضح ظاهر، ولا ضلال أبين وأظهر من ضلال من قست قلوبهم من ذكر الله، وأعرضوا عن الحق، وأوبقوا أنفسهم في النار والعذاب.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾ [٣٣].

قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ يعني: القرآن الكريم، حديثه عز وجل وكلامه نزله من عنده على رسوله ﷺ، وهو أحسن الحديث، وأحسن الكلام، على الإطلاق، في نظمه، وفي أخباره، وأحكامه، ومواعظه، وغير ذلك.

﴿كِتَابًا﴾ بدل من «أحسن»، ونكر للتعظيم؛ لأن القرآن الكريم أعظم الكتب على الإطلاق، وأفضل كتب الله.

﴿مُتَشَابِهًا﴾ نعت لـ «كتاباً»، أي: يشبه بعضه بعضاً في الحسن والإحكام، والاتفاق والانتظام، في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

ولهذا كلما تدبر فيه المتدبر، وتفكر فيه المتفكر رأى من حسن نظمه ودقة معانيه وتوافقها ما يبهر العقول، ويخرس السنة الفصحاء والبلغاء.

﴿مَّثَانِي﴾ نعت ثانٍ لـ «كتاباً» أي: تتنى فيه المعاني، فيقرن فيه المعنى بها يقابله،

كالوعد والوعيد والجنة والنار، والدنيا والآخرة والحياة والموت، وغير ذلك. كما تشنى فيه وتكرر أسماء الله وصفاته، والأحكام والحجج، والحكم والمواعظ، والقصص والأخبار، وغير ذلك؛ لأنه كتاب ترسيخ عقيدة، وتثبيت منهج يسير عليه المؤمن حتى يلقي الله. ومعانيه للقلوب بمنزلة الماء لسقي الأشجار، كلما تكرر سقيها حسنت وأينعت، وأثمرت أنواع الثمار النافعة.

﴿نَفْسَعُرْمُهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾، أي: ترتعد وترتجف وتضطرب.
﴿مِنْهُ﴾، أي: عند قراءته وسماعه ﴿جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾؛ لما فيه من الوعيد، والتخويف والتهديد، بذكر ما حل بالمكذبين، وذكر النار وأهوال القيامة وعذابها وغير ذلك.

﴿ثُمَّ تَلَيْنُ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ﴾، أي: تطمئن وتهدأ وتسكن جلودهم وقلوبهم.
﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾؛ لما فيه من البشارة والترغيب، والوعد بالجنات والنعيم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنفال: ٢١]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٢٨].

وقوله: ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ من إضافة المصدر إلى الفاعل، أي: إلى ما ذكرهم الله به وهو القرآن الكريم.

ويجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به، أي: إلى ذكرهم الله.
﴿ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ أي ذلك توفيق الله، ووصف من هداه الله وحاله، أو ذلك القرآن الكريم الذي له أثره العظيم في القلوب ﴿هُدَىٰ اللَّهِ﴾، أي: طريقه الموصل إليه، والدادال عليه.

﴿يَهْدِي بِهِ﴾ الباء: للسببية، أي: يدل ويوفق بسبب القرآن الكريم وهديه.
﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: الذي يشاء توفيقه من عباده، ممن حسن قصدهم، كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦].
﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ﴾، أي: ومن يضلل الله كونًا وقدرًا، فلم يهتد بالقرآن.

﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: فما له من أي هادٍ يهديه إلى الحق.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّهُ هَادٍ لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [الأعراف: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْغَزَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابَ الْآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أفمن يلقى في النار مهاناً، يتقي بوجهه الذي هو أشرف أعضائه، وأدنى شيء من العذاب يؤثر فيه.

﴿سُوءَ الْعَذَابِ﴾، أي: العذاب السيئ، أو شدة العذاب ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. والمعنى: يلقى سوء العذاب بوجهه أي: لا يستطيع اتقاء ذلك ووقفه بغير وجهه، إما لكون يديه ورجليه مغلولة، كما قيل، أو لغير ذلك.

والمراد: لا يستوي من يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، ومن أمن من العذاب ولم يتقه، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَهُ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [فصلت: ٤٠] أي: لا يستوي هذا وهذا.

﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي تقريباً وتوبيخاً لهم: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، أي: قاسوا عقوبة الذي كنتم تكسبونه، أو عقوبة كسبكم، أي: عملكم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْجَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾﴾ [القمر: ٤٨].

﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: كذب الذين من قبل كفار قريش من الأمم الماضية. ﴿فَأَنْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: وهم في غفلة، ولم يخطر ببالهم حتى نزل بهم.

﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ﴾ بما آتاهم من ألوان العذاب المختلفة بحسب ذنوبهم.

﴿الْحِزْبِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: الذل والهوان في الحياة الدنيا.
 ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ اللام: للتوكيد، أي: ولعذاب الآخرة أشد وأعظم من
 عذاب الدنيا كيفية، وأكثر كمية؛ لأنه عذاب أبدي سرمدي.
 ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، وجواب الشرط محذوف دل عليه
 ما قبله، أي: لو كانوا يعلمون شدة عذاب الآخرة لما كذبوا.

الفوائد والأحكام:

- ١- بيان عظمة الله تعالى وتماق قدرته، والامتنان على العباد وتقديرهم، بإنزاله من السماء ماء، وسلكه ينابيع في الأرض، وإخراجه به الزرع والنبات، مختلفاً ألوانه، وما في ذلك من مصالح العباد؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ﴾.
- ٢- حكمة الله تعالى في جعل المطر ينزل من السماء؛ ليعم الجبال والوهاد، والمرتفع والمنخفض، وليعم الأرض كلها.
- ٣- أن الماء الموجود في الأرض كله أو غالبه من ماء السماء.
- ٤- حكمة الله تعالى وعنايته بخلقه، بخزن الماء في الأرض، وإخراجه منها لهم ينابيع.
- ٥- إثبات الأسباب وتأثيرها بإذن الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ﴾، وقوله: ﴿يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: بسببه.
- ٦- حكمة الله تعالى في عود الزرع بعد اخضراره ونضارته واستكمالها إلى الاصفرار والتحطم والتكسر؛ لأنه ليس بعد التمام إلا النقص؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيْجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا﴾.
- ٧- أن في إنزال الماء من السماء وإخراج الزرع به مختلفاً ألوانه ثم هيجانه واصفراره وتحطمه عبرة لأصحاب العقول السليمة يتذكرون فيه عظمة الله واستحقاقه للعبادة وحده، ويتذكرون به سرعة فناء الدنيا، كما يتذكرون بذلك قدرة الله تعالى التامة على إحياء الخلق بعد موتهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

٨- أنه إنما يتذكر بالآيات الكونية والشرعية أصحاب العقول السليمة الذين ينتفعون بعقولهم ويعتبرون بها، ويبتدون بها إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ وهذا ثناء عليهم.

٩- شتان بين من شرح الله صدره للإسلام، فوفقه للإيمان والعمل الصالح، فصار على نور من ربه، وهدى وبصيرة، وبين من جعل الله صدره ضيقاً حرجاً، وأضله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾، وكما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

١٠- أن من لم يجعل الله نوراً فما له من نور؛ لهذا يجب سؤاله تعالى وحده الهداية، وسؤاله الثبات على الهدى.

١١- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بأوليائه وعباده المؤمنين؛ لقوله: ﴿مِن رَّبِّهِ﴾.
١٢- الوعيد بالويل والهلاك والحسرة للقاسية قلوبهم من ذكر الله، الذين لا تلين قلوبهم ولا تخشع لذكر الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾.
١٣- تحقير القاسية قلوبهم من ذكر الله، وذمهم، وبيان شدة ضلالتهم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

١٤- الامتنان على العباد بفضله عز وجل عليهم بإنزال القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ الآية.

١٥- إثبات علو الله تعالى وأنه عالٍ على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ والإنزال يكون من أعلى.

١٦- أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

١٧- امتداح الله تعالى للقرآن الكريم بوصفه بأنه أحسن الحديث، فلا حديث ولا كلام أحسن منه؛ لأنه كلام الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾.

١٨- تعظيم القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿كِتَابًا﴾، أي: كتاباً عظيماً لا كتاب أعظم منه.

١٩- تشابه القرآن في الحسن والإحكام والاتفاق والانتظام، في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره؛ ولهذا أثنى الله تعالى عليه بقوله: ﴿مُتَشَبِهًا﴾.

٢٠- امتداح القرآن الكريم بكونه: «مثنائي»، يثنى فيه ويقرن بين الوعد والوعيد، والجنة والنار ونحو ذلك، وتثنى وتكرر فيه أسماء الله وصفاته، والأحكام والحجج، والحكم والمواعظ، والقصص والأخبار، وغير ذلك؛ لأنه كتاب ترسيخ عقيدة، وتثبيت منهج حياة؛ لقوله تعالى: ﴿مَثَانِي﴾.

٢١- تأثر جلود المؤمنين وقلوبهم عند قراءة القرآن وسماعه خوفًا ورجاءً؛ لقوله تعالى: ﴿نَفْسَعِرُّ مِنْهُ جُلُودَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

٢٢- أن كلام الله عز وجل أعظم واعظ، وأشد مؤثر تقشعر منه جلود الذين آمنوا، وتطمئن به قلوبهم؛ لما فيه من الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، وغير ذلك.

٢٣- أن القرآن الكريم هو هدى الله الموصل إليه، وإلى مرضاته، وأن هداه عز وجل هو الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ ۚ مَن يَشَاءُ﴾ نسأل الله الهداية والتوفيق.

٢٤- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ ۚ مَن يَشَاءُ﴾.

٢٥- من يضلل الله كونًا وقدرًا فلا هادي له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَهٗ مِن ۖ هَادٍ﴾.

٢٦- أن أفعال العباد كلها واقعة بمشيئة الله تعالى وإرادته الكونية، سواء منهم من اهتدى ومن ضل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] وفي هذا رد على القدرية الذين ينفون مشيئة الله تعالى لأفعال العباد، ويرون استقلالهم بها مشيئة وخلقًا، كما أن فيه ردًا على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على أفعاله.

٢٧- شتان بين من يلقي في النار مهانًا، يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة، وبين من هو مكرّم آمن في جنات النعيم؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَبْقَىٰ بِوَجْهِهِ سُوٓءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: أيستوي من هذه حاله بمن هو مكرّم آمن؟ لا يستويان أبدًا.

٢٨- إثبات القيامة وسوء عذابها، والدار الآخرة وكبر عذابها؛ لقوله تعالى: ﴿سُوٓءَ

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾. وقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾.

٢٩- تبريع الظالمين بالكفر والشرك وتوبيخهم، وأن ما جوزوا به من العذاب هو بسبب كسبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾، ولم يقل: «جزاء ما كنتم تعملون».

٣١- الإخبار بتكذيب الأمم السابقة لرسولهم، ومباغتهم بالعذاب، وإذلالهم في الحياة الدنيا؛ تحذيراً وتهديداً للمشركين المكذبين للنبي ﷺ أن يحل بهم مثل ما حل بالمكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانْتَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا.

٣٢- أن العذاب يأتي على غرة وغفلة، ومن حيث لا يخطر بالبال.

٣٣- أنه يجمع للمعذبين بين العذاب الحسي البدني والعذاب المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣٤- أن عذاب الآخرة في النار أكبر وأشد وأعظم من عذاب الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

٣٥- أن السعيد من وعظ بغيره.

٣٦- أن المكذبين للرسول لو كانوا يعلمون شدة عذاب الآخرة حقيقة ما كذبوا رسولهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ تُرَاثِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۗ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ تُرَاثِكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ .

قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ﴾، أي: بينا لهم في هذا القرآن ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من أمثال التوحيد والشرك، والقرون الخالية، وأهل الخير، وأهل الشر، وغير ذلك؛ لتقريب المعاني، وبيان حقائق الأشياء.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، أي: لأجل أن يتذكروا ويعتبروا، ويفهموا معاني القرآن ويعملوا به؛ لأن المثل يقرب المعنى إلى الأذهان، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨] أي: تعلمونه من أنفسكم، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاكِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾ «قرآنا»: حال، و«عربيًّا»: صفة له، أي: حال كونه قرآنا عربيا، ويجوز أن يكون «قرآنا» مفعولا به لـ«يتذكرون».

وفي هذا امتداح للقرآن، وامتنان على العباد من العرب وغيرهم بكونه ﴿قُرْءَانَا عَرَبِيًّا﴾، أي: بلسان عربي مبين.

﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾: الجملة في محل نصب: صفة ثانية لـ«قرآنا»، أو حال. أي: غير ذي انحراف، ولا لبس، ولا خلل، ولا اضطراب، بل قيما ومعتمدا غاية

الاعتدال، والصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۗ ﴿١﴾ قَيِّمًا﴾ [الكهف: ١، ٢].

﴿لَعَلَّهُمْ يَنْقَوْنَ﴾، أي: لأجل أن يتقوا الله بفعل ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه، في هذا القرآن العظيم، رجاء ما فيه من الوعد، وحثرًا مما فيه من الوعيد.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ﴾ في هذا القرآن الذي ضرب الله للناس فيه من كل مثل ﴿مَثَلًا﴾ لقبح الشرك وفضية التوحيد.

﴿رَجُلًا﴾: بدل من «مثلاً» ﴿فِيهِ شُرَكَاءُ﴾، أي: يشترك في ملكه عدة شركاء

﴿مُتَشَكِّسُونَ﴾، أي: متنازعون مختلفون كل له مطلب، يريد من هذا المملوك تنفيذه، يخالف مطلب الآخر، هذا يأمر بأمر، وهذا ينهاه عنه، فهو مضطرب متحير متشتت، لا يدري من يرضى منهم وينفذ أمره.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب: ﴿سَالِمًا﴾ بالألف بعد

السين، وكسر اللام، وقرأ الباقون بدون ألف مع فتح اللام: ﴿سَلَمًا﴾.

﴿وَرَجُلًا﴾ الواو: عاطفة، و«رجلاً» معطوف على «رجلاً» في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ

مَثَلًا رَجُلًا﴾.

﴿سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾، أي: خالصًا لرجل، أي: لملك واحد لا يشاركه فيه أحد، يأمره

فينفذ أمره، وهو مطمئن مرتاح البال.

﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، و«مثلاً»: تمييز، أي: لا يستوي

هذا وهذا.

والمراد بهذا المثل بيان أن المشرك الذي يعبد آلهة مع الله تعالى، لا يستوي بحال من

الأحوال مع المؤمن المخلص الذي يعبد الله تعالى وحده.

قال ابن القيم: «فهذا مثل ضربه يتضمن قياس الأول- يعني إذا كان المملوك فيكم

له مَلَاكٍ مشتركون فيه، وهم متنازعون، ومملوك آخر له مالك واحد، فهل يكون هذا

وهذا سواء، فإذا كان هذا ليس عندكم كمن له رب واحد، ومالك واحد، فكيف

ترضون أن تجعلوا لأنفسكم آلهة متعددة تجعلونها شركاء الله، تحبونها كما تحبونه،

وتخافونها كما تخافونه، وترجونها كما ترجونه»^(١).

فستان بين المشرك الذي هو مضطرب قلق متذبذب متشعب القلب بين عدة معبودات، وبين المؤمن المخلص المطمئن الذي يعبد الله وحده لا شريك له، وستان بين الشرك والتوحيد، وبين الموت والحياة، ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ لما بين أتم بيان أنه لا يستوي المشرك والمؤمن المخلص بحال من الأحوال، قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الحمد لله على إقامة الحجة وبيان المحجة، وظهور الحق، وزهوق الباطل. فالحمد التام والوصف بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم مستحق لله تعالى وحده، وخاص به.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: بل أكثر الناس لا يعلمون ذلة المشرك، وبطلان الشرك، وعزة المؤمن المخلص، وأحقية التوحيد. ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: إنك لا بد أن تموت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّهِمْ قَبْلَكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. وفي الحديث: «يا محمد عش ما شئت فإنك ميت»^(٢).

﴿وَأَيُّهُمْ﴾، أي: المكذبون لك، وجميع الخلائق ﴿مَيِّتُونَ﴾، أي: لا بد أن يموتوا. كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْفَيْكَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥] [الأنبياء: ٣٥] [العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٦١﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤ / ٥٩.

(٢) سبق تحريجه.

الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧].

قال الشاعر:

فهـن المنايا أي واد سـلـكـتـه عليها طريقي أو عليّ طريقها (١)
وأكدت جملتا: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ مع أن الموت حق؛ لأن عمل كثير من
الناس عمل من لم يوقن بالموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ أنت وإياهم، وجميع الخلائق ﴿يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ﴾،
أي: تجتمعون وتختصمون عند ربكم فيها اختلفتم فيه في الدنيا، من التوحيد والشرك،
وغير ذلك، بين يدي الله عز وجل ويفصل ويفتح بينكم بالحق وهو الفتح العليم،
فينجي الله رسوله والمؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين المشركين المكذبين
وفي هذا تسلية وطمأنة له ﷺ، وتحذير وتهديد للمشركين.

عن عبدالله بن الزبير عن أبيه رضي الله عنهما، قال: «لما نزلت: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ
الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ﴾ قال الزبير: يا رسول الله، أكرر علينا الخصومة؟ بعد
الذي كان بيننا في الدنيا، قال: «نعم». فقال: إن الأمر إذاً لشديد» (٢).

وعنه رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ﴿٨﴾
[التكاثر: ٨] قال الزبير: يا رسول الله، فأني نساءل عنه؟ وإنما هما الأسودان: التمر
والماء؟ قال: «أما إنه سيكون» (٣).

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول الخصمين يوم
القيامة: جاران» (٤).

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُهُ الْبَيِّنَاتُ فِي
جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٢٣﴾

(١) انظر: «مدارج السالكين» ١٥ / ١.

(٢) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ٣٢٣٦، وأحمد ١ / ١٦٧، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير سورة التكاثر ٣٣٥٦، وأحمد ١ / ١٦٤، وقال الترمذي: «حديث حسن».

(٤) أخرجه أحمد ٤ / ١٥١.

لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي أَلْدَى عَمِلُوا
وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾.

قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾ الاستفهام: للنفي، أي: لا أحد أظلم،
أي: أشد ظلماً ﴿مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: من الذي كذب على الله بنسبة الشريك
والصاحبة والولد له، والقول على الله بلا علم.

﴿وَكَذَّبَ بِالْصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ معطوف على قوله: ﴿كَذَبَ عَلَى اللَّهِ﴾.

أي: لا أحد أشد ظلماً من كذب على الله، ومن كذب بالصدق إذ جاءه.

أي: وكذب بالحق حين جاءه في كتب الله تعالى وعلى السنة رسله عليهم الصلاة
والسلام.

فمن اتصف بهذين الوصفين، فقد جمع بين قول الباطل، ورد الحق، وهذا أظلم
الظلم؛ ولهذا قال تعالى متوعداً ومهدداً لهم:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس في جهنم مأوى ومسكن
﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، أي: للجاحدين المكذبين.

والجواب: بلى، فيها مَثْوًى ومَصِيرٌ لهم، وبئس المصير.

وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: أليس في جهنم مَثْوًى له، بل قال: ﴿مَثْوًى

لِلْكَافِرِينَ﴾؛ لإثبات وصفهم بالكفر، وعموم هذا الوعيد لهم ولغيرهم من الكافرين،
وبيان علة استحقاقهم هذا الوعيد وهي كفرهم.

﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ في قوله، وهم الأنبياء وأتباعهم المؤمنون.

﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾، أي: صدق بالصدق الذي قامت البينة على صدقه، كما قال ﷺ:

«وأشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله»^(١).

فقد جاء بالتوحيد وشهد به، وصدق أنه رسول الله.

(١) أخرجه مسلم في الإيمان - من لقي ربه بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة ٢٧ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه لما ذكر له ما أخبر به الرسول ﷺ مما رآه ليلة الإسراء، قال: «إن كان قد قال ذلك فهو صادق»^(١).

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾، أي: أولئك الذين جمعوا بين الأمرين: قول الصدق والحق، والتصديق به، هم المتقون دون غيرهم، أي: الذين اتقوا الله فانقادوا لأمره واجتنبوا نهيه، وخافوا عذابه.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: لهم خاصة الذي يشاءونه عند ربهم في الجنة، من ألوان النعيم، وأصناف اللذات، كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾^(٣٥) [ق: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُنَّ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾^(٣٦) [زُلاَمَنَ ٣٦] ﴿عَفُورٍ رَحِيمٍ﴾^(٣٢) [فصلت: ٣١-٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُهُ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ الإشارة إلى إعطائهم ما يشاءون عند ربهم في الجنة. أي: ذلك جزاء وثواب الذين أحسنوا في عبادة الله تعالى؛ إخلاصاً لله تعالى، ومتابعة لرسوله عليهم الصلاة والسلام، وأحسنوا إلى عباد الله، بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة، قولاً وفعلاً وبذلاً.

والحكمة من الإظهار في قوله: ﴿جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ دون الإضمار، فلم يقل ذلك جزاؤهم؛ لمدحهم والثناء عليهم بهذا الوصف، ويشمل هذا الجزاء كل من كان من المحسنين غيرهم، ولبيان السبب في مجازاتهم بهذا الجزاء، وهو إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ اللام: للتعليل، أي: اتقوا الله لأجل أن يكفر الله عنهم، أي: يتجاوز ويمحو عنهم.

﴿أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، أي: أشد الذي عملوه سوءاً، وهذا يشمل المعاصي كلها، فيكفرها الله ويتجاوز عنها، بسبب تقواهم وإحسانهم، فإذا كفر عنهم أسوأ الذي عملوا فتكفيره لما دونه من باب أولى.

(١) انظر «السيرة النبوية» ١ / ٣٩٩.

﴿وَيَجْزِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾، أي: ثوابهم على ما عملوا من الحسنات .
 ﴿بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: بأحسن جزاء الذي كانوا يعملون، الحسنة
 بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ
 أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾
 [الأحقاف: ١٦].

الفوائد والأحكام:

١- الامتنان على الناس بضرب الأمثال المتنوعة لهم في القرآن؛ لتقريب المعاني
 وإيضاحها، وبيان الحق، وإقامة الحجة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ
 مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾.

٢- أن القرآن الكريم أنزل للناس جميعاً، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾
 [البقرة: ١٨٥].

٣- أن الحكمة من ضرب الأمثال في القرآن، وتقريب المعاني وإيضاحها: أن يفهم
 الناس معاني القرآن فيعتبروا ويتعظوا ويعملوا به؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

٤- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى وشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾،
 وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وقوله: ﴿لِيُكْفِرَ اللَّهُ﴾، وفي هذا الرد على من ينكرون
 حكمة الله تعالى، ويقولون: إنه يفعل لمجرد المشيئة كالجهمية ونحوهم.

٥- امتداح القرآن، والامتنان على العباد من العرب وغيرهم بكونه عربياً؛ لقوله
 تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.

٦- اعتدال القرآن، وسلامته من أيّ عوج وانحراف، ومن أيّ خلل واضطراب
 في ألفاظه ومعانيه، وأحكامه ومواعظه، وأخباره، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿غَيْرِ ذِي
 عَوْجٍ﴾.

٧- أن الحكمة في إنزال القرآن الكريم عربياً، قيماً، غير ذي عوج؛ لأجل دعوة
 الناس إلى تقوى الله بفعل أوامره، واجتناب نواهيه؛ لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

٨- أنه لا يستوي رجل مملوك لعدة شركاء متنازعون فيه، كل يريد منه غير ما يريده الآخر، فهو مضطرب متشتت بينهم لا يدرى من يُرضي، ومن ينفذ أمره منهم. لا يستوي هذا مع رجل مملوك للمالك واحد، لا مشارك له فيه، يعرف ما يريده منه ماله، وينفذه فهو مطمئن مرتاح البال؛ لقوله تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾.

٩- أنه لا يستوي المشرك الذي يعبد آلهة مع الله، والمؤمن المخلص الذي يعبد الله وحده، وشتان بينهما، فالمشرك متذبذب متشعب القلب بين الشركاء، والمؤمن مطمئن؛ لأنه يعبد الله وحده لا شريك له.

١٠- بلاغة القرآن الكريم وإعجازه في ضرب الأمثال.

١١- اختصاصه عز وجل، واستحقاقه لكمال الحمد؛ لإقامته الحجة وبيانه للمحجة، وإظهار الفرق الشاسع والبون الواسع بين التوحيد والشرك، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

١٢- إثبات الرق، وفق سببه الشرعي، وأحكامه.

١٣- أن أكثر المشركين، بل أكثر الخلق لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، وهو معرفة الله، وما يجب له، والعلم بوحدانته، والفرق بين الشرك والتوحيد؛ ولهذا يقعون في الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

١٤- أن كل نفس ذائقة الموت، والموت سبيل كل حي؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

١٥- اختصاص الخلائق يوم القيامة عند ربهم فيما اختلفوا فيه في الدنيا، من التوحيد والشرك وغير ذلك، يفصل عز وجل بينهم بالحق، فينجي الرسول والمؤمنين، ويعذب الكافرين، وفي هذا تسلية وطمأنة له ﷺ، وتحذير وتهديد للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخَصَّمُونَ﴾.

١٦- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الأهوال والحساب والجزاء على الأعمال.

١٧- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾.

١٨- أنه لا أحد أشد ظلماً ممن كذب على الله بنسبة الشريك له والصاحبة والولد، وغير ذلك، أو كذب بالصدق والحق لم جاءه، في كتب الله تعالى، وعلى السنة رسله عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾.

١٩- اختلاف مراتب الكفر والذنوب، وأنها تتفاوت، وبعضها أعظم وأشد من بعض، ومثل ذلك الإيمان والحسنات، فالإيمان يزيد وينقص والحسنات تتفاضل.

٢٠- الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لمن كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه بنار جهنم والخلود فيها، والتحذير من ذلك أشد التحذير؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، ومفهوم هذا أن غير الكافرين، من عصاة المؤمنين لا يخلدون فيها.

٢١- أن من كذب على الله وكذب بالصدق إذ جاءه كافر ومصيره النار.

٢٢- فضيلة من جاء بالصدق وصدق به والثناء عليه بوصف التقوى؛ لقوله

تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.

٢٣- عظم ما أعد الله من الثواب للمتقين الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به؛

لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢٤- إثبات المشيئة والاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُونَ﴾، وفي هذا رد

على الجبرية.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لأوليائه من الرسل وأتباعهم؛ لقوله تعالى:

﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

٢٦- التنويه بجزاء المتقين الذين جاءوا بالصدق وصدقوا به، والثناء عليهم

بوصفهم بالمحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾.

٢٧- أن هذا الجزاء لكل من كان من المحسنين؛ لأن الحكمة من الإظهار بدل

الإضمار امتداح المذكورين بذلك، وبيان أن هذا الجزاء لهم ولكل من كان من المحسنين، وبيان سبب استحقاقهم له، وهو كونهم من المحسنين، وفي هذا ترغيب بالإحسان.

٢٨- وعد الله تعالى بتكفير سيئاتهم ومحوها، والتجاوز عنها، وجزائهم بأحسن

الذي كانوا يعملونه؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ

بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ وذلك بمضاعفة أجورهم.

٢٩- تكفل الله عز وجل بثواب المحسنين، وإيجابه ذلك على نفسه فضلاً منه وكرماً؛ لهذا سماه أجراً، مع أنه لا يجب عليه شيء لخلقه.

٣٠- أن الجزاء من جنس العمل فمن أحسن العمل أحسن له الجزاء.

٣١- أن الأعمال منها ما هو أسوأ، وهي المعاصي كلها، ومنها ما هو أحسن، وهي الطاعات كلها، ومنها ما هو بين ذلك، لا أسوأ ولا أحسن، وهي المباحات كلها، التي لا ثواب عليها ولا عقاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۖ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۖ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَنْقُومِ الْعَمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۖ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنْ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ۖ ﴿٤١﴾ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۖ ﴿٤٢﴾ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلُواكَ أَنْتُمْ لَا تَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا تَعْقِلُونَ ۖ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۖ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبِشِرُونَ ۖ ﴿٤٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهِيدَ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۖ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَدَاهُمْ مَبْرُوءَاتٌ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۖ ﴿٤٧﴾ وَيَدَاهُمْ مَبْرُوءَاتٌ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۖ ﴿٤٨﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ ﴿٣٦﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ۖ ﴿٣٧﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ۖ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَنْقُومِ الْعَمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۖ ﴿٣٩﴾ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ۖ ﴿٤٠﴾ ۝

قوله: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي وخلف: ﴿عباده﴾ بالجمع، وقرأ الباقون: ﴿عبده﴾ بالإنفراد.

والاستفهام: للتقرير، أي: بلى، إن الله كاف عبده ورسوله ﷺ، وكل من عبده

وتوكل عليه، أي: حافظ لنيبه ﷺ ومتوليه وناصره، ولكل مؤمن عبد الله وتوكل عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه»^(١).

وفي وصفه عز وجل لرسوله بقوله: ﴿عَبْدَهُ﴾ دون أن يقول «رسوله» دلالة على أن العبودية أشرف وصف يتصف به البشر، إضافة إلى شمول هذا الوصف لكل عبد مخلص لله.

﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: ويخوفك يا محمد المشركون ويتوعدونك ﴿بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: بالذين يعبدون من دونه من الآلهة والأصنام، وبأوليائهم من شياطين الجن والإنس وذوي السلطان فيهم، أن يقتلوك أو ينالوا منك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥] وذلك جهل منهم وضلال؛ ولهذا قال:

﴿وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ﴾، أي: يكتب عليه الضلال كوناً وقدرًا.

﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ هَادٍ﴾، أي: فما له أيُّ هادٍ يهديه بعد إضلال الله تعالى له، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجنات: ٢٣].

ولهذا حرص ﷺ غاية الحرص على هداية عمه أبي طالب لما أسداه إليه من الأيدي البيضاء في كفالته، وذود المشركين عنه فلم يستطع هدايته، ومات وهو يقول: «بل على ملة عبد المطلب»، وأنزل الله تعالى قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنْ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦]^(٢).

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ١٠٥٤، والترمذي في الزهد ٢٣٤٨، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة القصص ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، ٤٧٧٢، ومسلم في الإيمان - الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ٢٤، والنسائي في الجنائز ٢٠٣٥ - من

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ﴾، أي: يكتب له الهداية كونًا وقدراً ويفوقه.

﴿فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: زائدة من حيث الإعراب،

مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: فما له أيّ مضل يضلّه بعد هداية الله تعالى له، كما جاء في حديث خطبة

الحاجة: «من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له»^(١).

﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس الله بعزيز، أي: قوي قاهر

غالب، له العزة التامة، منيع الجانب، فلا يضام من لاذ بجنابه، ولجأ إلى بابه.

﴿ذِي أَنْتِقَامٍ﴾ ذي: بمعنى: صاحب، أي: ذي انتقام شديد من كفر وأشرك به

وعصاه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ﴾ [آل

عمران: ٤].

والجواب: بلى هو سبحانه عزيز ذو انتقام.

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن

سألت هؤلاء المشركين من الذي خلق السموات والأرض، وأوجدهما من العدم على

غير مثال سبق؟ والخطاب للرسول ﷺ ولكل من يصلح له.

﴿لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليقولن الذي خلقهن الله

وحده، فيعترفون بأن الله هو الخالق وحده، ويقرون بتوحيد الربوبية، وهم مع ذلك

يعبدون مع الله آلهة أخرى، لا تخلق شيئاً ولا تملك موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية، أي: إذا أقرؤا أن الذي خلق السموات

والأرض هو الله، فاسألهم سؤالاً آخر ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ﴾ الهمزة: للاستفهام، أي: أخبروني،

﴿مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذين تدعون وتعبدون غير الله من

حديث المسيب بن حزن رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٦٨، والنسائي في النكاح ٣٢٧٨، وابن ماجه في النكاح ١٨٩٣ - من حديث

ابن عباس رضي الله عنهما.

الأصنام والأنداد، أي: أخبروني عنها.

﴿إِنْ أَرَادَنِي اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾ قرأ أبو عمرو ويعقوب بتنوين: ﴿كاشفاتٌ﴾ و﴿ممسكاتٌ﴾، ونصب ﴿ضره﴾، و﴿رحمته﴾.
وقرأ الباقر بغير تنوين فيها وخفض ضره ورحمته بالإضافة: ﴿كاشفات ضره﴾، و﴿ممسكات رحمته﴾.

أي: إن أرادني الله كونًا وقدرا ﴿بِضُرِّهِ﴾، «ضر»: نكره في سياق الشرط، تفيد العموم، أي: بأيّ ضر كان، من مرض أو فقر، أو غير ذلك.
﴿هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾ «هل»: للاستفهام في الموضعين أي: هل هذه المعبودات التي تدعونها من دون الله ﴿كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ﴾، أي: مزيلات ضره الذي أراده عز وجل بي؟
﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ أو أرادني كونًا وقدرا برحمة، ساق إليّ بسببها خيرًا، في ديني أو دنيائي.

﴿هَلْ هُنَّ مُمَسِّكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾، أي: هل هذه المعبودات والآلهة مانعات رحمته عني؟

والجواب عن هذا وذاك: سيقولون: لا تستطيع هذه الآلهة والمعبودات كشف ضره أراده الله بالعبد، ولا إمساك رحمة أراده الله للعبد؛ لأنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها شيئًا.
عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، رفعت الأقلام، وجفت الصحف»^(١).

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾، أي: كافيني كل شيء، فلا يهمني ما تخوفونني به من الذين تدعونهم من دونه، كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وأحمد ١ / ٣٠٧، ٣٠٨ - وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

﴿تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٦٢].

﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، أي: عليه وحده يعتمد المعتمدون في جلب كل خير، ونفع، ودفع كل شر وضر - مع تمام الثقة به عز وجل؛ لأنه القادر على ذلك وحده.

كما قال هود عليه السلام: ﴿إِنِّي أَشْهَدُ لِلَّهِ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤-٥٦].

روى محمد بن كعب القرظي، عن ابن عباس - رفع الحديث إلى رسول الله ﷺ، قال: «من أحب أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكون أغنى الناس فليكن بما في يد الله أوثق بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس فليثق بالله»^(١).

والله أعلم بصحة هذا، لكن معناه صحيح، والأقرب وقفه على ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿قُلْ يَنْقُورِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والمراد بقوله: ﴿يَنْقُورِ﴾ الذين كذبوه وعاندوه من قومه.

﴿أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ﴾، أي: على ما أنتم عليه، وعلى حالتكم التي اخترتموها ورضيتموها لأنفسكم، من الكفر والشرك بالله، والعداوة والإيذاء.

﴿إِنِّي عَمِلٌ﴾، أي: إني عامل على مكانتي وما أنا عليه من عبادة الله تعالى وحده، والدعوة إلى ذلك، ولن أبالي أو أهتم بكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد وتهديد لهم، أي: فسوف تعلمون غب ذلك ووباله، ولن تكون العاقبة.

﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ «من»: اسم موصول في محل نصب مفعول لـ «تعلمون»، أي: فسوف تعلمون الذي ﴿يَأْتِيهِ﴾ في الدنيا.

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٢٥٢.

﴿عَذَابٌ﴾ التنوين في الموضعين: للتعظيم ﴿يُخْزِيهِ﴾، أي: يذله ويهينه في الدنيا، كما جعل لهم يوم بدر، حيث قتل أشرافهم، وسحبوا وألقوا في قلب بدر، وأسر منهم من أسر.

﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، أي: مستمر دائم وهو عذاب النار. وهكذا قال نوح عليه السلام لقومه: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [هود: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿رُبُّيُدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَاتِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [٤١] الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يفتكرون﴾ [٤٢].

قوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن الكريم، أفضل كتب الله عز وجل ﴿لِلنَّاسِ﴾، أي: لهداية جميع الناس، وبشارتهم وإنذارهم، وإقامة الحججة عليهم. كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولٌ مِّنْ رَبِّكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: متلبسًا بالحق، مصاحبًا له. وقد سبق الكلام على هذا في الكلام على قوله تعالى في أول السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [٢] [الزمر: ٢].

﴿فَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فمن اهتدى بهدي هذا الكتاب ونوره. أي: استرشد به فعلم وعمل، كما قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥]،

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوْرًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

﴿فَلِنَفْسِهِ﴾، أي: فاهتداؤه لنفسه، أي: فإنما يعود نفع اهتدائه لنفسه.

﴿وَمَن ضَلَّ﴾، أي: تنكب الطريق بعد ما تبين له الهدى.

﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾، أي: فإنما يرجع وبال ضلاله على نفسه.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: وما أنت على الخلق بوكيل

تلزمهم أن يهتدوا، أو تراقبهم، وتحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى:

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾

[ق: ٤٥].

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾، أي: الله وحده الذي يقبض الأنفس والأرواح

حين موتها، الموتة الكبرى، بإرسال ملك الموت وأعوانه من الملائكة لقبضها من الأبدان.

﴿وَأَلَّتْ لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾، أي: ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، بالنوم،

وهو الموتة الصغرى.

﴿فَيَمْسِكُ إِلَيْ قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: ﴿قَضَىٰ﴾ بضم

القاف، وكسر الضاد وفتح الياء، و﴿الموت﴾ بالرفع.

وقرأ الباقون بفتح القاف والضاد، فتصير الباء ألفًا، ونصب الموت: ﴿قَضَىٰ عَلَيْهَا

الْمَوْتَ﴾.

أي: فيقبض التي قضى كونًا عليها الموت، أي: التي حضر أجلها، فلا ترجع إلى

جسدها، إلى أن يأتي البعث.

﴿وَيُرْسِلُ الْآخِرَىٰ﴾، أي: النفس الأخرى التي لم يحضر أجلها.

﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت محدد معين بعد استكمال رزقها وعملها وأجلها،

كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ

لِيُقَضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ

وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦١﴾
[الأنعام: ٦٠، ٦١].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «يمسك أنفس الأموات، ويرسل أنفس الأحياء، ولا يغلط»^(١).

وكلام المفسرين على الآية على قولين:

القول الأول: أن الممسكة هي من توفيت وفاة الموت أولاً، والمرسلة من توفيت وفاة النوم.

والمعنى على هذا القول: أنه يتوفى نفس الميت، فيمسكها ولا يرسلها إلى جسده قبل يوم القيامة، ويتوفى نفس النائم ثم يرسلها إلى جسده إلى بقية أجلها، فيتوفاها الوفاة الأخرى.

والقول الثاني في الآية: أن الممسكة والمرسلة كلاهما قد توفي وفاة النوم، فمن استكملت أجلها أمسكها عنده، فلا يردها إلى جسدها، ومن لم تستكمله ردها إلى جسدها لتستكمله.

واختار ابن تيمية هذا القول، ورجح ابن القيم القول الأول^(٢)؛ وهو الأظهر. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أوى أحدكم إلى فراشه فلينبضه بداخله إزاره، فإنه لا يدري ما خلفه عليه ثم ليقل: باسمك اللهم ربي وضعت جنبي، وباسمك أرفعه، اللهم إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»^(٣).

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، أي: إن في توفيه عز وجل الأنفس حين موتها وإمسাকে إياها، وإرسال التي لم تمت في منامها إلى أجل مسمى، دلائل على عظمتها، وكمال تصرفه، وتمام قدرته على إحياء الموتى، وغير ذلك.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٩٣.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٦٠.

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات- التعوذ ٦٣٢٠، ومسلم في الذكر- ما يقول عند النوم وأخذ المضجع ٢٧١٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٥٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٠١، وابن ماجه في الدعاء ٢٨٧٤.

﴿لَقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أي: يعملون أفكارهم وعقولهم في آيات الله، ويتأملون فيها.
 قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ، مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾
 وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾.

قوله: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ «أم» هي المنقطعة بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل اتخذ هؤلاء المشركون غير الله شفعاء من الأصنام والأنداد، يعبدونهم مع الله، يرجون شفاعتهم في زعمهم، ويقولون: ﴿هَتُوَلَاءَ شُفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

و﴿شُفَعَاءَ﴾: جمع «شفيع»، و«الشفيع»: من يتوسط لغيره بجلب نفع أو دفع ضرر.
 ﴿قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا﴾ الاستفهام: للإنكار، أي: قل يا محمد هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله شفعاء من الأصنام والأنداد أتخذونهم شفعاء، وتزعمون أنهم يشفعون لكم، والحال أنهم لا يملكون شيئاً.
 و«شيئاً»: نكرة في سياق النفي فتعم، أي: لا يملكون أي شيء، لا شفاعاة ولا نفعاً، ولا ضرراً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً.

﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾، أي: ولا عقول لهم، فلا يعقلون شيئاً من العقل، ولا شيئاً من الأشياء، فلا يعقلون عبادتكم لهم، ولا يعقلون شفاعاة ولا غيرها، ولا أسمع لهم، ولا أبصار، بل هم جمادات أسوأ حالاً من الحيوان، كما قال الخليل عليه السلام لأبيه: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ (٤٢) [مريم: ٤٢].
 ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾.

بعدهما أنكر عليهم اتخاذهم من دون الله شفعاء وهم لا يملكون شيئاً ولا يعقلون بين أن لله وحده الشفاعاة جميعاً.

والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: قل لله تعالى وحده ملك الشفاعاة جميعاً، فهو وحده الذي يملك الإذن فيها، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ورضاه.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦].
فلا بد في الشفاعة من إذن الله للشافع، ورضاه عنه وعن المشفوع له.

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: له وحده ملك السموات والأرض، وله الخلق والأمر كله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].
فله عز وجل ملك السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً.

﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، أي: تردون يوم القيامة، فيحكم بينكم بعدله، ويجازي كلًا منكم بعمله.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾، أي: إذا قيل: لا إله إلا الله، وذكرت وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته.

﴿أَسْمَارَتٌ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: كرهت ذلك قلوبهم أشد الكراهية، ونفرت وانقبضت واستكبرت، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: الذين لا يصدقون بالدار الآخرة ولا يقرون بالبعث والحساب والجزاء، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام: ٢٩]، وقالوا: ﴿إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]، وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الجنائيات: ٢٤].

﴿وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾، أي: وإذا ذكر غيره من الأصنام والأنداد، وأثنى عليهم ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

«إذا» هي الفجائية، أي: إذا هم يفرحون ويسرون.

قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [٤٦] ﴿لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾.

لَأَقْنَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ .

قوله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: قل داعياً: يا الله يا فاطر السموات والأرض، أو يا فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما على غير مثال سبق.
﴿عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، أي: عالم ما غاب عن أبصار الخلائق وحواسهم، وعلمهم، وعالم ما يشاهدونه ويعلمونه، أي: عالم السر والعلانية.
﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾، أي: أنت وحدك تفصل بين عبادك عامة يوم القيامة.

﴿فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾، أي: في الذي كانوا في الدنيا فيه يختلفون من التوحيد والشرك والبعث والحساب، وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ [الحج: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

فله عز وجل الحكم الجزائي بين عباده يوم القيامة، كما أن له الحكم الشرعي بينهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠].
كما أن له الحكم الكوني في الدنيا والآخرة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا افتتح صلاته من الليل قال: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١).

﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ «لو»: حرف شرط غير جازم، ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والشرك والمعاصي، أي: ولو ثبت أن للذين ظلموا.

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين - الدعاء في صلاة الليل وقيامه ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦٧، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧.

﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، أي: الذي في الأرض جميعًا مما يملك، من ذهب وغيره،
﴿وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾، أي: ولهم مثله معه.

﴿لَأَقْتَدُوا بِهِ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لقدموه ودفعوه كله فدية ونظير
الخلاص.

﴿مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: من شدة العذاب يوم القيامة، أو من العذاب
السيئ يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَأَقْتَدُوا بِهِ﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ لِلْهَادِثِ
[الرعد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ
لَيَقْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا نُقِيلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرًا فَلَنْ يُبْعَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ
ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [آل عمران: ٩١].

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: وظهر لهم من الله
الذي لم يكونوا يحتسبونه، أي: الذي لم يكونوا يظنونونه ويتوقعونه، وما لم يكن في
حسابهم، من السخط العظيم، والمقت الشديد، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير
ذلك، من أن لهم المنزلة عند الله، أو أن الأصنام تشفع لهم ونحو ذلك.

﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: وظهر لهم سيئات
الذي كسبوا، أو سيئات كسبهم، أي: وظهر لهم جزاء سيئات ما كسبوا في الدنيا من
الموبقات والآثام، أي: الجزاء الذي يسوءهم؛ لسوء عملهم، والجزاء من جنس العمل.

﴿وَحَاقَ بِهِمْ﴾، أي: وأحاط بهم من كل جانب، وألمّ ونزل بهم من العذاب.

﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: الذي كانوا به يستهزئون، في الدنيا،
أي: يسخرون ويكذبون، ويقولون: لا بعث، ولا حساب ولا جزاء، كما قال تعالى:
﴿إِنَّ الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ﴾ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا
إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ [المطففين: ٢٩-٣٢].

الفوائد والأحكام:

- ١- تقرير كفايته عز وجل لعبده ورسوله محمد ﷺ وتوليه ونصرته له، ولكل عبد أخلص لله تعالى وتوكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾.
- ٢- أن العبودية لله تعالى أشرف وصف يتصف به البشر؛ لهذا وصف به رسوله ﷺ.
- ٣- كمال قوته عز وجل، وتمام قدرته، وعظيم عنايته ودفاعه عن رسله وعباده المؤمنين، وكفايته وحفظه لهم.
- ٤- تخويف المشركين له ﷺ ولأتباعه بمعبوداتهم من دون الله من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾.
- ٥- تشریفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله: ﴿ وَمُخَوِّفُونَكَ ﴾.
- ٦- أن من يضلله الله كونًا وقدرًا فلا هادي له؛- لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾.
- ٧- أن من يهده الله كونًا وقدرًا فلا مضل له؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ ﴾، وهذا يوجب طلب الهداية وسؤالها من الله وحده.
- ٨- الرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يستقلون بخلق أفعالهم، ومشيتها دون الله تعالى.
- ٩- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير كل شيء في الأزل قبل خلق السموات والأرض.
- ١٠- تقرير وإثبات كمال عزته عز وجل وقوته وقهره وغلبته وانتقامه ممن عصاه، وتهديد المكذبين له ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ ﴾.
- ١١- إقرار المشركين بربوبية الله تعالى وأنه هو الذي خلق السموات والأرض؛ لقوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾.
- ١٢- الإنكار عليهم كيف يدعون ويعبدون آلهة من دونه- مع إقرارهم بربوبيته وخلق السموات والأرض، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ لقوله تعالى:

﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾؟

١٣- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى، والتي هي بمعنى المشيئة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾.

١٤- أن ما يعبده المشركون من دون الله من المعبودات لا تستطيع كشف ضرر إرادته الله بالعبد، ولا منع رحمة إرادتها له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾ الآية، أي: لا تستطيع جلب نفع ولا دفع ضرر.

١٥- كفايته عز وجل لنبيه ﷺ وحفظه ونصره له، وعنايته به، وتما توكله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ الآية.

١٦- وجوب التوكل على الله تعالى والاعتماد عليه وحده في جلب النفع ودفع الضرر- مع تمام الثقة به، وأنه الكافي لكل من توكل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ﴾.

١٧- أمر الله تعالى له ﷺ بمتاركة المشركين يعملون على ما هم عليه، وعمله على ما هو عليه؛ تحدياً لهم، وإظهاراً لعدم مبالاته وعدم اهتمامه بهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَقَوَّمُ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ﴾، وهكذا ينبغي لصاحب الحق الاعتزاز بما هو عليه من الحق، وعدم الاهتمام بمن خالفه وخذله- وفي هذا تسلية له ﷺ.

١٨- تهديده للمشركين وتوعده إياهم بعذاب الدنيا المذل المهين، وعذاب الآخرة الأليم المقيم؛ لقوله: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣٩) ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (٤٠).

١٩- شدة وقع ألم العذاب المعنوي على النفوس من الخزي والإهانة والإذلال وأنه قد يفوق العذاب الحسي؛ لأنه ينصب على القلوب؛ لقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾.

٢٠- إثبات النار وعذابها، وأنه أبدي سرمدي؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

٢١- إثبات رسالته ﷺ وإنزال الكتاب عليه، وتشريفه وتكريمه بخطاب الله تعالى

له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾.

٢٢- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ بالحق، فطريق وصوله إليه حق، لم يتطرق إليه الباطل، وهو مشتمل على الحق في دعوته وأخباره وأحكامه، وبه قامت الحجة على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

٢٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾.

٢٤- أن القرآن الكريم كلام الله تعالى منزل غير مخلوق، والرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.

٢٥- عظمة القرآن وفضله؛ لإطلاق اسم «الكتاب» عليه بالتعريف؛ لأنه أعظم كتب الله تعالى، وأفضل الكتب على الإطلاق.

٢٦- أن القرآن أنزل لجميع الناس، ورسالته ﷺ عامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى:

﴿لِلنَّاسِ﴾.

٢٧- أن الله عز وجل أنزل القرآن على النبي ﷺ بالحق، فطريق وصوله إليه حق، لم يتطرق إليه الباطل، وهو مشتمل على الحق، في دعوته وأخباره وأحكامه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ﴾.

٢٨- أن من اهتدى بهدي القرآن ونوره فنفذ هدايته لنفسه، ومن ضل عنه فإنما ضرر ضلاله على نفسه، والله غني عن الخلق، لا تنفعه طاعة المطيع، ولا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَهْتَكَدَ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ وفي هذا رد على الجبرية؛ لأن الله أضاف الاهتداء والضلال إلى العبد.

٢٩- قيام الحجة بهذا القرآن على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَهْتَكَدَ فَلِنَفْسِهِ ۖ﴾

الآية.

٣٠- تسلية النبي ﷺ، وإخباره أنه ليس بوكيل يلزمهم الهداية، أو يحصي عليهم

أعمالهم، ويحاسبهم عليها، فذلك إلى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ

بِوَكِيلٍ﴾.

٣١- عظمة سلطان الله، وعموم تدبيره، وتصرفه في أنفس العباد حال يقظتهم

ومنامهم، وحياتهم وموتهم، يتوفى نفس من قضى عليه الموت فيمسكها، ويتوفى التي لم تمت بالنوم ثم يرسلها إلى جسدها إلى أجل موتها؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٣٢- أن الروح والنفس جسم قائم بنفسه، يخالف جوهر البدن، وأنها مخلوقة مدبرة، يتصرف الله تعالى فيها بالوفاة والإمساك والإرسال^(١).

٣٣- أن النوم يسمى وفاة، وهو الوفاة والموتة الصغرى؛ ولهذا لا يؤاخذ النائم بعمله، وفي الحديث: «رفع القلم عن ثلاثة»: وذكر منهم «النائم حتى يستيقظ»^(٢).

٣٤- أن كل نفس ذائقة الموت، ولكل نفس أجل مسمى ووقت محدد لموتها؛ لقوله تعالى: ﴿فِيمَسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

٣٥- أن في توفيه عز وجل الأنفس حين موتها، وإمساكها إياها، وإرساله التي لم تمت في منامها إلى أجل مسمى دلائل على عظمة الله تعالى، وكمال تصرفه، وتمام قدرته على إحياء الموتى؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

٣٦- الحث على التفكير والتأمل في الآيات؛ لأنه لا يتنفع بالآيات إلا الذين يتفكرون ويتأملون فيها.

٣٧- الإنكار على المشركين وتسفيهم في اتخاذهم من دون الله شفعاء، من الأصنام والأوثان، الذين لا يملكون أي شيء، ولا يعقلون؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَٰئِكَ أَوْلُوا كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾^(٣).

٣٨- إثبات الشفاعة، وأنها كلها لله جميعاً، فلا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ورضاه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾.

٣٩- أن له عز وجل خاصة ملك السموات والأرض، وهو عز وجل الخالق

(١) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٤٧٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٣٩٨، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٢، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤١ - من حديث عائشة رضي الله عنها.

والمدبر لذلك كله؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

٤٠- أن مرجع الخلائق كلهم ومردهم إلى الله عز وجل، إليه إياهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٤١- اشمئزاز ونفور الكفار الذين لا يصدقون بالآخرة من ذكر الله وحده؛ لشدة كراحتهم لذكر الله وتوحيده، واستبشارهم وفرحهم عند ذكر الذين يعبدونهم من دونه من الأصنام والأنداد؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

٤٢- إثبات الدار الآخرة والقيامة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، وقوله: ﴿مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٤٣- التوسل إلى الله تعالى بأفعاله، بكونه مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سبق، عالم ما غاب عن أعين الخلق وحواسهم، وعن علمهم، وعالم ما يشاهد، الذي يحكم بين العباد يوم القيامة ويفصل بينهم، فيما كانوا فيه يختلفون؛ لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

٤٤- إثبات عموم خلق الله، وعموم علمه، وعموم حكمه.

٤٥- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ عِبَادِكَ﴾.

٤٦- شدة عذاب الظالمين، حتى أنه لو كان لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لقدموه فدية مقابل الخلاص من سوء عذاب يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

٤٧- أنه في ذلك اليوم يظهر للظالمين من الله ما لم يكونوا يظنون ويتوقعون وما لم يدر في حسابهم من شدة غضبه عز وجل وسخطه عليهم، وشدة عذابه، وقد كانوا يحكمون لأنفسهم بغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَبَدَأْتُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾.

٤٨- ظهور جزائهم السيئ على سيئات كسبهم من الموبقات والآثام؛ لقوله تعالى:

﴿وَبَدَأْ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾.

٤٩- أن الجزء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ ولم يقل: جزء سيئات ما كسبوا- مع أن المراد هو الجزء.

٥٠- إثبات الكسب للإنسان، والرد على الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبر على عمله لا اختيار له.

٥١- إحاطة الذي كانوا يسخرون به من العذاب في الدنيا بهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَمَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ يَعْبادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِئْسَ الرَّقِيقُ عَلَىٰ مَا قَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءٍ أَيُّكَ فَكَذَّبَتْ بِهَا وَاسْتَكْبَرَتْ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَهُ نِعْمَةٌ مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ، عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَمَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَتُولَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوْلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ .

قوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ﴾، أي: فإذا أصاب الإنسان الذين لا إيمان عنده ﴿ضُرٌّ﴾ من مرض أو فقر، أو شدة أو كرب، ﴿دَعَانَا﴾، أي: دعا الله تعالى وأتاب إليه، وتضرع إليه؛ فيكشف عنه ما أصابه من ضر. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَلْتَهُ نِعْمَةٌ مِنَّا﴾، أي: ثم إذا أعطيناه نعمة منا، فكشفنا ما أصابه من ضر، ومنحناه نعمة منا وخيرًا.

﴿قَالَ﴾ كافرًا بالله منكرًا نعمة الله عليه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ﴾، أي: إنما أعطيته وخولته من النعمة من زوال الضر عني، وحصول الخير لي.

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، أي: على علم من الله أني أهل لذلك، ومستحق له، أو على علم مني وحقق ومعرفة بوجوه المكاسب وتحصيلها، وسواء كان هذا أو هذا أو كلاهما، فهذا

كله من كفر النعمة ونكران فضل الله تعالى، والاعتداد بالنفس، ونسبة ما أسداه إليه، استحقاقاً أو حذقاً.

وهذه حال الإنسان وطبيعته يضرع إلى الله وينيب إليه ويدعوه في حال الضراء، ويطغى في حال السراء، إلا من هداه الله ووقفه، بل إن من الناس من يطغى حتى في حال الضراء.

﴿بَلْ﴾: للإضراب الانتقالي، ﴿هِيَ﴾، أي: تخويلنا إياه النعمة ﴿فِتْنَةً﴾، أي: ابتلاء واختبار وامتحان له، كما قال تعالى: ﴿وَنَبَلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥] أي: ليس الأمر كما زعم، بل خولناه هذه النعمة لنختبره ونبتليه أيشكر أم يكفر، كما قال سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الحكمة فيما يقدره الله للإنسان، وأن المنحة والنعمة قد تكون فتنة واستدراباً، وابتلاء ومحنة، كما أن المحنة قد تكون منحة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [١٥] وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهْنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴿ [الفجر: ١٥-١٧].

وقد أحسن القائل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض القوم بالنعمة^(١)
﴿فَدَّ قَالَهَا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: قد قال مقاتلهم: «إنها أوتيته على علم»، وادعى هذه الدعوى كثير ممن سلف قبلهم من الأمم، وتوارثوها بينهم، يكفرون نعم ربهم ولا يشكرونها، حتى أهلكوا، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: فما نفعهم ولا دفع عنهم عذاب الله ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، أي: كسبهم أو الذي يكسبونه من الأموال والأعمال والدعوى الباطلة، حين حل بهم عذاب الله وعقابه، كما قال تعالى مخبراً عن قارون: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ﴿٦٦﴾

(١) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص ٥٧٧.

وَاتَّبَعْ فِي مَاءِ آتَمِكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ [القصص: ٧٦-٧٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ: ٣٥].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي: فحل بهم جزاء وعقوبات سيئات كسبهم، أو سيئات الذي كسبوه، من الكفر والشرك والمعاصي.

﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ بالكفر والشرك والمعاصي، ﴿مِنْ هَؤُلَاءِ﴾ المكذبين للنبي ﷺ ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾، أي: سيصيبهم جزاء سيئات ما كسبوا، ويحل بهم من العقوبات مثل ما حل بالذين من قبلهم، وهذا تهديد ووعد لهم؛ ولهذا قال:

﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾، أي: وما هم بمعجزين الله، ولا فائتين ولا مفلتين من عذابه ولا سابقيه.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

لما ذكر اغترار كثير من الخلق من السابقين واللاحقين بما آتاهم الله من نعمة المال وغير ذلك، وأنهم إنما أوتوا ذلك على علم من الله بأهليتهم واستحقاقهم لذلك، أو لحذقهم ونحو ذلك، أنكر عز وجل عليهم ذلك، وأخبر أنه يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره على من يشاء لحكمة يعلمها، لا لكون هذا أهلاً للرزق، وهذا ليس له بأهل.

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ الاستفهام: للإنكار والتقرير، أي: أو لم يعلم هؤلاء الذين يزعمون أن الله خولهم النعم وآتاهم إياها على علم منه أنهم لها أهل، أو لحذقهم ومهارتهم في الكسب ونحو ذلك.

﴿أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾، أي: يوسع الرزق والعطاء ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي: للذي يشاء من عباده، ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أي: ويقدر الرزق، أي: يضيقه على من يشاء منهم، من مؤمن وكافر، وصالح وطالح، وحاذق وأخرق.

كما قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ

مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ [الإسراء: ٢٠].

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾، أي: في بسطه عز وجل الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء
﴿لَا يَتَّيَّبُ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لدلالات واضحات على سعة فضل الله تعالى وحكمته.
﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، أي: يصدقون بقلوبهم بما جاءهم من الحق وينقادون له
بجوارحهم، ويصدقون بأن الله الحكمة في بسط الرزق أو تضييقه على من يشاء من
عباده من مؤمن وكافر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُصْرَفُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن
يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي
جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُنْتَفِقِينَ ﴿٥٧﴾
أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةٌ فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ
ءَايَاتِي فَاكْذَبَتْ بِهَا وَأَسْتَكَبَتْ وَكُنتَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

سبب النزول:

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا،
وزنوا وأكثروا، فأتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعوا إليه لحسن، لو تخبرنا أن
لما عملناه كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: ٦٨] ونزل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا
تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (١).

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد مبلغًا عن الله تعالى قوله: ﴿يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٠، ومسلم في الإيوان- كون الإسلام يهدم ما كان قبله
١٢٢، والنسائي في التحريم- تعظيم الدم ٤٠٠٣.

أَنْفُسِهِمْ ﴿٤٩﴾، قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي ويعقوب وخلف بإسكان ياء الإضافة ﴿يا عبادي﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿يَعْبَادِي﴾ ﴿٥٠﴾.

و«الإسراف»: مجاوزة الحد، أي: الذين أسرفوا على أنفسهم بالكفر والشرك والمعاصي، فالمراد بالعبودية هنا: العبودية العامة.

﴿لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾، أي: لا تياسوا من رحمة الله، وقوله توبة من تاب وأناب إليه، ومغفرة ذنوبه، مهما عظمت وكثرت، والقنوط: أشد اليأس.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾: تعليل للنهي السابق، أي: يستر الذنوب ويتجاوز عنها كلها من كفر وشرك وكبائر وغير ذلك لمن تاب وأناب إليه، فلا يستعظمه ذنب أن يغفره لمن تاب، ولا تتكاثره ذنوب مهما بلغت أن يغفرها، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧٠].

وقال عليه السلام لعمر بن العاص رضي الله عنه: «أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها»^(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما أحب أن لي الدنيا وما فيها بهذه الآية: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية». فقال رجل: يا رسول الله، فمن أشرك؟ فسكت النبي صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «ألا ومن أشرك» ثلاث مرات^(٢). فمن تاب من أي ذنب، وإن كان أعظم الذنوب، كالشرك بالله، ومهما بلغت ذنوبه، ولو كانت كزبد البحر، فإن الله يتوب عليه.

كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ١٢١ - من حديث عمرو رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٥ / ٢٧٥، والطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٢٢٩.

لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكٌ ثَلَاثَةً وَمَكَ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾، ثم قال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المائدة: ٧٣، ٧٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَكُفَرُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [البروج: ١٠].

ودعا عز وجل إلى التوبة فرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

فقال عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ فقولاً له: ﴿قَوْلًا لِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى لموسى عليه السلام: ﴿أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَبَ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَنَخْسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النازعات: ١٧-١٩]. وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه في قصة «الذي قتل مائة نفس، ثم تاب، وتاب الله عليه» (١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن أعظم آية في كتاب الله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وإن أجمع آية في القرآن بخير وشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: ٩٠] وإن أكثر آية في القرآن فرجاً في سورة الغرف: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣] وإن أشد آية في كتاب الله نصرياً: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]» (٢).

قال علي رضي الله عنه: «إن أرجة آية في كتاب الله تعالى قوله: ﴿قُلْ يٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ

(١) سبق تخريجه.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٩٩- ونسبه للطبراني، وأخرج الطبري بعضه في «جامع البيان» ٢٠/

الرَّحِيمِ ﴿٥٣﴾ [الزمر: ٥٣] (١).

أما من مات ولم يتب فإن جميع ذنوبه تحت مشيئة الله تعالى إن شاء غفرها وإن شاء عذبه بها، ما عدا الشرك بالله، فإنه لا يغفر إذا مات صاحبه من غير توبة، وصاحبه خالد مخلد في النار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَفْوُ الرَّحِيمُ﴾: تعليل لما قبله، أي: لأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة، والرحمة الواسعة. والجملة مؤكدة بـ«إن»، وضمير الفصل «هو».

﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾، أي: توبوا وارجعوا إلى ربكم، وأخلصوا له بقلوبكم، ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾، أي: أخلصوا له العمل، واستسلموا له، واخضعوا وانقادوا له بجوارحكم.

﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾ «أن» والفعل بعدها في الموضعين في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة إلى «قبل» أي: من قبل إتيان العذاب من الله.

﴿ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ﴾، أي: ثم لا تمنعون من عذاب الله، أي: ثم لا أحد ينصركم بعد مجيء العذاب إليكم، لأن عذاب الله ليس له دافع، ولا مانع، ولا رافع، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَالَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، أي: واتبعوا أحسن الذي أنزل إليكم من ربكم وهو القرآن الكريم، أي اعملوا به باطنًا وظاهرًا، عقيدة وقولًا وعملاً. و«أحسن»: اسم تفضيل مستعمل في كامل الحسن، أي: أحسن ما أنزل إليكم في ألفاظه ومعانيه وأحكامه وحكمه ومواعظه، وأخباره وآثاره وغير ذلك.

وليس في معنى تفضيل بعضه على بعض، وقد يحمل «أحسن» على الأخذ بالعزيمة بفعل المندوب مع الواجب، وعدم الاكتفاء بالواجب.

﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً﴾، أي: فجأة، وعلى غرة.

(١) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ١٠/٣٢٣.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي: وأنتم لا تعلمون بمجيئه ولا تحسون به، وعنه غافلون، كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتٍ وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ ﴿١٧﴾ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ﴾ ﴿١٨﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٨].

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتِي﴾ قرأ أبو جعفر: ﴿يا حسرتاي﴾ بياء مفتوحة بعد الألف، وقرأ الباقون: ﴿يا حسرتا﴾ بدون ياء.

أي: بادروا إلى الإنابة إلى ربكم والاستسلام له، واتباع أحسن ما أنزل إليكم من ربكم؛ قبل أن تقول، أو لثلاث تقول نفس: ﴿بِحَسْرَتِي﴾، أي: يا ندامتي الشديدة، وأسفي وحزني.

﴿عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ﴾، أي: على الذي ضيعت وأهملت ﴿فِي جَنبِ اللَّهِ﴾، أي: في حقه وطاعته.

﴿وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ﴾ «إن»: مخففة من الثقيلة، واللام: للتوكيد، أي: وإن كنت في الدنيا لمن المستهزئين بالله وآياته ورسله، وبالحق وأهله، وبالعذاب والوعيد.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ ﴿١٨٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِّنَ الْأَشْرَارِ﴾ ﴿٦٢﴾ اتَّخَذْتَهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ﴾ [ص: ٦٢، ٦٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: ٦٥].

﴿أَوْ تَقُولُ﴾ «أو»: عاطفة في الموضعين، أي: أو تقول نفس.

﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ للتمني، «لو»: شرطية غير جازمة، أي: لو ثبت أن الله هداني، أي: وفقني:

﴿لَكُنْتُ مِنَ الْمُنْفِقِينَ﴾: جواب الشرط.

«لو»، واللام: واقعة في جواب الشرط، أي: لكننت من المنفقين الله بفعل أو امره واجتناب نواهيته، فأسلم من العذاب وأستحق الثواب.

وهذا احتجاج منهم بالقدر على ضلالهم، وهو حجة باطلة. وجوز بعضهم أن تكون «لو» للتمني، أي: ليت أن الله هداني فكنت من المتقين. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كل أهل النار يرى مقعده من الجنة، فيقول: لو أن الله هداني، فتكون عليه حسرة. قال: وكل أهل الجنة يرى مقعده من النار، فيقول: لولا أن الله هداني»^(١).

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ﴾، أي: أو تقول نفس حين ترى العذاب، أي: حين تشاهد العذاب عياناً، وتجزم بوروده: ﴿لَوْ أَن لِي كَرَّةٌ﴾ «لو»: للتمني، أي: ليت أن لي كرة، أي: رجعة إلى الدنيا.

﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الفاء: للسببية، أي: فأكون من الذين أحسنوا بالإجابة إلى الله تعالى، والإخلاص له، والاستسلام له، واتباع شرعه، والإحسان في عبادته، وإلى عباده.

وهيهات لهم الرجوع، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نَكَذَّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢٧) بَلْ بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَلِكَذِبِهِمْ لَكَذِبُونَ﴾^(٢٨) [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أخبر الله ما العباد قائلوه قبل أن يقولوه، وعملهم قبل أن يعملوه، قال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾، ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي﴾ إلى ﴿فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يقول: من المهتدين، فأخبر سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدرُوا على الهدى، وقال: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَلِكَذِبِهِمْ لَكَذِبُونَ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَتِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَوْ يُؤْمِنُوا بِهِ أُولَٰئِكَ مَرَّةٌ﴾ [الأنعام: ١١٠].

وقال: «ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا»^(٢).

(١) أخرجه أحمد ٢ / ١٢.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٢٣٦.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ «بلى»: حرف جواب، يجاب بها عن النفي؛ لإثباته، والنفي هنا في قول هذه النفس المكذبة: ﴿لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾؛ لأن هذا يتضمن أن الله لم يهداها؛ لهذا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَ ءَايَتِي﴾ الشرعية والكونية وحججي التي فيها الهداية والدلالة على الحق، ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾، أي: جحدتها، ولم تصدق بها ﴿وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ عن الانقياد لها واتباعها، أي: فكذبت ما جاء فيها من الأخبار، واستكبرت عن الانقياد لما فيها من الأحكام.

﴿وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ بالله الجاحدين المنكرين لآياته وشرعه.

الفوائد والأحكام:

١- أن من طبيعة الإنسان التضرع إلى الله تعالى ودعائه في الضراء، وكفر نعمة ربه وإنكارها في السراء، بنسبتها إلى نفسه هو، وعدم شكر الله تعالى، إلا من هداه الله ووفقه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾.

٢- أن الشر ليس إليه عز وجل، والخير كله بيديه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ﴾، مع أنه عز وجل هو الذي قدره، ونسب النعمة إلى نفسه عز وجل فقال: ﴿إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾.

٣- أن النعم كلها من الله تعالى هو جالبها ومقدرها، ومقدر النقم، وجميع المقادير.
٤- تميز المؤمن عن غيره بالصبر، وعدم الجزع عند الضراء، مع التضرع إلى الله تعالى، والشكر عند السراء، وعدم الطغيان والبطر وكفر النعمة.

٥- أن الله يبتلي بالنعم كما يبتلي بالنقم، فتحويل الإنسان النعم مع كفره بها وإنكاره لها، قد يكون ابتلاءً واختبارًا له أيشكر أم يكفر؟ لقوله تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: ابتلاءً واختبارًا له، وليس كما يزعم لاستحقاقه لها، أو لحذقه.

٦- أن أكثر الخلق لا يعلم أن منحه النعمة قد يكون فتنةً له، وابتلاءً، فيغتر بها.

٧- أن هذه المقالة ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وهذه الدعوى قد قالها الكفار الجاحدون لنعم الله تعالى من الأمم السابقة؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَّآلِهَتُنَا إِلَٰهَةٌ غَيْرُ اللَّهِ فَغَدَّاهَا لَنَحْمِلَنَّ جُزُءَ مَا تَدْعُوهُنَّ﴾ وفي هذا تسلية له ﷺ.

٨- أن قائلها هذه المقالة من الأمم السابقة لم ينفعهم، ولم يدفع عنهم عذاب الله ما كانوا يكسبون من الأموال والأعمال والدعاوى الباطلة، وهكذا من جاءوا بعدهم لن تنفعهم هذه المقالة، ولا كسبهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷻ.

٩- الرد على الجبرية الذين يقولون: إن عمل الإنسان ليس كسباً له، فلا يضاف إليه؛ لأنه مجبر عليه؛ لقوله تعالى: ﴿يَكْسِبُونَ﴾، ﴿مَا كَسَبُوا﴾.

١٠- حلول العقوبات بالمكذبين السابقين بسبب سيئات ما كسبوه؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾.

١١- الوعيد والتهديد للذين ظلموا من هذه الأمة بأنه سيصيبهم عقاب سيئات ما كسبوه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِن هُنَّ لَآئِي سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾.

١٢- أن الجزاء من جنس العمل فمن أساء العمل فله العقاب الذي يسوءه.

١٣- كمال عدل الله تعالى بين السابقين واللاحقين بمجازاة كل منهم بكسبه.

١٤- أن الظالمين لن يعجزوا الله أو يسبقوه أو يفلتوا من عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾.

١٥- تقرير وإثبات أنه عز وجل هو الرزاق، وأنه يبسط الرزق والعطاء لمن يشاء من عباده ويضيقه على من يشاء من مؤمن وكافر، حاذق أو غير حاذق، وله الفضل والحكمة في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.

١٦- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية.

١٧- أن في بسطه عز وجل الرزق لمن يشاء وتضييقه على من يشاء آيات واضحة ودلالات بينات على سعة ملكه، وتمام سلطانه وحكمته، لأهل الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

١٨- أنه لا ينتفع بالآيات إلا المؤمنون دون من عداهم، وفي هذا ثناء عليهم وترغيب في الإيمان.

١٩- إثبات سعة رحمة الله تعالى ومغفرته، ووعده بمغفرة الذنوب لمن تابوا وأنابوا.

إليه، مهما عظمت ذنوبهم وكثرت؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

٢٠- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾.

٢١- إثبات رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه.

٢٢- تحريم القنوط من رحمة الله تعالى؛ لنهي عز وجل عن ذلك.

٢٣- أن الله لا يتعاضمه ذنب أن يغفره لمن تاب إليه مهما عظم حتى الشرك بالله، الذي هو الحنث العظيم، وأعظم الذنوب، ولا يتعاضمه كثرة الذنوب، أن يغفرها، ولو بلغت عدد زبد البحر.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»^(١).

وقال ﷺ: «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقاً يذنبون يغفر لهم»^(٢).

٢٤- إثبات اسم الله تعالى: «الغفور»، وصفة المغفرة الواسعة له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

٢٥- إثبات اسم الله تعالى: «الرحيم»، وأنه عز وجل ذو الرحمة الواسعة، ذاتية وفعليه، عامة وخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ﴾.

٢٦- في اقتران اسميه عز وجل «الغفور» و«الرحيم» الوعد بزوال المرهوب بالمغفرة، وحصول المطلوب بالرحمة.

٢٧- في تقديم «الغفور» على «الرحيم» إشارة إلى أن التخلية قبل التحلية.

٢٨- وجوب إنابة العباد إلى ربهم والإخلاص له في القلوب، والاستسلام والانقياد له بالجوارح، والمبادرة بذلك، قبل حلول العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ

(١) أخرجه مسلم في التوبة- سقوط التوبة بالاستغفار ٢٧٤٩.

(٢) أخرجه مسلم في الباب السابق ٢٧٤٨، والترمذي في الدعوات ٣٥٣٩، وأحمد ٥ / ٤١٤- من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه.

رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ، مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴿٤٩﴾.

٢٩- أن عذاب الله تعالى إذا نزل، فلا ناصر منه ولا دافع له ولا رافع؛ لقوله تعالى:

﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾.

٣٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾،

وقوله: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

٣١- وجوب اتباع القرآن الكريم، والمبادرة إلى ذلك قبل حلول العذاب فجأة بلا

علم؛ لقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ

الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾.

٣٢- أن القرآن الكريم أحسن ما نزل إلى العباد، في ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

وأخباره وآثاره، وغير ذلك، فهو أفضل كتب الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ

رَبِّكُمْ﴾.

٣٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ

رَبِّكُمْ﴾.

٣٤- إثبات أن القرآن الكريم منزل من عند الله تعالى وكلامه، وغير مخلوق؛ لقوله

تعالى: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾.

٣٥- عظم منة الله تعالى ونعمته على هذه الأمة، وفضيلتها، حيث أنزل إليها

أحسن كتبه وأفضلها.

٣٦- التحذير من حلول العذاب فجأة وعلى غرة، من غير شعور به ولا علم؛

لقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾.

٣٧- تحسر المفرط على تفريطه في جنب الله، وعلى سخريته بالله ورسله وآياته

وبالمؤمنين، وبالوعيد والعذاب، وإقراره بذلك وندامته؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ

بَحَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لِمَنِ السَّخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

٣٨- التحذير من التفريط في جنب الله، ووجوب طاعته، والقيام بحقه.

٣٩- تحريم السخرية بالله وآياته ورسله والمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [التوبة: ٦٥-٦٦].

٤٠- احتجاج المفرط في جنب الله بقضاء الله وقدره؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

٤١- فضيلة التقوى، وأنها سبب للنجاة من العذاب، والفوز بالثواب.

٤٢- تمنى المفرط في جنب الله عند رؤية العذاب الرجوع إلى الدنيا؛ ليكون من المحسنين؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾، وهيهات ذلك، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠١].

٤٣- تكذيب دعوى المفرط في جنب الله، وإبطال احتجاجه بقضاء الله وقدره، بإقامته عز وجل عليه الحجة بالآيات البينات؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تَكَءَايَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

٤٤- إقامة الله عز وجل الحجة على العباد إقامة تامة بإرسال الرسل وإنزال الآيات، وبيان الحجج والدلائل على الحق والإعذار من الخلق.

٤٥- أن التكذيب بالحق، والاستكبار عن الانقياد له، وعلى الخلق كفر، فيجب الحذر من ذلك.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَسَيَجْئِ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَارِجِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَغْيَبَ اللَّهُ تَأْمُرُوْنَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَتَّى قَدَرِهِمُ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِقُدْرَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَسَيَجْئِ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَارِجِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ۞

قوله: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ۞ ﴾، أي: يوم قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وقيام الأَشْهاد، وقيام الحساب، وقيام العدل الحقيقي، كما قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

﴿ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۞ ﴾ الخطاب لكل راء ومشاهد هؤلاء المكذبين، أي: تشاهد الذين كذبوا على الله، وافتروا عليه بنسبة الشريك والصاحبة والولد والجور والظلم، والقول على الله بلا علم، والابتداع في الدين، وغير ذلك.

﴿ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۞ ﴾ الجملة في محل نصب على الحال، أي: حال كون وجوههم مسودة - يعرفهم بذلك أهل الموقف - من شدة الخوف والذل والفضيحة والخزي.

كما قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌُ وَسَوْدٌ وُجُوهٌُ فَأَمَّا الَّذِينَ أَسْوَدَتْ وُجُوهُهُمُ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ زَهَقَهَا قَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكُفْرَةُ الْفَجْرَةُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [عبس: ٤٠-٤٢].

﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۞ ﴾ الاستفهام: للتقرير، أي: أليس في جهنم مأوى ومصيراً للمتكبرين عن اتباع الحق، وعلى الخلق؟ والجواب: بلى فيها مثوى

وسجناً ومصيراً لهم وبئس المصير، فيه الخزي لهم والهوان، والعذاب الأليم، بسبب تكبرهم وتجبرهم.

﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١).

لما ذكر الله سبحانه وتعالى عقاب الذين كذبوا على الله تعالى، بين ثواب الذين اتقوا الله عز وجل، جمعاً بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليسير العبد في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء.

قوله: ﴿وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ﴾ معطوف على «تري» أي: ويوم القيامة ينجي الله.

﴿الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾، أي: الذين اتقوا الله عز وجل واتقوا عذابه.

﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وأبو بكر بالألف على الجمع: ﴿بِمَفَازَاتِهِمْ﴾. وقرأ الباقون بالإفراد ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾، أي: بفوزهم وظفرهم بالمطلوب، أي: بالجنة وبياض الوجوه، وغير ذلك، ونجاتهم من المرهوب، من سواد الوجوه، ومن نار جهنم، وغير ذلك، ولهذا قال:

﴿لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ﴾، أي: لا يصيبهم السوء، أي: ما يسوءهم في المستقبل.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فلا يحزنهم الفزع الأكبر، ولا يحزنون على ما مضى؛ لأنهم لم يفرطوا فيه ولأن الله أعطاهم كل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (٣٤) الَّذِي أَلْهَنَّا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (١٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايُنِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ بَلِ اللَّهُ قَائِمٌ وَكُنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾.

قوله: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، أي: خالق الأشياء كلها وربها ومليكيها والمتصرف فيها، فهو وحده الخالق بذاته وصفاته، وما سواه كله مخلوق.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾، أي: حفيظ ورقيب ومطلع ومدبر؛ لإحاطة علمه بكل

شيء وكمال قدرته على كل شيء، وبلوغ حكمته.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: له وحده ﴿مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

أي: مفاتيح علمها وخزائنها، وتديرها، وأزمة الأمور كلها بيده له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَةِ اللَّهِ﴾ الشرعية والكونية وحججه وبراهينه.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الجملة مؤكدة بكونها اسمية، معرفة الطرفين، وبضمير الفصل «هم»، الذي يفيد التوكيد والحصر، أي: هم الخاسرون حقاً، لا غيرهم، الذين بلغوا غاية الخسران.

﴿قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر بتخفيف النون: ﴿تَأْمُرُونَ﴾.

وقرأ ابن عامر بنونين خفيفتين، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة: ﴿تَأْمُرُونِي﴾.

وقرأ الباقون بنون واحدة مشددة مكسورة: ﴿تَأْمُرُونِي﴾.

والاستفهام: للإنكار، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يدعونك إلى عبادة

آلهتهم: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ﴾، أي: أتأمروني أعبد غير الله.

﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾، أي: يا أيها الجاهلون بعظمة الله تعالى وما يجب له، وما له من

الكمال، والجلال، واستحقاقه وحده العبادة دون سواه.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن المشركين بجهلهم دعوا رسول الله ﷺ إلى

عبادة آلهتهم، ويعبدون معه آلهته، فنزلت: ﴿اللَّهُ قُلْ أَفَعَيَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَعْبُدُ أَيُّهَا

الْجَاهِلُونَ﴾ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ

الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٦٥﴾» (١).

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ من الأنبياء والرسل.

﴿لَئِنْ أَشْرَكَتَ﴾ اللام: موطئة للقسم، أي: والله لئن أشركت.

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ١٠٢.

وحاشاه ﷺ من الشرك، والشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه، كما سبق بيان ذلك في الكلام على قوله تعالى في سورة يونس: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٩٤].

﴿لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: ليطلن جميع عملك، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الجملة معطوفة على جملة جواب القسم: ﴿لِيَحْبِطَنَّ﴾، أي: ولتكون من الخاسرين غاية الخسران. وحاشاه ﷺ من الشرك.

﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: اعبد الله تعالى وحده، وأخلص له وحده، لا شريك له، أنت ومن اتبعك.

﴿وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الله بقلبك ولسانك وجوارحك؛ لما أنعم به عليك من النبوة والرسالة، وذلك بعبادة الله تعالى وحده وطاعته، وهكذا كان ﷺ يقوم حتى تفتطرت قدماه، فقيل له لم تفعل ذلك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(١٧).

قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي: وما قدر المشركون الله حق قدره، أي: وما عظموه حق تعظيمه حين عبدوا معه غيره، وأمروا النبي ﷺ أن يعبد غير الله، وسواوا به هذه المخلوقات الناقصة من جميع الوجوه، وهو سبحانه الرب الخالق العظيم، خالق الأشياء كلها، ومالكها ومدبرها، كما يعترفون بذلك يوم القيامة بقولهم لمعبوداتهم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(١٧) إِذْ سُئِلْتُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ^(١٨) [الشعراء: ٩٧، ٩٨].

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٩، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٤، والترمذي في الصلاة ٤١٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٤١٩ - من حديث المغيرة رضي الله عنه.

عن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره»^(١).

﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ القبضة: ما يقبض باليد. قال الشاعر:
ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خاتته فروج الأصابع^(٢)

أي: والأرضين جميعاً قبضته يوم القيامة، أي: يقبضها جميعاً بيده يوم القيامة.
﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ﴾، أي: ملفوفات بعضها على بعض، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

﴿بِيمِينِهِ﴾، أي: بيده اليمنى، وكلتا يديه يمين، كما جاء في الحديث^(٣).
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقبض الله الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض»^(٤).

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟»^(٥).

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله عز وجل يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع،

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٢٤٥.

(٢) البيت لأبي نواس. انظر: «العقد الفريد» ٣ / ٤٧، «التمثيل والمحاضرة» ص ٢٥٧، «نهاية الأرب» ١ / ٢٨٠، «مجاني الأدب» ٤ / ١٠٤.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٧٩ - من حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٣٨٢، ومسلم في صفة القيامة ٢٧٨٧، وابن ماجه في المقدمة ١٩٢.

(٥) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٨.

فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ، حتى بدت نواجذه، تصديقاً لقول الخبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ. وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية^(١).

﴿سُبْحٰنَهُ﴾، أي: تنزهه وتقدس، ﴿وَتَعٰلَى﴾: وتعاضم.

﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ «ما»: موصولة، أي: عن الذي يشركون به من الأصنام والأنداد، وعن كل عيب ونقص.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات يوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ﴾ الآية.

٢- اسوداد وجوه الذين كذبوا على الله، علامة لهم يعرفهم بها أهل الموقف خزيًا لهم وتعذيبًا معنويًا؛ لأن الوجه أشرف أعضاء الجسم الظاهرة، وذلك من شدة ما هم فيه من الخوف والذل والفضيحة؛ لقوله تعالى: ﴿تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَةٌ﴾.

٣- التحذير من الكذب على الله والقول عليه بلا علم، وشدة تحريم ذلك، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطٰنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

٤- أن اسوداد الوجه أوضح علامة على شدة ما يعانیه الإنسان من ألم حسي ومعنوي؛ لأن الوجه تبدو على ملامحه وقسماته آثار المعاناة أكثر من غيره، كما تبدو عليه آثار الفرح والسرور.

٥- تقرير وإثبات أن في جهنم مثوى ومصيرًا للمتكبرين عن الانقياد للحق، وعلى الخلق، الكاذبين على الله، وتوعدهم بها، وأنها لهم بالمرصاد؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوٰى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥١٣ ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٦، وأحمد ١ / ٤٢٩ وانظر ١ / ٣٧٨.

- ٦- خطر الكبر ووجوب الحذر منه؛ لأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق، ومفض بصاحبه إلى جهنم.
- ٧- وعد الله تعالى للمتقين بإنجائهم بفوزهم بالمطلوب والنجاة من المهروب، بالفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُجِىَ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾.
- ٨- صرف السوء عنهم، فلا يخافونه في المستقبل، وسلامتهم من الحزن، فلا يحزنون على شيء مضى؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.
- ٩- فضيلة التقوى، والترغيب بها، لما رتب الله عليها من النجاة والفوز، وصرف السوء، والسلامة من الحزن.
- ١٠- أن الله سبحانه خالق الأشياء كلها ومليكها ومدبرها، فهو سبحانه الخالق بذاته وصفاته، وما سواه كله مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾.
- ١١- الرد على القدرية القائلين بأن أفعال العباد ليست مخلوقة لله، وأنها مخلوقة لهم، وهذا باطل فهو سبحانه خالقها، الذي شاءها وخلقها، وهم الذين فعلوها وكسبوها حقيقة، ولو لم يشأها الله ويخلقها، لاستحال وقوعها منهم؛ لأنه لا شيء يقع إلا بمشيئة الله وخلقها.
- ١٢- الرد على الفلاسفة القائلين بقدوم العالم، وبقدم الأرواح، وهذا باطل؛ لأن الله خلق الأشياء كلها وأوجدها بعد العدم.
- ١٣- أن الله عز وجل على كل شيء وكيل، وحفيظ ورقيب؛ لإحاطة علمه بكل شيء، وقدرته على كل شيء، وتمام تدبيره وحكمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾.
- ١٤- اختصاصه عز وجل بمفاتيح علم السموات والأرض وخزائنها وتدبيرها، وبأزمة الأمور كلها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ١٥- تأكيد خسران الذين كفروا بآيات الله، الخسران المبين؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾.
- ١٦- وجوب الإيمان بآيات الله، وأن المؤمنين بها هم الرابحون الربح العظيم.
- ١٧- الإنكار على المشركين أمرهم له ﷻ بعبادة غير الله، جهلاً منهم بعظمة الله

وما يجب له من الكمال والجلال، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَعَبَّرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَِّيَ أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾.

١٨- أن عبادة الله تعالى وحده علم ورشد وهدى وعقل، وعبادة غيره جهل وسفه وضلال وغي.

١٩- أن الشرك محبط للعمل وسبب للخسران المين في الدنيا والآخرة، ولو وقع من أفضل الخلق، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام، وغيرهم من باب أولى، مما يوجب الحذر منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِن أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٥).

وحاشاه ﷺ وغيره من الأنبياء من الشرك، والشرط لا يدل على وقوع المشروط، بل ولا على إمكانه.

قال ابن تيمية: «الأنبياء معصومون عن الإقرار على الذنوب كبارها وصغارها، وقد أخبر الله عنهم بالتوبة والاستغفار، وهي من أفضل الكمالات» (١).

٢٠- إثبات الوحي للرسول ﷺ وإلى الذين من قبله من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

٢١- الرد الذين يغفلون في النبي ﷺ، ويرفعونه إلى مقام الربوبية والألوهية.

٢٢- وجوب إخلاص العبادة لله وحده وشكره وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (٦٦).

٢٣- ذم المشركين بالله، وأنهم ما عظموا الله حق تعظيمه حين أشركوا معه غيره من المخلوقات الضعيفة الناقصة وسووها بالله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وهذا يدل على وجوب تعظيمه عز وجل وعبادته وحده.

٢٤- عظمة الله تعالى، وكمال قدرته وقوته وسلطانه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بَقَضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾.

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٥/٥١-٥٣، وانظر: «زاد المعاد» ٣/١٧٠.

٢٥- إثبات اليمين لله عز وجل، وقبضه الأرض جميعًا بقبضته، وطيه السموات
بيمينه.

٢٦- تنزيه الله تعالى وتقديسه عن الشرك والشركاء؛ لقوله تعالى: ﴿سُبْحٰنَهُۥ وَتَعَالٰى
عَمَّا يُشْرِكُوْنَ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ بِتِلْكَ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَنُذُرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِمَا كَفَرْتُمْ كُفِرْتُمْ بِهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوا خَالِدِينَ ﴿٧٢﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ ۖ وَأَوْزَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوُّهُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٣﴾ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٤﴾ ۝

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ۝

قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾، أي: النفخة الأولى نفخة الفزع والصعق لموت من كان حياً من الخلق.

و«الصور»: قرن عظيم، ينفخ فيه إسرافيل عليه السلام بأمر الله تعالى له، وأبهم للتعظيم والتهويل؛ كما قال تعالى: ﴿فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨].

وعبر بالماضي في: «نفخ»، وأكثر الأفعال بعده إلى آخر السورة لتأكيد تحقق وقوع ذلك كما في قوله تعالى: ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

﴿فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: فمات كل الذي في السموات والأرض من الأحياء، من شدة النفخة والصعقة وعظمتها.

﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ «إلا»: أداة استثناء، و«من»: موصولة، أي: إلا الذي شاء الله ألا يصعق ولا يموت، كالذين في الجنة من الحور العين، والولدان، وغيرهم.

قيل: ومنهم الشهداء، وجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، وخزنة الجنة،

وخزنة النار.

قال ابن تيمية: «الذي عليه أكثر الناس أن جميع الخلق يموتون حتى الملائكة، وحتى ملك الموت... وأما الاستثناء فهو متناول لمن في الجنة من الحور العين، فإن الجنة ليس فيها موت، ومتناول لغيرهم، ولا يمكن الجزم بكل من استثناه الله، فإن الله أطلق في كتابه. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «إن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى آخذًا بساق العرش، فلا أدري هل أفاق قبلي، أم كان ممن استثناه الله»^(١).

قال ابن تيمية: وبكل حال النبي ﷺ قد توقف في موسى، هل هو داخل في الاستثناء، فيمن استثناه الله أم لا؟ فإذا كان النبي ﷺ لم يجزم بكل من استثناه الله، لم يمكننا أن نجزم بذلك، وصار هذا مثل العلم بقرب الساعة، وأعيان الأنبياء»^(٢).

﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾، أي: ثم نفخ في الصور نفخة أخرى: نفخة البعث؛ ليحيا جميع الأموات، فالنفخة الأولى لموت من كان حيًا، والثانية ليحيا جميع الأموات.

كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾﴾ [النازعات: ٦-٧] «الراجفة»: النفخة الأولى، و«الرادفة»: النفخة الثانية.

﴿فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ﴾ «إذا»: هي الفجائية، أي: فإذا جميع الخلائق الموتى ﴿قِيَامٌ﴾، أي: قد قاموا من قبورهم، بين يدي الله تعالى.

﴿يَنْظُرُونَ﴾: أي: ينتظرون ماذا يفعل بهم، وينظرون إلى أهوال القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣-١٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾ [الإسراء: ٥٢].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يخرج الدجال في أمتي، فيمكث فيهم أربعين - لا أدري أربعين يومًا، أو أربعين عامًا، أو أربعين شهرًا، أو

(١) أخرجه البخاري في الخصومات ٢٤١١، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٣، وأبو داود في السنة ٤٦٧١، والترمذي في تفسير القرآن ٣٢٤٥ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) انظر «دقائق التفسير» ٣/ ٤ / ٥١٥، ٥١٦.

أربعين ليلة.

فبعث الله عيسى بن مريم، كأنه عروة بن مسعود الثقفي، فيظهر، فيهلكه الله، ثم يلبث الناس سنين سبعاً ليس بين اثنين عداوة، ثم يرسل الله ريحاً باردة من قبل الشام، فلا يبقى أحد في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، حتى لو أن أحدهم كان في كبد جبل لدخلت عليه، قال سمعتها من رسول الله ﷺ، وتبقى شرار الناس في خفة الطير، وأحلام السباع، لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً، قال: فيتمثل لهم الشيطان، فيقول: ألا تستجيبون؟ فيأمرهم بالأوثان فيعبدونها، وهم في ذلك دارة أرزاقهم حسن عيشهم، ثم ينفخ في الصور، فلا يسمعه أحد إلا أصغى له، وأول من يسمعه رجل يلوط حوضه، فصعق، ثم لا يبقى أحد إلا صعق، ثم يرسل الله أو ينزل الله مطراً كأنه الطل، فتنبت منه أجساد الناس، ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ بِيَأْمٍ يَنْظُرُونَ﴾.

ثم يقال: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم: ﴿وَقَفَّوهُمْ أَتَمَّ مَسْئُولُونَ﴾ [الصفات: ٢٤] قال: ثم يقال: أخرجوا بعث النار. قال: فيقال: كم؟ فيقال: من كل ألف تسع مئة وتسعة وتسعين، فيومئذ تبعث الولدان شبيهاً، ويومئذ يكشف عن ساق^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بين النفختين أربعون». قالوا يا أبا هريرة، أربعون يوماً؟ قال: آبيت. قالوا: أربعون سنة؟ قال آبيت. قالوا: أربعون شهراً؟ قال: آبيت. ويبيلى كل شيء من الإنسان إلا عجب ذنبه، فيه يركب الخلق^(٢).

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، أي: أضاءت الأرض بنور ربها إذ تجلى الحق تبارك وتعالى للخلائق، لفصل القضاء بينهم.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾، أي: أحضر ونشر كتاب الأعمال لكل فرد؛ ليقرأ ما فيه من الحسنات والسيئات، كما قال: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ [١٣] ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا

(١) أخرجه مسلم في الفتن - باب خروج الدجال، ٢٩٤٠، وأحمد ١٦٦ / ٢.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة الزمر ٤٨١٤، ومسلم في الفتن ٢٩٥٥.

وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّرُبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ [الكهف: ٤٩].

فأخذ كتابه بيمينه نسأل الله التوفيق، وأخذ كتابه بشماله من وراء ظهره - نسأل الله العافية، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَنَقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصَلِّي سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ٧-١٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿١١﴾ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ أَقْرَبُ وَأَكْنِيَّةٌ ﴿١٢﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلْكٌ حِسَابِيَّةٌ ﴿١٣﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿١٤﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٥﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿١٦﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿١٧﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ ﴿١٨﴾ فَيَقُولُ بَلِّغْتَنِي لِمَ أُوتِيَ كِتَابِي ﴿١٩﴾ وَلِمَ أُدْرِمَ مَا حِسَابِيَّةٌ ﴿٢٠﴾ يَلْتَمِسُهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ ﴿٢١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي ﴿٢٢﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَّةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [الحاقة: ١٩-٢٩].

﴿وَجَاءَءَ بِالْبَلَّتَيْنِ﴾ جميعًا من أرسل منهم ومن لم يرسل؛ لحضور القضاء بين الخلائق، وليشهد الذين أرسلوا منهم على أمهم بإبلاغهم إياهم رسالات الله، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

ويشهدوا عليهم بأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١].

﴿وَالشَّهَدَاءُ﴾ الذين يشهدون على أعمال العباد من الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين، وأعضاء الإنسان، وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ [ق: ٢١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النور: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

ومن شهادة هذه الأمة للرسول بالبلاغ، وعلى الأمم قبلهم بقيام الحجة عليهم كما قال تعالى: ﴿لَنَكُونُوا شَهِدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿وَفُضِّلَ بَيْنَهُمْ﴾، أي: حُكِمَ وفُصِّلَ بين الخلائق ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالعدل التام، والقسطاس

المستقيم، فأخذ لكل منهم حقه من الآخر.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: الجملة حالية، أي: والحال أنهم لا يظلمون شيئاً، بنقص من حسناتهم أو زيادة على سيئاتهم، كما قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

حتى أنه في ذلك اليوم يقتضي للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، كما جاء في الحديث^(١)؛ إحقاقاً للحق والعدل.

﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ «ما» في الموضعين: موصولة، أو مصدرية، أي: وفيت وأعطيت كل نفس جزاء الذي عملته، أو جزاء عملها وكسبها، خيراً كان أو شراً. كما قال تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [السجدة: ١٧، الأحقاف: ١٤، الواقعة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [التوبة: ٨٢].

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ دون أن يقول: جزاء ما عملت؛ للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل.

﴿وَهُوَ﴾ عز وجل ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، أي: أعلم بفعلهم، أو بالذي يفعلونه، ففضاؤه عز وجل بين الخلائق وتوفيته إياهم جزاء أعمالهم عن علم تام بهم وبأعمالهم، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرّاً حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سوفاً عنيفاً بزجر وضرب، وتهديد ووعيد.

(١) أخرجه مسلم في البر - تحريم الظلم ٢٥٨٢ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾، أي: إلى نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ [طور: ١٣] أي: يدفعون إليها دفعًا بشدة، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةَ يَصْرِيحُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾﴾ [الأنفال: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وُرْدًا ﴿٨١﴾﴾ [مریم: ٨٦].

﴿زُمَرًا﴾، أي: أفواجًا وجماعات، جماعات، كل جماعة يشاكل ويناسب بعضها بعضًا في العمل، والعذاب، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا آذَرَكُمَا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَيْنَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الآية: ٣٨].

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم في الموضعين: ﴿فتحت﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الباقرن بتشديدها: «فتحت».

و«فتحت»: جواب الشرط «إذا»، ﴿أَبْوَابَهَا﴾، أي: أبوابها السبعة، كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ [الحجر: ٤٤].

أي: فتحت أبوابها فجأة بوجوههم، لحظة وصولهم إليها؛ تهويلًا ورعبًا، وتعجيلًا لعذابهم.

قال ابن القيم: «السر في حذف الواو في قوله تعالى: ﴿وَسَيَقُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابَهَا﴾ [الزمر: ٧١] ففاجأهم وبغتهم عذابها، وما أعد الله فيها....».

وقال أيضًا: «تفتيح أبواب النار كان حال موافاة أهلها، ففتحت في وجوههم؛ لأنه أبلغ في مفاجأة المكروه»^(١).

﴿وَقَالَ لَهُمْ حَرَئِنهَا﴾ «خزنة»: جمع «خازن»، وهم الملائكة الموكلون بها، وبتعذيب أهلها، غلاظ القلوب والطباع، شداد الأجسام، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٧٣، ٧٤ - ٧٥.

شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿التحریم: ٦﴾.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ والتقرير، أي: ألم يأتكم رسل كثيرون ﴿مِنْكُمْ﴾، أي: من جنسكم، تعرفونهم، وتعرفون صدقهم، وبلغتكم تتمكنون من الأخذ عنهم، والفهم منهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِتُبَيِّنَ﴾ [إبراهيم: ٤]، وكما قال تعالى ممتناً على العرب وعلى هذه الأمة: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم﴾، أي: يقرءون عليكم آيات ربكم التي أرسلهم الله بها إليكم، المشتملة على الدلائل والبراهين والحجج الدالة على الحق. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ﴾، أي: ويخوفونكم ﴿لِقَاءِ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾، أي: لقاء هذا اليوم العظيم يوم القيامة، وما فيه من الأهوال.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال الذين كفروا: ﴿بَلَى﴾، «بلى»: حرف جواب، لإيجاب السؤال المنفي، أي: بلى، قد جاءتنا رسل كثيرون تلوا علينا آيات ربنا وأنذرونا وحذرونا، وأقاموا علينا الحجج والبراهين.

﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: ولكن لم نستجب لهم وكذبناهم؛ لأن الكفر وكلمة العذاب وجبت وثبتت علينا، كما قال تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ فِيهَا فَوْجٌ سَاءَ لَهُمْ حَزَنُهَا أَلَّا يَأْتُوا بِذُرِّيٍّ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْشَأْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك: ٨-١٠].

أي: رجعوا على أنفسهم بالملامة والندامة فاعترفوا بذنبهم، واستحقاقهم العذاب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٦﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

قال ابن القيم: «وكلمته سبحانه إنها حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم، فحقت عليهم كلمة حجته، وكلمة عدله بعقوبته» (١).

﴿ قِيلَ ﴾ لم يعين القائل، كأن الكون كله نطق بذلك وقاله لهم^(١)، شهادة عليهم باستحقاقهم العذاب، وتقريعاً وتوبيخاً لهم: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الأمر: للإهانة والإذلال.

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾، أي: ماكثين مقيمين في جهنم إقامة أبدية، كما دل على ذلك القرآن في أكثر موضع، وهو الصحيح من أقوال أهل العلم.

﴿ فَيَسَسَ مَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾، أي: فبئس وقبح مأوى ومصير المتكبرين عن اتباع الحق والانقياد له، والمتكبرين على الخلق، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: هي، أي: جهنم.

قوله تعالى: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ رَبِّكُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ. وَأَوْزِنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٤﴾.

قوله: ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيها، سوق إكرام وإعزاز وإجلال وفوداً إلى الرحمن على النجائب، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا﴾ (٨٥) [مريم: ٨٥].

﴿ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾، أي: جماعات جماعات، كل طائفة مع من يناسبهم، حسب أعمالهم وثوابهم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على ضوء أشد كوكب دري في السماء إضاءة» الحديث^(٢).

وعنه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الجنة من أمتي زمرة هم سبعون

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤ / ٧٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ٣٢٥٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧.

ألفاً، تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر». فقام عكاشة بن محصن، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، فقال: «اللهم اجعله منهم». ثم قام رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم. فقال ﷺ: «سبقك بها عكاشة»^(١).
وعن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «ليدخلن الجنة من أمتي سبعون ألفاً، أو سبعمائة ألف، أخذ بعضهم ببعض، حتى يدخل أولهم آخرهم الجنة، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر»^(٢).

﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا﴾ الواو: عاطفة، وحذف جواب الشرط «إذا» تفخيلاً لشأنه وتعظيماً لقدره؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب، أي: حتى إذا جاءوها، نُقُوا وهُدُّبُوا، وُشِّعَ فِيهِمْ ﷺ؛ لدخول الجنة، وفرحوا واستبشروا بما هم مقبلون عليه من النعيم، ونحو ذلك.

﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، أي: وفتحت أبوابها بشفاعته ﷺ، كما دلت على ذلك السنة. فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا أول شفيع في الجنة»، وفي رواية: «وأنا أول من يقرع أبواب الجنة».
وفي رواية: «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، قال: يقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك»^(٣).

قال السعدي^(٤): «وأما الجنة فإنها الدار العالية الغالية، التي لا يوصل إليها، ولا ينالها كل أحد، إلا من أتى بالوسائل الموصلة إليها، ومع ذلك فيحتاجون لدخولها إلا الشفاعة عند أكرم الشفعاء عليه، فلم تفتح لهم بمجرد ما وصلوا إليها، بل يستشفعون إلى الله بمحمد ﷺ حتى يشفع فيشفعه الله تعالى».

(١) أخرجه البخاري في اللباس ٥٨١١، ومسلم في الإيمان - الدليل على دخول طوائف من المسلمين بغير حساب ٢١٦.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٤٣، ومسلم في الباب السابق ٢١٩.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ١٩٦، ١٩٧.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٤٩٩ / ٦.

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين^(١): «ثم إنهم أيضًا إذا وصلوا الجنة لا يجدون أبوابها مفتوحة، بل يجدونها مغلقة، حتى يشفع النبي ﷺ، فيفتح الله تعالى أبوابها، هذا هو القول الراجح المتعين لدلالة السنة عليه»
 وذكر بعض أهل العلم أن الواو العاطفة أتت بها للدلالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها؛ ولهذا يسميها بعضهم: «واو الكرامة».

قال ابن القيم - بعد أن ذكر السر في حذف الواو من الموضع الأول: «وهذا بخلاف أهل الجنة، فإنهم لما كانوا مساقين إلى دار الكرامة، وكان من تمام إكرام المدعو الزائر أن يفتح له باب الدار، فيجيء فيلقاه مفتوحًا، فلا يلحقه ألم الانتظار، فقال في أهل الجنة: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وحذف الجواب تفخيماً لأمره، وتعظيماً لشأنه».

وقال أيضًا: «وأما الجنة فلما كانت ذات الكرامة وهي مأدبة الله، وكان الكريم إذا دعا أضيافه إلى داره شرع لهم أبوابها، ثم استدعاهم إليها مفتحة الأبواب، أتت بالواو العاطفة هنا، الدالة على أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها، وحذف الجواب تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لقدره»^(٢).

وعلى هذا القول، وهو أنهم جاءوها بعدما فتحت أبوابها يكون افتتاحه ﷺ سبق مجيئهم؛ لأن شفاعته ﷺ للمؤمنين لدخول الجنة، وفتح أبوابها لهم ثابتة وفي عقيدة أهل السنة.

وأبواب الجنة ثمانية، كما دلت على ذلك السنة، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «في الجنة ثمانية أبواب، فيها باب يسمى الريان، لا يدخله إلا الصائمون»^(٣).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يتوضأ، فيسبغ الوضوء، ثم يقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله إلا

(١) «تفسير سورة الزمر» للشيخ محمد العثيمين في شرحه على الجلالين ص ٤٩٨، ٥٠١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤ / ٧٣، ٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥٧.

فتحت له أبواب الجنة الثانية يدخل من أيها شاء»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من أنفق زوجين من مال في سبيل الله دعي من أبواب الجنة فمن كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الصيام، ومن كان من أهل الجهاد دعي من باب الجهاد».

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما على أحد من ضرورة، دعي من أيها دعي، فهل يدعى منها كل أحد يا رسول الله؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم»^(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة، لكما بين مكة وهجر»، وفي رواية «مكة وبصرى»^(٣).

وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه أنه خطب، فقال: «ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليه يوم، وهو كظيظ من الزحام»^(٤).

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾، أي: وقال لهم خزنتها، وهم الملائكة الموكلون بالجنة ونعيمها - تحية وتهنئة لهم وترحيباً بهم، وإخباراً لهم: ﴿سَلِّمُوا عَلَيْكُمْ﴾، أي: سلام عليكم دائم ومستمر، من كل آفة وشر ومكروه.

قال ابن القيم: «فبدؤهم بالسلام، المتضمن للسلامة من كل شر ومكروه، أي: سلمتم فلا يلحقكم بعد اليوم ما تكرهون»^(٥).

(١) أخرجه مسلم في الطهارة - الذكر المستحب عقب الوضوء ٢٣٤، والنسائي في الطهارة ١٤٨، والترمذي في الطهارة ٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم - باب الريان للصائمين ١٨٩٧، ومسلم في الزكاة - من جمع الصدقة وأعمال البر ١٠٢٧، والنسائي في الزكاة ٢٤٣٩، والترمذي في المناقب ٣٦٧٤.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة الإسراء ٤٧١٢، ومسلم في الإيمان - أدنى أهل الجنة منزلة ١٩٤، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٣٤.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرفائق ٢٩٦٧.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٧٧ / ٤.

﴿ طَبَّتُمْ ﴾، أي: طابت قلوبكم وأعمالكم وأقوالكم وسعيكم بطاعة الله تعالى، وطهرت من دنس المعاصي نفوسكم، فطاب جزاؤكم، وطابت حالكم.

﴿ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾، الأمر: للإكرام، أي: ادخلوا الجنة حال كونكم خالدين فيها، أي: ما كثرين مقيمين فيها أبداً، كما قال تعالى: ﴿ وَجَنَّتْ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٢١]. ولا خلاف في أبدية خلود أهل الجنة فيها، كما دل على ذلك القرآن في مواضع كثيرة جداً.

﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾، أي: الحمد لله تعالى وحده استحقاقاً واختصاصاً.

﴿ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ ﴾، أي: حقق وأنجز لنا وعده على السنة رسله، ووفى لنا ما وعدنا، وحقق لنا ما سألناه، كما في قولهم: ﴿ رَبَّنَا وَعَانِئْنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

وهذا كقولهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقولهم: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الذرى: ٣٤] أَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿ وَأَوْزَنَّا الْأَرْضَ ﴾، أي: أنزلنا وأسكننا أرض الجنة، كما أورثهم أرض الدنيا فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

﴿ نَتَّبِعُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ ﴾، أي: ننزل ونسكن منها حيث نشاء، وكل أحد من أهل الجنة لا يشاء سوى الذي هو فيه، ولا يرى أن أحداً أفضل منه منزلاً ونعيماً. عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أدخلت الجنة فإذا فيها جنابذ^(١) اللؤلؤ، وإذا تراها المسك»^(٢).

(١) الجنابذ: جمع «جنبذة»، وهي: القبة.

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٢، والترمذي ٢١٣.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن ابن صائد سأل رسول الله ﷺ عن تربة الجنة، فقال: «درمكة بيضاء، مسك خالص»^(١).

﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَمَلِينَ﴾ يحتمل أن يكون هذا كلامًا مبدئيًا من الله تعالى، فيه حث على العمل، أي: اعملوا مثل هذا العمل، لتؤجروا مثل هذا الأجر. ويحتمل أن يكون من بقية كلام أهل الجنة، زيادة ثناء على الله تعالى، أي: فنعم الأجر أجزنا على عملنا.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٧٥).

قوله: ﴿وَتَرَى﴾، أي: ترى وتشاهد أيها المخاطب في ذلك اليوم العظيم. ﴿الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ﴾، أي: محديقين من حول العرش الذي هو أكبر المخلوقات محيطين به.

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: الجملة حالية، والباء: للملابسة، أي: حال كونهم يسبحون متلبسين بحمد ربهم، أي: ينزهونه عن النقائص والعيوب مع وصفه بصفات الكمال، وتمجيده وتعظيمه وتقديسه عن النقص والجور، قارنين بين تسبيحه عز وجل وحمده: سبحانك ربنا وبحمدك، كما جاء في دعاء ختم المجلس «سبحانك اللهم وبحمدك»^(٢).

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾ تأكيد لقوله: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٦٩) الزمر: ٦٩ أي: فصل وحكم بين الخلائق، ﴿وَالْحَقِّ﴾ بالعدل، الذي لا اشتباه فيه، ولا إنكار من عليه الحق، فأدخل المؤمنون الجنة، وأدخل الكافرون النار. ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ «ال» في الحمد للاستغراق، واللام في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾: للاختصاص والاستحقاق.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: خالقهم ومالكهم ومدبرهم، و«العالمين»: كل ما سوى الله.

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراف الساعة ٢٩٢٨.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣٣- وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

ولم يسند القول إلى قائل؛ ليدل على أن جميع الخلق نطقوا بحمد ربهم، وحكمته، على ما قضى به على أهل الجنة وأهل النار.

قال ابن القيم: «فحذف فاعل القول؛ لأنه غير معين، بل كل أحد يحمده على ذلك الحكم، الذي حكم فيه، فيحمده أهل السموات وأهل الأرض، والأبرار والفجار، والإنس والجن، حتى أهل النار».

وقال: فأخبر عن حمد الكون أجمعه له عقيب قضائه بالحق بين الخلائق، وإدخال هؤلاء إلى جنته، وهؤلاء إلى ناره، وحذف فاعل الحمد، إرادة لعمومه وإطلاقه، حتى لا يسمع إلا حامد، من أوليائه وأعدائه.

كما قال الحسن البصري: «لقد دخلوا النار، وإن حمده لفي قلوبهم ما وجدوا عليه ولا سبيلاً»^(١).

قال قتادة: «فتح أول الخلق بـ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١] وختم بالحمد فقال: ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢).

الفوائد والأحكام:

١- إثبات النفخ في الصور النفخة الأولى لصعق وموت كل حي من الخلق إلا من استثنى الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾.

٢- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية.

٣- إثبات النفخة الثانية في الصور لحياة جميع الأموات، وخروجهم من قبورهم، وقيامهم بين يدي الله ينتظرون ماذا سيفعل بهم وينظرون إلى أهوال القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾.

٤- إشراق الأرض وإضاءتها بنور ربها عندما يتجلى لفصل القضاء بين العباد؛

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤ / ٧٧، ٧٨.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٢٧٣.

لقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾.

٥- إثبات صفة النور لله تعالى فهو عز وجل نور السموات والأرض بذاته وصفاته، وقد ذهب بعض أهل العلم، كابن تيمية وابن القيم إلى أن «النور» من أسماء الله تعالى (١).

٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾، وقوله: ﴿ءَايَاتِ رَبِّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٧- إحضار كتب أعمال الخلائق، ونشر لكل فرد منهم كتاب أعماله؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ﴾.

٨- الإتيان بالنبين عليهم السلام في ذلك الموقف العظيم؛ ليشهدوا على أممهم، بأنهم بلغوهم رسالات ربهم، وليشهدوا على أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٩- الإتيان بالشهداء على أعمال العباد، من الملائكة الحفظة الكرام الكاتبين، والجوارح، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَالشَّهَدَاءَ﴾.

١٠- القضاء والفصل بين الخلائق بالحق والعدل، من غير ظلم لهم ولا جور؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

١١- كمال عدل الله - عز وجل - فلا يظلم أحد من خلقه مثقال ذرة.

١٢- موافاة كل نفس بجزاء عملها، خيراً كان أو شراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾.

١٣- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، فأخبر بتوفيتها عملها مع أن المراد توفيتها جزاء عملها للدلالة على ما ذكر.

١٤- تمام علم الله عز وجل بأفعال العباد وأقوالهم الظاهرة والباطنة؛ ولهذا حكم بينهم بالحق والعدل، ووفى كلّا منهم جزاء عمله؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

(١) انظر: «تفسير سورة النور» لابن تيمية ص ١٦٦، وراجع «بدائع التفسير» ٣/ ٢٥٦، انظر «تفسير الآية:

﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

- ١٥- وجوب مراقبة الله تعالى والحذر من العمل بما لا يرضيه.
- ١٦- إهانة الكفار وسوقهم بعنف وشدة إلى جهنم جماعات جماعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾.
- ١٧- مفاجأتهم بفتح أبواب جهنم في وجوههم لحظة وصولهم إليهم لمفاجأتهم بالعذاب وتعجيله لهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا﴾.
- ١٨- تعدد أبواب جهنم؛ لقوله تعالى: ﴿أَبْوَابُهَا﴾، وهي سبعة كما قال تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤].
- ١٩- تقريع خزنة جهنم وتوبيخهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾.
- وهذا عذاب معنوي ينصب على قلوبهم، لا يقل عن العذاب الحسي المنصب على أبدانهم.
- ٢٠- إثبات خزنة النار، وهم الملائكة الموكلون عليها وعلى تعذيب أهلها.
- ٢١- قيام الحججة على المكذبين والكفار وعلى جميع الخلق بإتيان الرسل منهم إليهم، وتلاوتهم عليهم آيات ربهم، وإنذارهم لقاء يوم القيامة، وإقرارهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾.
- ٢٢- إثبات الرسالات والنبوات، وأن الله أرسل الرسل في جميع الأمم وأنزل عليهم الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣].
- ٢٣- إثبات قدر الله السابق، وإقرار الكفار بذلك؛ لقولهم: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، أي: حق علينا الكفر والشقاء والعذاب بالقدر السابق.
- ٢٤- إهانتهم بأمرهم بدخول أبواب جهنم، وتخليدهم فيها، وتقريعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.
- ٢٥- أن النار لا تفتنى، ولا يفنى أهلها، بل هي خالدة، وهم مخلدون فيها أبداً.

- ٢٦- أن جهنم بئس المثوى والمصير للمتكبرين عن اتباع الحق والانقياد له، المتكبرين على الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿فَيْسَسْ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾. وهذا تهديد شديد ووعد أكيد للمتكبرين، يوجب الحذر من الكبر.
- ٢٧- جمع القرآن بين الوعد والوعيد والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ الآيات، فبعد أن ذكر مآل الكافرين وحالهم ذكر مآل المتقين وحالهم.
- ٢٨- سوق المتقين لربهم سوق إعزاز وإكرام إلى الجنة جماعات جماعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَيَقُ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾.
- ٢٩- فضيلة التقوى، وأنها سبب لدخول الجنة والكرامة.
- ٣٠- فتح أبواب الجنة لهم إذا جاءوها؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وذلك بشفاعته ﷺ لهم.
- ٣١- تعدد أبواب الجنة، وهي ثمانية كما دلت السنة على ذلك.
- ٣٢- إثبات خزنة الجنة وهم الملائكة الموكلون بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خُزَنُهَا سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ﴾.
- ٣٣- سلام خزنة الجنة على أهلها، وإخبارهم لهم بالسلامة في دار السلام، وترحيبهم بهم وتهنئتهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خُزَنُهَا سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ طِبْتُمْ﴾.
- ٣٤- ثناء خزنة الجنة على أهلها بطيبهم وطيب سعيهم وأعمالهم، وطيب مقامهم، وطيب ما أعد لهم، والإذن لهم بدخول الجنة على وجه الإكرام، والبشارة لهم بالخلود فيها، فجمع الله لهم بين نفي الآفات، وطيب الأحوال والأوقات.
- ٣٥- أن الجنة لا تفتنى ولا يفنى أهلها، وهذا بالإجماع.
- ٣٦- شتان بين ما يقابل به أهل الجنة وأهل النار، فأهل النار يقابلون بالتقريع والتوبيخ ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآيات، وأهل الجنة يقابلون بالسلام والتكريم ﴿سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ طِبْتُمْ فَأَدْخَلُوهَا خَالِدِينَ﴾ نسأل الله من فضله.
- ٣٧- ثناء أهل الجنة على الله عز وجل بالكمال والإفضال بتحقيقه ما وعدهم به،

وتورثهم أرض الجنة ونعيمها، يتبوءون منها حيث شاءوا، ويتناولون من نعيمها أي نعيم أرادوا؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَبَوْا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

٣٨- صدق الله تعالى وعده لأهل الجنة؛ لأنه لا أحد أصدق بوعده ولا أوفى بعده من الله؛ لقولهم: ﴿الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾.

٣٩- إثبات المشيئة للعباد والاختيار؛ لقولهم: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾.

٤٠- امتداح ما أعد للمتقين العاملين من عظيم الأجر والثواب، وطيب المقام والنعيم؛ لقوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾.

٤١- منة الله تعالى على أهل الجنة بتسمية ثوابهم أجراً، وإيجابه ذلك على نفسه - كرمًا منه وفضلاً.

٤٢- إحاطة الملائكة وإحداقهم بالعرش، وتسييحهم بحمد الله، وتعظيمهم وتقديسهم وتنزيهم له؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

٤٣- إثبات وجود الملائكة، وتسييحهم بحمد الله تعالى وتعظيمهم وعبادتهم له وقيامهم بها وكل إليهم من أعمال.

٤٤- إثبات العرش، الذي هو أكبر المخلوقات.

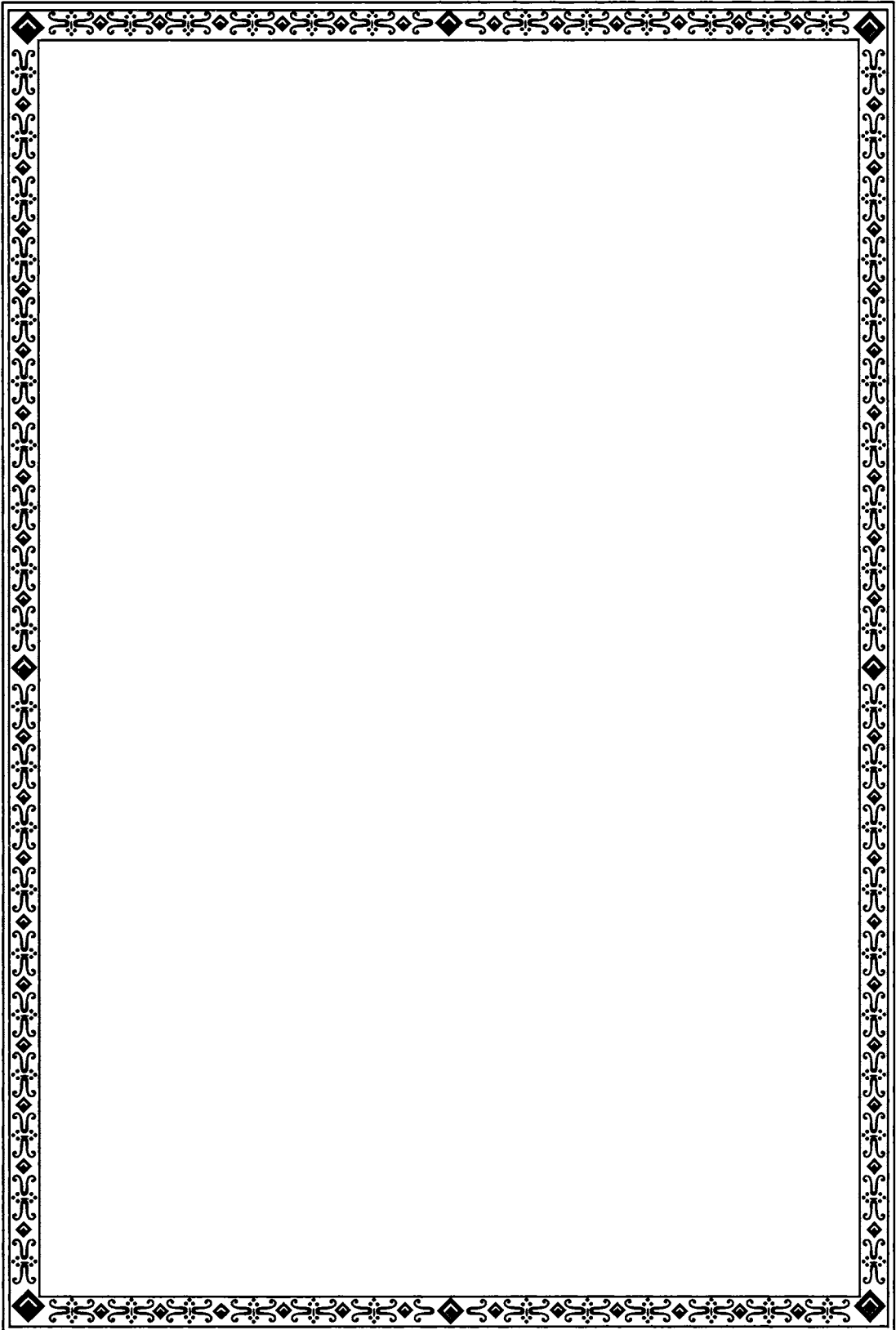
٤٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للملائكة.

٤٦- تأكيد قضائه - عز وجل - بين الخلائق بالحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ﴾.

٤٧- حمد الله تعالى لنفسه، وحمد الخلائق كلهم له عز وجل على حكمته وقضائه بينهم بالحق، وتوفيته كل منهم جزاء عملهم، وإخال الكفار النار، وإدخال المتقين الجنة دار القرار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٤٨- اختصاص الله تعالى واستحقاقه لكمال الحمد.

تَفْسِيرُ سُورَةِ غَافِرٍ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة غافر»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ [الآية: ٣].
وتسمى: «سورة المؤمن»؛ لاشتغالها على قصة مؤمن آل فرعون في قوله تعالى:
﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر:
٢٨] والآيات بعدها. ويقال: «حم المؤمن».

كما تسمى: «سورة الطول»؛ لقوله تعالى: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ [الآية: ٣].

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج- فضلها:

عن المهلب بن أبي صفرة قال: حدثني من سمع النبي ﷺ يقول: «إن يئتم فليكن شعاركم: «حم»، لا ينصرون»^(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ «حم المؤمن» إلى (إليه المصير)، وآية الكرسي حين يصبح حفظ بها حتى يمسي، ومن قرأ بها حين يمسي حفظ بها حتى يصبح»^(٢).

د- موضوعاتها:

١- افتتح الله عز وجل: «سورة غافر» بتعظيم كتابه، وبيان إعجازه، وإثبات تنزيله من عنده عز وجل، والثناء على نفسه، وإثبات وحدانيته: ﴿حَمَّ ① تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ② غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ③﴾.

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد- الرجل ينادي في الشعار ٢٥٩٧، والترمذي في الجهاد- ما جاء في الشعار ١٦٨٢. وقال ابن كثير في «تفسيره» ١١٧/٧: «وهذا إسناد صحيح». وأخرجه أحمد ٤/٦٥، ٥/٣٧٧.

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٧٨٩- وقال: «حديث غريب»، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ١١٦/٧-١١٧ من رواية أبي بكر البزار.

٢- تسلية النبي ﷺ، وتقوية قلبه، وذم الذين كفروا، وتهديدهم ووعيدهم: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِيمُهُمْ فِي الْبَلَدِ ۖ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۗ﴾ (٥) وكذلك حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾.

٣- إثبات حملة العرش من الملائكة، وتسييحهم بحمد ربهم، وإيمانهم به، وثنائهم عليه، واستغفارهم للمؤمنين، ودعائهم لهم ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ ۗ﴾ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۗ﴾ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾.

٤- النداء على الذين كفروا وهم في النار بشدة مقت الله لهم لكفرهم وشركهم وعدم إيمانهم، واعترافهم آنذاك بذنوبهم وطلبهم الخروج من النار وهيئات لهم ذلك وتقريرهم وتوبيخهم ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۗ﴾ (١٠) إلى قوله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۗ﴾ (١١).

٥- إقامته عز وجل الحجة على العباد بوجوب إخلاص الدين له؛ بما يريهم من الآيات، ونعمته عليهم بما ينزل لهم من رزق، وتذكيرهم وتخويفهم أهوال يوم القيامة والحساب والجزاء، وإبطال ما يدعى من دونه: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ۗ﴾ (١٢) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٣﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٤﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٥﴾ الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظْمِينَ مِمَّا لَلَّظَلَمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿١٧﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفَى الصُّدُورُ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٩﴾.

٦- توبيخ المكذبين لما لم يعتبروا- وهم يسيرون في الأرض ويرون آثار المكذبين قبلهم كيف أهلكهم الله، وهم أشد منهم قوة وآثاراً في الأرض: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾﴾.

٧- ذكر إرساله عز وجل موسى عليه السلام بالآيات البينات إلى فرعون وهامان وقارون، ورميهم إياه بالسحر وتكذيبهم له، وإيذائهم لبني إسرائيل، وتهديد فرعون لموسى بالقتل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَحَرٌ كَذَّابٌ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ. وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿١٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

٨- نصح الرجل المؤمن من آل فرعون لهم، ونهيه إياهم عن قتل موسى، وتخوفه لهم من بأس الله، وزوال ملكهم، وأن يحل بهم ما حل بالأحزاب والمكذبين قبلهم، ودعوته لهم أن يتبعوه؛ ليهديهم سبيل الرشاد، وتزهيدهم في الدنيا، وترغيبهم في الآخرة والجنة، وتخوفهم يوم القيامة: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [الآية: ٢٨] إلى قوله: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُنَادُونَ مَدْرِبِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا مَتَعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْرَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صٰلِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَىٰ النَّارِ ﴿٤١﴾﴾ تَدْعُونَنِي

لَا كُفْرَ بِاللَّهِ وَأَشْرَكَ بِهِ، مَا لَيْسَ لِي بِهِ، عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ، دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسْتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾.

٩- ذكر رسالة يوسف عليه السلام ومجيئه قومه بالبينات، وشكهم فيما جاءهم به وإضلال الله لهم بسبب إسرافهم وإرتياهم ومجادلتهم بآيات بغير سلطان آتاهم، ومقت الله والذين آمنوا لهم، وطبعه عز وجل على قلوبهم لتكبرهم وجبروتهم.

١٠- شدة طغيان فرعون وجبروته وجرأته على الله: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَذَانُمْ لَا يَخِفُّونَ لِي صَرَحًا لَعَلِّي أَتْلُجُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى اللَّهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ، كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

١١- وقاية الله عز وجل لهذا الرجل المؤمن الناصح سيئات مكرهم، وإحاطة سوء العذاب بهم: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكْرُوهًا وَحَاقَ بِقَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ وتحاجهم وتحاصمهم في النار، وسؤالهم تخفيف العذاب عنه، وتقريعهم وتبيسهم من ذلك ﴿وَإِذْ يَتَحَاجَّرُونَ فِي النَّارِ ﴿٤٧﴾﴾ [الآية: ٤٧] إلى قوله: ﴿وَمَا دُعُوا إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾.

١٢- تكفله عز وجل ووعد بنصرة رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وتهديد الظالمين ووعدهم ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

١٣- التذكير بما آتاه الله تعالى موسى من الهدى وما أورثه لبني إسرائيل من الكتاب «التوراة»: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَأَسْتَغْفِرُ لَذُنُوبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥٥﴾﴾.

١٤- ذم المجادلين في آيات بغير سلطان آتاهم لكبر في صدورهم، ومقتهم،

والاستدلال على بعث الناس بخلق السموات والأرض: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٥٥﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبْرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

١٥- شتان بين الأعمى والبصير والمؤمن والكافر: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى

وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

١٦- إثبات البعث وقيام الساعة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَنبِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الآية: ٥٩].

١٧- وجوب دعوة الله تعالى وعبادته وذم المستكبرين عن عبادته وتهديدهم:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ

دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

١٨- إثبات ربوبية الله تعالى العامة للناس، والامتنان عليهم بذلك؛ وجعل الله

الليل سكناً، والنهار مبصراً، وخلق كل شيء لا إله إلا هو، وجعل الأرض لهم قراراً،

والسمااء بناء وصورهم فأحسن صورهم ورزقهم من الطيبات، خلقهم من تراب،

ونقلهم في مراحل خلقهم من طور إلى طور، بيده الحياة والموت، والأمر كله، فلا رب

غيره، ولا معبود بحق سواه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا

إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ

خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَإِنَّهُ يَتُوبُ عَلَى الَّذِينَ كَانُوا يَآئِنَتِ اللَّهُ

بِجَادِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٣﴾﴾.

١٩- ذم المجادلين في آيات الله، المكذبين بكتب الله وبما أرسل به رسله، ووعيدهم

بما أعد لهم من العذاب الحسي والمعنوي: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى

يُصْرَفُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾﴾ إِذْ

الْأَغْلُلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٦٦﴾﴾ فِي الْحَمِيمِ تُرْمَعُ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ

أَيُّ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴿٧٣﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾﴾.

٢٠- تسليته ﷺ وتقوية قلبه بأمره بالصبر ووعيد المكذبين له، وبيان أحوال الرسل من قبله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴿٧٧﴾﴾ [الآية: ٧٧] إلى قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

٢١- الامتنان على العباد بما جعل الله لهم من الأنعام، وإظهار آياته لهم مما لا يستطيعون إنكاره: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَاحِ تَحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

٢٢- تأكيد توبيخ المكذبين كيف لا يعتبرون وهم يسرون في الأرض ويرون آثار عقوبات المكذبين قبلهم: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آغَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾ مَا يَجِدُلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِيمِهِمْ فِي الْبَلَدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدُوا بِالْبَطْلِ لِيُذْخِصُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾.

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ ﴿٣﴾.

قوله: ﴿حَمَّ ١﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في مطلع سورة البقرة، وبيان أنها حروف من حروف الهجاء، لا معنى لها في ذاتها، لكن لها مغزى وحكمة، وهي التحدي بالقرآن، وإثبات إعجازه بألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وأخباره، وغير ذلك.

﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾ سبق الكلام على هذا في مطلع سورة الزمر. ﴿الْعَلِيمِ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨].

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ صفة ثالثة للفظ الجلالة «الله»، و«ال» في «الذنب»: للجنس، أي: غافر الذنوب.

و«المغفرة»: ستر الذنب عن الخلق، والتجاوز عن العقوبة؛ كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في المناجاة قوله عز وجل لعبده: «أتذكر ذنب كذا وكذا؟» فيقول: نعم يارب. فيقول الله عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»^(١). فهو عز وجل ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، فيغفر ما دون الشرك لمن يشاء، ويغفر الذنوب كلها، بما فيها الشرك لمن تاب وأناب إليه؛ ولهذا قال:

(١) سبق تخريجه.

﴿وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ معطوف على ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾، وحسن العطف هنا؛ لأن غفران الذنب وقبول التوب صفتان وعلان متغايران، فالأول يتعلق بالإساءة والإعراض، وهو المغفرة، والثاني يتعلق بالإحسان والإقبال على الله، والرجوع إليه، وهو التوبة^(١).

أي: وقابل التوبة والرجوع ممن تاب وأتاب إليه، فرجع من الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الإباق عن ربه إلى الرجوع إليه.

فيغفر ما سلف من الذنب، ويقبل التوبة في المستقبل ممن تاب، بشروط التوبة الخمسة، وهي: الإخلاص لله، والإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على عدم العودة إليها، وأن تكون في وقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم، وقبل طلوع الشمس من مغربها.

﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ لمن تمرد وطغى، وأصر على الكفر والمعاصي ولم يتب.

وفي هذا جمع بين الترغيب والترهيب؛ كما قال تعالى: ﴿نَجِيءٌ عَبْدِي أَيُّ أَنَا الْعَفْوُورُ

الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

فعقابه مؤلم شديد من حيث كيفه وكمه ومدته؛ كما أن مغفرته واسعة.

وهذا يوجب على العبد أن يكون بين الخوف والرجاء، فلا يغلب أحدهما على الآخر.

وقال بعضهم: يغلب الخوف حال الصحة، ويغلب الرجاء حال المرض.

وقال بعضهم: يغلب الرجاء عند فعل الطاعة، ويغلب الخوف إذا هم بمعصية.

﴿ذِي الطَّوْلِ﴾، أي: صاحب الغنى الواسع، والتفضل والإنعام التام، والإحسان

الشامل على الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال

تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

قال ابن القيم: «وأما ﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ فترك العطف بينهما لنكتة بديعة،

وهي: الدلالة على اجتماع هذين الأمرين في ذاته سبحانه، وأنه حال كونه شديد العقاب

فهو ذو الطول، وطوله لا ينافي شدة عقابه، بل هما مجتمعان له»^(١).

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٨١.

ووقوع وصفه بشديد العقاب بين صفتي رحمة قبله، وصفة رحمة بعده - فقبله: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، وبعده: ﴿ذِي الطَّلَوِّ﴾ - فيه تصديق وشاهد لقوله عز وجل في الحديث القدسي: «إن رحمتي تغلب غضبي»^(١).

وفي لفظ: «سبقت غضبي»^(٢).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر فيه آية أرجى من قوله تعالى: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ﴾؛ قدم غفران الذنوب على قبول التوبة»^(٣).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون.

﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾، أي: إليه وحده المرجع والمآل، أي: مآل جميع الخلائق، فإليه إيابهم، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ كما أن إليه مآلات الأمور كلها؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَمْوَالُ لِلَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾^(٥٣) [الشورى: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي آلِيكَ﴾^(٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾.

قوله: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: ما يجادل ويخاصم وينازع في آيات الله الكونية والشرعية، ويدفع ما دلت عليه من الحق بالباطل بعد البيان وظهور البرهان؛ كما قال

(١) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، ٧٤٠٤، ومسلم في التوبة، سعة رحمة الله تعالى، ٢٧٥١، والترمذي في الدعوات، ٣٥٤٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء، ٧٤٢٢، ومسلم في الباب السابق، ٢٧٥١، وابن ماجه، في المقدمة، ١٨٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر: «بدائع التفسير» ٨٣ / ٤.

(٣) ذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ٣٢٢ / ١٠.

تعالى بعد هذا: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَطْلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر: ٥].

﴿إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا الذين كفروا بالله، ووجدوا آياته وكذبوها.

﴿فَلَا يَعْزُرَكَ تَقَابُلُهُمْ فِي الْبَلَدِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: فلا يعرك ولا يخدعك تنقلهم وترددهم في البلاد بأموالهم وتجاراتهم، وما هم فيه من نعيم الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿لَا يَعْزُرَكَ تَقَابُلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ ﴿١٦٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَيَسَّسَ الْإِهَادُ ﴿١٦٧﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧]، وقال تعالى: ﴿نُمِعْتُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَّطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٢٤﴾ [لقمان: ٢٤].

أي: فليس في ذلك دلالة على محبة الله لهم، ولا أنهم على الحق كما يزعمون، بل ذلك استدراج لهم؛ كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ وَأَمْلِي لَهُمْ إِيَّاتِ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

﴿كَذَبَتْ قَلْبُهُمْ﴾، أي: قبل الذين كذبوا النبي ﷺ من قومه.

﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ «نوح»: أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض يأمرهم بعبادة الله تعالى وحده، وينهاهم عن الشرك.

﴿وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ الأحزاب: جمع «حزب»، وهي: الطائفة، أي: الطوائف والأمم من بعدهم، الذين تحزبوا وتجمعوا ضد رسلكم؛ ليبتلوا ما جاؤوا به من الحق، كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمُ﴾ الذي أرسل إليهم ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾، أي: ليقتلوه.

أي: عزمت وحرصت كل أمة من هذه الأحزاب والأمم على قتل رسولهم بكل ممكن؛ كما قال الله تعالى عن ثمود: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ ﴿٤٩﴾ [النمل: ٤٩].

وقال تعالى عن قريش: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ ﴿٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠].

وقد قتل بنو إسرائيل كثيراً من أنبيائهم؛ كما قال تعالى عنهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّنَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٦١].

﴿وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن يدحضوا، أي: يزيلوا ويبتلعوا به الحق؛ كما قال تعالى: ﴿مَجْتُمِعٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ١٦]، أي: باطلة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «من أعان باطلاً ليدحض بباطله حقاً، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله» (١).

﴿فَأَخَذْتُمُوهُمْ﴾ الفاء: للسببية، أي: فعاقبتهم وأهلكتهم بسبب تكذيبهم رسلي، وما جاؤوا به من الحق، ومجادلتهم بالباطل؛ ليدحضوا به الحق.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ الاستفهام: للتعجب والتقرير والتعظيم، أي: فكيف كان عقابي لهم؟ أي: ما أشد عقابي لهم وآله وأوجهه! حيث استأصلهم عن آخرهم. ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾: قرأ نافع وابن عامر وأبو جعفر بالجمع: «كَلِمَاتُ رَبِّكَ»، وقرأ الباقون بالإفراد: «كَلِمَتُ رَبِّكَ». والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

أي: كما وجبت وثبتت كلمة ربك القدرية الكونية بأخذ المكذبين السابقين وإهلاكهم، كذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا من قومك وكذبوك بتعذيبهم، وأنهم من أصحاب النار.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه، وأحكامه وأخباره، والتحدي به؛ لقوله

تعالى: ﴿حَمِّ ۝١﴾.

٢- إثبات تنزيل القرآن من الله عز وجل، وأنه كلامه؛ لقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ١١٩ ونسبه لأبي القاسم الطبراني.

﴿الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾.

٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته.

٤- الرد على المعتزلة القائلين بأن القرآن مخلوق.

٥- تعظيم القرآن الكريم؛ لأن «الكتاب» إذا أطلق فالمراد به: القرآن الكريم

أفضل كتب الله تعالى، وأعظم الكتب على الإطلاق.

٦- إثبات اسم الله تعالى: «العزیز»، وصفة العزة التامة له عز وجل؛ لقوله تعالى:

﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ﴾.

٧- إثبات اسم الله تعالى: «العلیم»، وأنه سبحانه ذو العلم الواسع الذي وسع كل

شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَلِيمِ﴾.

٨- إثبات صفة المغفرة وصفة التوبة لله عز وجل، وأنه سبحانه يغفر ذنوب

المذنبين، ويقبل توبة التائبين؛ لقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾، وهذا يوجب

علينا أن نتعرض لأسباب مغفرته، ونتوب إليه.

٩- شدة عقابه تعالى لمن كفر به وخالف أمره وعصاه من غير توبة؛ لقوله تعالى:

﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾، وهذا يوجب الحذر من التعرض لأسباب عقابه.

١٠- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿غَافِرِ

الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾؛ مما يوجب أن يجمع العبد بين الخوف والرجاء في

طريقه إلى الله.

١١- سعة غناه عز وجل وفضله وإفضاله، وإنعامه وإحسانه التام على خلقه؛

لقوله تعالى: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

١٢- إثبات وحدانية الله تعالى في ألوهيته، وأنه لا معبود بحق سواه؛ لقوله تعالى:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

١٣- أن مرجع الخلائق كلهم إلى الله تعالى، إليه إياهم، وعليه حسابهم وجزاءهم؛

لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

١٤- ظهور آيات الله وحججه الدالة على الحق، ووضوحها تمام الوضوح، وأنه ما

يجادل فيها إلا الكافرون بالله، الجاحدون لآياته، المكذبون بها؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَجِدُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

١٥- أن الكفر سبب للمجادلة في آيات الله، والتكذيب بها، وجحودها.

١٦- لا ينبغي الاغترار بما عليه الكفار من النعيم الدنيوي والتقلب في البلاد، والتنقل فيها بأموالهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَا يَغْرُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْأَلْبَدِ﴾.

١٧- أن إدراج النعم في الدنيا ليس دليلاً على محبة الله ورضاه، ولا على استحقاق تلك النعم، وقد يكون استدراجاً.

١٨- تسلية النبي ﷺ بذكر تكذيب الأمم السابقة لرسولهم، وهمهم بقتلهم، ومجادلتهم بالباطل؛ لإبطال الحق، وعقابه الشديد لهم، وفي هذا تحذير وتهديد للمكذبين من قومه؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾.

١٩- أن نوحاً عليه السلام هو أول الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

٢٠- شدة ما لقي الرسل عليهم السلام من التكذيب والأذى من أممهم، حتى همت كل أمة بقتل رسولها، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق.

وفي هذا درس للمربين من الآباء والأمهات، والمعلمين والدعاة والمصلحين وغيرهم؛ ليتحلوا بالصبر الجميل، ويعلموا أن طريق الدعوة إلى الله تعالى ليس مفروشاً بالورود والرياحين، بل لا بد فيه من الابتلاء.

٢١- إثبات الأسباب وتأثيرها بمسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾؛ لأن الفاء للسببية.

٢٢- شدة عقاب الله تعالى وأخذه للظالمين؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُ رِبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠١﴾﴾ [هود: ١٠٢].

٢٣- إثبات قدر الله السابق في إهلاك المكذبين وأخذهم بالعقوبات في الدنيا، وتعذيبهم في الآخرة بالنار؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

﴿أَنْتُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ٦.

٢٤- إثبات الكلام لله تعالى كما يليق بجلاله، وكلماته كونية وشرعية.

٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للنبي ﷺ، وتشريفه بخطابه له؛ لقوله تعالى:

﴿كَلِمَاتُ رَبِّكَ﴾.

٢٦- خلود الكفار في النار، وملازمتهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ. وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا أَثْنَيْنِ وَأُحْيِتِنَا أَثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِمَا أَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾.

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ. وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ الْغَزِيرُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ. وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾.

قوله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾، أي: الملائكة المقربون الذين اختارهم الله تعالى؛ لشرفهم وفضلهم، وقوتهم وشدتهم، وجعلهم ﴿يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ﴾: عرش الرحمن الذي هو سقف المخلوقات وأكبرها وأعظمها وأوسعها، وعددهم فيما ذكر أربعة^(١)، أما يوم القيامة فحملة العرش ثمانية؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَنِيَّةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

قال شهر بن حوشب: «حملة العرش ثمانية، أربعة يقولون: سبحانك اللهم وبحمدك، لك الحمد على حلمك بعد علمك. وأربعة يقولون: سبحانك اللهم

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ١٢٠.

وبحمدك، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك»^(١).

﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ «من»: موصولة، أي: والذين حول العرش من الملائكة المقربين الكروبيين الحافين من حول العرش؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ خبر الموصول «الذين»، والباء: للملابسة، أي: يقرون بين تسبيح ربهم، بعبادته وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، وبين حمده بالثناء عليه، ووصفه بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم؛ كما جاء في دعاء ختم المجلس: «سبحانك ربنا وبحمدك»، أو: «سبحانك اللهم وبحمدك»^(٢).

﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ معطوف على ﴿يُسَبِّحُونَ﴾، أي: ويؤمنون بربهم، أي: يصدقون به باطنًا، وينقادون له ظاهرًا بجوارحهم.

والإيمان بالله يتضمن: الإيمان بوجوده، وربوبيته، وإلهيته، وأسمائه، وصفاته.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ قَدَّمْ لذكر استغفار هؤلاء الملائكة للذين آمنوا؛ بذكر شرفهم وفضلهم، ورفع شأنهم، وعظيم منزلتهم باختيارهم لحمل عرش الرحمن، وكونهم حول العرش، والثناء عليهم بالتسبيح بحمد ربهم والإيمان به؛ لأن هذا كله من أسباب قبول استغفارهم ودعائهم للمؤمنين.

وفيه التنويه بشأن المستغفر لهم، وهم المؤمنون.

أي: ويطلبون من الله تعالى المغفرة للذين آمنوا، أي: للمؤمنين من أهل الأرض، الذين صدقوا بقلوبهم وأستهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم.

كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥]، أي: والملائكة من حملة العرش ومن حوله وغيرهم، ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من المؤمنين؛ لأن استغفار الملائكة للمؤمنين إنما

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره».

(٢) سبق تخريجه.

هو بسبب إيمانهم، وهذا من فضائل الإيمان وثمراته؛ إذ لو لم يكونوا مؤمنين لما استغفرت لهم الملائكة، وما جاز الاستغفار لهم؛ كما قال عز وجل لسيد الخلق:

﴿ مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

﴿ رَبَّنَا ﴾، أي: يقولون: ﴿ رَبَّنَا ﴾، أي: يا ربنا، ﴿ وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةٌ ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ وَرَّحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فرحمته عز وجل وسعت كل شيء، وعمت كل حي، رحمة عامة لجميع الخلق، ورحمة خاصة للمؤمنين.

﴿ وَعِلْمًا ﴾: معطوف على ﴿ رَّحْمَةٌ ﴾، أي: وسعت كل شيء علماً، أي: أحاط علمك بكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [طه: ٩٨] وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأنعام: ٨٠] وقال شعيب عليه السلام: ﴿ قَدْ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿ فَأَعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾ بعد أن نادى الملائكة ربهم ودعوه، وتوسلوا إليه بوصف الربوبية، وبالثناء عليه، وبسعة رحمته وعلمه، سأله المغفرة للتائبين، فقالوا: ﴿ فَأَعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا ﴾، أي: فاغفر للذين تابوا وأنابوا إليك من الشرك والمعاصي.

﴿ وَاتَّبِعُوا سَبِيلَكَ ﴾، أي: واتبعوا طريقك، وسلكوا صراطك المستقيم، بالإيمان والعمل الصالح، أي: فاغفر لهم ذنوبهم، بسترها والتجاوز عنها.

﴿ وَفِيهِمْ عَذَابُ الْجَحِيمِ ﴾ «الجحيم»: اسم من أسماء النار، سميت به؛ لشدة توقدها وحرها، أي: جنبهم عذاب النار المؤلم الموجه، واجعلهم في وقاية منه.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ﴾ قدموا طلب المغفرة لهم ووقايتهم عذاب الجحيم على هذا؛ لأنه لا يلتذ بحصول المطلوب، إلا بعد النجاة من المرهوب، والتخلية قبل التحلية.

وأعادوا التوسل إلى الله تعالى بندائه بوصف الربوبية استجلاباً لرحمته، أي: يا ربنا ﴿ وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾، أي: جنات الإقامة الأبدية.

﴿الَّتِي وَعَدْتُهُمْ﴾ «التي»: صفة لـ «جنات»، أي: التي وعدتهم في كتبك وعلى السنة رسلك، ووعدك الحق، فتوسلوا بوعدته عز وجل إلى تحقيق موعوده.

﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾ الواو: عاطفة، و«من» اسم موصول في محل نصب معطوف على ضمير المفعول في «أدخلهم».

أي: وأدخل الذي صلح بالإيمان والعمل الصالح - من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم - جنات عدن التي وعدتهم؛ كما قال تعالى: ﴿جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

﴿ءَابَائِهِمْ﴾ جمع «أب»، يشمل الآباء والأجداد من أي جهة؛ لأن الجدي يسمى أباً؛ كما يشمل الأمهات والجديات؛ لأن قوله: ﴿ءَابَائِهِمْ﴾ من باب تغليب الآباء على الأمهات؛ كما هي طريقة القرآن في تغليب الذكور على الإناث.

والشفاعة للأب أولى من الشفاعة للأب؛ لأن الأم حقها أعظم وأعظم وأعظم.

﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾: جمع «زوج»، فتشفع الزوجة للزوج، ويشفع الزوج لزوجته.

﴿وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾: جمع «ذرية»، ويشمل ذلك أولادهم، وأولاد الأبناء وإن نزلوا، وقد يشمل ذلك أولاد البنات، وفضل الله واسع.

وقد رُتب المذكورون في الآية ترتيباً وجودياً، أي: على ترتب وجودهم: أب، ثم زوج، ثم ذرية.

﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾: تعليل للدعاء قبله، وتوسل إلى الله تعالى بهذين الاسمين، أي: إنك أنت وحدك ذو العزة التامة، لا تمنع ولا تغالب، ما شئت كان، وما لم تشأ لم يكن.

وذو الحكم التام، تحكم وتقضي بالحق في أقوالك وأفعالك، وشرعك وقدرك.

وذو الحكمة البالغة، تضع الأمور مواضعها، فاستجب دعاءنا لهم، واغفر لهم.

﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ﴾، أي: وجنبهم ما يسوء من الأعمال، في الحال والمآل، واصرفهم عنها، واحفظهم منها، ومن عقوباتها وعذابها.

﴿وَمَنْ تَوَلَّى سَيِّئَاتٍ يَوْمَئِذٍ﴾، أي: ومن تصرف عنه سوء عاقبة السيئات ووبالها وعقابها يوم القيامة.

كما قال تعالى: ﴿فَوَقَّهٗ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَّامَّكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥]، أي: فصرف الله عنه سوء عاقبة سيئات مكرهم، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف: ١٣١]، أي: وإن تصيبهم مصيبة وعقوبة.

﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾: جواب الشرط «من»، والفاء: رابطة لجواب الشرط؛ لاقتارانه بـ«قد»، أي: فقد أنلته رحمتك، فنجنا من المرهوب، وظفر بالمطلوب؛ ولهذا قال: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارة تعود إلى الوقاية من السيئات وعقوباتها، والدخول تحت رحمة الله عز وجل، أي: إلى زوال المحذور بوقاية السيئات، وحصول المطلوب برحمة الله.

وضمير الفصل «هو»؛ لإفادة الحصر والتوكيد، و«الفوز»: الظفر بالمطلوب، والنجاة من المرهوب، الفوز بالجنة، والنجاة من النار؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ زُحِّجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

أي: فقد فاز بالنجاة من النار، ودخول الجنة، والتنعم بما فيها من ألوان النعيم ﴿الْعَظِيمُ﴾ الذي لا أعظم منه، ولا يقدر قدره إلا من وصفه بـ«الفوز العظيم»، وهو العلي العظيم، وأعظم ذلك وأجله: رؤية الرب العظيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ١٠ ﴿قَالُوا رَبَّنَا آتِنَا آيَاتِنِ وَأَحْيِيْنَا آتِنَتِنِ فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ ١١ ﴿ذَٰلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا فَاَلْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ ١٢ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ ١٣ ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ ١٤.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، النداء: هو الكلام من بعيد، والمناجاة: الكلام من قريب، أي: ينادون وهم في جهنم في غمرات النار والعذاب، من قبل الملائكة خزنة جهنم؛ تبيكتاً لهم وتقريعاً.

﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمقت الله إياكم، من إضافة المقت إلى فاعله، أي: لمقت الله إياكم أكبر من مقتكم لأنفسكم اليوم. ويحتمل أن المقت مضاف إلى مفعوله، أي: لمقتكم الله أكبر من مقتكم لأنفسكم اليوم. والمقت: أشد البغض. والمقت والبغض من الصفات الاختيارية الفعلية لله تعالى؛ كما قال ﷺ: «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(١)، وقال ﷺ: «وإن الله ليبغض الفاحش البذيء»^(٢).

﴿أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، أي: أكبر وأعظم من مقتكم وبغضكم أنفسكم، التي أوردتكم النار، وأوبقتكم في العذاب. ﴿إِذْ نَدَعُونَكَ إِلَى الْأَيْمَنِ﴾، أي: حين دعتمك الرسل وأتباعهم إلى الإيمان، وأقاموا لكم البيئات على ما دعوكم إليه من الحق. ﴿فَتَكْفُرُونَ﴾، أي: فتجحدون وتكذبون، وتأبون الإيمان.

والمعنى: لمقت الله إياكم في الدنيا؛ تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن وأنتم في النار.

قال قتادة: «يقول: لمقت الله أهل الضلالة حين عرض عليهم الإيمان في الدنيا فتركوه، وأبوا أن يقبلوا، أكبر مما مقتوا أنفسهم حين عاينوا عذاب الله يوم القيامة»^(٣). وعلى ما قيل من احتمال كون المصدر في قوله: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ﴾ مضافاً إلى مفعوله، يكون المعنى: لمقتكم الله في الدنيا وبغضكم له حين تدعون إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم أنفسكم الآن.

﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتْنَا اثْنَيْنِ﴾ الإمامة الأولى حين كانوا عدماً، وقبل نفخ الأرواح في الأجنة؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنِىَّ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينَ مِنْ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾^(١) [الإنسان:

(١) أخرجه أبو داود في الطلاق ٢١٧٨، وابن ماجه في الطلاق ٢٠١٨، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة ٢٠٠٢؛ من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٢٨٨.

[١]، أي: قد أتى عليه وقت كان عدماً.

والإماتة الثانية بعد الحياة الدنيا، فالإماتة الأولى ما قبل الحياة، والإماتة الثانية ما بعد الحياة، والإماتة الأولى ليست إماتة بعد حياة، ولكنها عدم حياة، فصح أن يطلق عليها الموت.

﴿وَأَحْيَيْتَنَا أَتْلَتَيْنِ﴾ الحياة الأولى في الدنيا، والحياة الثانية في الآخرة، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

ومقصودهم من قولهم: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا أَتْنَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا أَتْلَتَيْنِ﴾: الإقرار بأن الأمر حق، أي: فكما أننا ندرك أنه مرت بنا هذه الأطوار الأربعة: موت فحياة، ثم موت فحياة، فإننا أدركنا خطأنا.

﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾، أي: أقرنا بذنوبنا، أي: بكفرنا وإنكارنا للبعث وخطأنا. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ «هل»: للاستفهام، أو للتمني، و«خروج»: نكرة تفيد العموم، أي: فهل إلى أي خروج من النار.

﴿مِّن سَبِيلٍ﴾، «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث العموم، أي: من أي سبيل، أي: من أي طريق للخروج من النار؛ لنرجع إلى الدنيا؛ لنؤمن ونعمل صالحاً. وقد أجبوا بالتوبيخ والتبكيت، وزيادة تئيسهم من الخروج بقوله: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ﴾ الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب، والباء: للسببية، أي: بسبب أنه في الدنيا.

﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾، أي: إذا دعي الله وعبد وحده، ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده، وأنكرتم وحدانيته.

﴿وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ﴾، أي: يجعل له شركاء ﴿تُؤْمِنُوا﴾، أي: تؤمنوا بالشرك وتصدقوا؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥].

أي: فهذه حالكم في السابق، وهي حالكم لو أخرجتم من النار، ورددتم إلى الدنيا؛

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾

بَلْ بَدَأْتُمْ مَآ كَانُوا يَمْخَفُونَ مِنْ قَبْلُ وَوَرُدُّوا الْعَادُوَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنعام: ٢٧-٢٨].

ولهذا أجيئوا في آيات أخرى بما هو أقسى وأشد توبيخاً وتبكيته؛ كما في قوله تعالى:

﴿وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ [فاطر: ٣٧]

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عِندَنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٩﴾ فَأَتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ [المؤمنون: ١٠٦-١١٠].

﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾، أي: فالحكم في أمركم وفي تعذيبكم، وفي كل شيء: مستحق لله وحده؛ فهو الحكم العدل الذي لا يحيف ولا يجور، ولا يغيّر حكمه ولا يبدل، له الحكم الشرعي، والحكم الكوني، والحكم الجزائي، يهدي ويرحم من يشاء بفضله، ويضل ويعذب من يشاء بعدله، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

﴿الْعَلِيِّ﴾، أي: ذو العلو المطلق على خلقه من جميع الوجوه: علو الذات، وعلو الصفات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿الْكَبِيرِ﴾ ذو الكبرياء والعظمة، الذي هو أكبر وأعظم من كل شيء؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري»^(١).

و«العلي» و«الكبير»: من أسماؤه عز وجل، وفي اقترانها في حقه عز وجل كمال إلى كمال.

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُم ءَايَاتِهِ﴾، أي: هو عز وجل الذي يظهر ويبين لكم آياته العظيمة في هذا الكون علويّه وسُفليّه، وفي أنفسكم حتى تروها عياناً؛ لتستدلوا بها على كمال قدرة الله تعالى وعظمته، واستحقاقه العبادة وحده دون غيره.

(١) سبق تخريجه.

كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [٣٧] [فصلت: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ [٢٠] ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [٢١] [الذاريات: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١].

فكل ما في الكون من آياته عز وجل، الدالة على عظمته وتمازج ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره.

وقد أحسن القائل:

فواعجباً كيف يعصى الإله أو كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد؟^(١)

كما أظهر عز وجل وبيّن الآيات الشرعية التي أنزلها على رسله وأراها العباد، وفضلها لهم؛ ليعملوا بها.

﴿وَيُنزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾ لما ذكر منته عليهم، بإشهادهم إياه آياته الدالة على كمال قدرته وعظمته، أتبع ذلك بذكر منته ونعمته عليهم بالرزق.

وقدم الامتنان بإظهار الآيات على إنزال الرزق؛ لأن النعمة الدنية أهم وأكبر وأعظم من النعمة الدنيوية.

والمراد بالسماء: العلو، وليس السقف المحفوظ؛ لقوله تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ

بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والرزق: هو العطاء، والمراد به هنا: المطر، أي: ونزل لكم من السماء مطراً يخرج

لكم به الجنات والزرع، والنخيل والأعناب، وأنواع الثمار وغير ذلك؛ كما قال تعالى:

(١) البیتان لأبي العتاهية. انظر: «ديوانه» ص ١٠٤.

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ [ق: ٩-١١].

كما يُقدَّر عز وجل أرزاقكم وغير ذلك بأمره النازل من السماء؛ كما قال تعالى:

﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: ٢٢].

﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: وما يعتبر ويتعظ ويتفكر ﴿إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾، «إلا»: أداة حصر، و«من»: اسم موصول، أي: إلا الذي ينيب ويتوب من الكفر والفسوق والعصيان، ويرجع إلى الله تعالى، وإلى طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ [ق: ٨].

﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

لما بين عز وجل أنه أرانا آياته، وأقام علينا الحجة، وتكفل لنا بالرزق: أمرنا أن ندعوه مخلصين له الدين.

قوله: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ﴾: دعاء عبادة ودعاء مسألة، أي: اعبدوه، بأداء ما أمركم به؛ من الصلاة والزكاة والصوم والحج، وبر الوالدين، وغير ذلك، وقد قال ﷺ: «الدعاء هو العبادة»^(١).

وادعوه واسألوه من خيري الدنيا والآخرة، فذلك عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، أي: مخلصين له العمل من الشرك، سواء كان عبادة، أم دعاء وسؤالاً.

والإخلاص: التنقية، أي: منقّين دينكم من الشرك.

﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، أي: ولو كره الكافرون إخلاصكم لله تعالى الدين والعمل، والدعاء والعبادة، فلا تبالوهم، ولا تكثرثوا بهم.

(١) سبق تحريجه.

عن عبدالله بن الزبير رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يقول في دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»^(١).

قوله تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ١٥ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٦ الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٧﴾.

قوله: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، أي: هو رفيع الدرجات، العلي الأعلى فوق خلقه بذاته وصفاته، له المثل الأعلى، والأسماء الحسنى، والصفات العلاء؛ كما قال تعالى: ﴿مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ٣ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ٤﴾ [المعارج: ٣، ٤].

﴿ذُو الْعَرْشِ﴾، أي: صاحب العرش، الذي على العرش استوى؛ كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ٥﴾ [طه: ٥].

﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي: ينزل الوحي ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾، أي: قوله، على الذي يشاء من عباده من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بواسطة جبريل عليه السلام؛ كما قال تعالى: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ٢﴾ [النحل: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى: ٥٢].

وسمي الوحي بـ«الروح»؛ لأن الوحي به حياة القلوب؛ كما أن الروح بها حياة الأجساد؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾

(١) أخرجه مسلم في المساجد، استحباب الذكر بعد الصلاة ٥٩٤، وأبو داود في الصلاة، ما يقول الرجل إذا سلم ١٥٠٦، والنسائي في السهو، التهليل بعد التسليم ١٣٣٩، وأحمد ٤ / ٤.

[الأنعام: ١٢٢].

قوله: ﴿عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾، أي: على الذي يشاء من عباده؛ ممن اختارهم بعلمه وحكمته لحمل رسالاته، وتبليغ وحيه؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

﴿لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن ينذر عز وجل، أو رسوله الملقى إليه الوحي: يوم التلاق.

والإنذار: الإعلام المقرون بالتحذير والتخويف، أي: ليحذر ويخوف الناس يوم التلاق، أي: يوم القيامة، وشدته وعذابه وأهواله، ويحث على الاستعداد له. عن علي بن طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «يوم التلاق»: اسم من أساء يوم القيامة، عظمه الله، وحذره عباده»^(١).

وسمي يوم القيامة: «يوم التلاق»؛ لأنه يوم لقاء الله؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٥]. كما يلتقي فيه الأولون والآخرون، وأهل السماء وأهل الأرض، وجميع الخلائق، ويلقى كل عامل عمله وجزاءه.

﴿يَوْمَ هُمْ بَدْرُونٌ﴾ «يوم»: بدل من «يوم» في قوله: ﴿يَوْمَ التَّلَاقِ﴾. أي: يوم هم ظاهرون بادون، لا شيء يحجبهم ولا يسترهم، في صعيد واحد، وأرض بارزة لا عوج فيها ولا أمت، يُسمعهم الداعي، وَيَنفُذُهُمُ البصر؛ كما جاء في الحديث^(٢).

﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ بيان لجملة ﴿بَدْرُونَ﴾، و﴿شَيْءٌ﴾: نكرة في سياق النفي، يفيد العموم، أي: لا يخفى على الله منهم أي شيء، أي: لا يستر ولا يغيب عن علمه منهم أي شيء، بل هو محيط بهم إحاطة تامة؛ لأنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٢٩٦.

(٢) سبق تخريجه.

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾، أي: فيقال: لمن الملك اليوم- يعني: يوم القيامة- والقائل هو الله عز وجل، أي: من المالك الذي له جميع الملك، المتصرف الذي له التصرف التام؟ فيجيب عز وجل بقوله: ﴿لِلَّهِ﴾، أي: لله عز وجل خاصة؛ كما جاء في الحديث: «يطوي الله السموات بيمينه والأرضين بشماله، فيهزهن ويقول: أنا الملك، أنا الديان، أين ملوك الدنيا»^(١).

﴿الْوَحِيدِ﴾، أي: الواحد الأحد الفرد في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.
﴿الْقَهَّارِ﴾، أي: ذو القهر والغلبة، الذي قهر جميع المخلوقات، وذلت وخضعت لقهره جميع الكائنات.

﴿الْيَوْمِ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿تُحْزَى كُلُّ نَفْسٍ﴾، أي: تجازى وتثاب وتكافأ كل نفس ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي كسبته، أو بكسبها، أي: بعملها من خير أو شر؛ كما قال تعالى: ﴿جَزَاءً وَفَأَقَا﴾^(٦٦) [النبا: ٢٦]، أي: موافقاً لأعمالهم، فيجازي الله المؤمنين بالفضل: الحسنه بعشر أمثالها إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ويجازي الكافرين بالعدل، السيئة بمثلها؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٦٧) [الأنعام: ١٦٠].

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾، أي: يوم القيامة، وكرر للتأكيد، و«لا»: نافية للجنس، و«ظلم»: اسمها، وهو نكرة في سياق النفي، فيعم نفي أي شيء من الظلم مهما قل، أي: فلا شيء من الظلم، لأي أحد من الخلق، لا بنقص من حسناته، ولا بزيادة في سيئاته.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾^(٤٤)
[يونس: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٤٥) [النساء: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَدِّدًا عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ

(١) سبق تخرجه.

وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ [النحل: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]،
وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَفِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

وقال ﷺ في الحديث القدسي، فيما يرويه عن ربه عز وجل؛ أنه قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً، فلا تظالموا»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾، أي: حسابه آتٍ، وكل آتٍ قريب، وعمر الإنسان مهما طال فهو قصير، بل الدنيا كلها قليل بالنسبة للآخرة؛ كما أن الإنسان يجد عاجلاً في الدنيا شيئاً من جزاء عمله خيراً كان أو شراً.

كما أنه لكمال علمه بهم وبأعمالهم وجزائهم، وتمام قدرته، يحاسب الخلائق بأسرع وأقل وقت؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفْئِسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

وقد استدل بعض أهل العلم بقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] على أن الله عز وجل يحاسب الخلائق في نصف يوم، ثم في النصف الآخر يقيل أهل الجنة فيها.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات العرش وعظمته، وحملته من الملائكة ومن حوله، والتنويه بهم، وفضلهم؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾.
- ٢- تسبيح حملة العرش من الملائكة ومن حوله بحمد ربهم، وإيمانهم به، والثناء عليهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.
- ٣- فضيلة الجمع بين تسبيح الله تعالى وحده؛ لأن في الجمع بينهما وصفه عز وجل بكمال الكمال؛ لأن في التسبيح التنزيه عن النقائص والعيوب، وفي الحمد الثناء على الله ووصفه بصفات الكمال.

(١) سبق تخرجه.

- ٤- أن التخلية قبل التحلية؛ لتقديم التسبيح على الحمد.
- ٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لحملة العرش من الملائكة ومن حوله؛ لقوله تعالى: ﴿رَبِّهِمْ﴾، وقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾.
- ٦- لا بد من الجمع بين عمل الجوارح؛ من العبادة والتسبيح والتحميد، وبين الإيمان الباطن؛ لقوله تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ﴾.
- ٧- استغفار حملة العرش ومن حوله من الملائكة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وهذا من تسخير الله تعالى للمؤمنين، وبركة الإيمان.
- ٨- إثبات سعة رحمة الله تعالى، وعلمه لكل شيء؛ لقول الملائكة: ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾.
- ٩- التوسل إلى الله تعالى بصفاته، وأن ذلك من أسباب إجابة الدعاء؛ لقول الملائكة: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾، فتوسلوا إليه بربوبيته، وسعة رحمته وعلمه.
- ١٠- دعاء الملائكة بالمغفرة للذين تابوا إلى الله، واتبعوا سبيله، وبوقايتهم عذاب الجحيم؛ لقولهم: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾.
- ١١- أن من تمام تحقيق التوبة: اتباع سبيل الله بالإيمان والعمل الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠].
- ١٢- إثبات الاختيار للإنسان؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾، فأضاف ذلك إليهم، وفي هذا الرد على الجبرية.
- ١٣- أن زوال المكروه مقدم على جلب المحبوب؛ لقول الملائكة: ﴿فَاعْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ﴾.
- ١٤- إثبات النار وعذابها، وتسميتها الجحيم؛ لشدة توقدها وحرها.
- ١٥- دعاء الملائكة للتائبين المتبعين سبيل الله، بإدخالهم جنات عدن ومن صلح بالإيمان والإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه، من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم؛ لقولهم: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ

وَذَرِيَّتِهِمْ ۖ ﴿١٦﴾

١٦- إثبات جنات عدن التي وعد الله بها عباده الصالحين، وأنها دار إقامة لا ظعن منها.

١٧- صدق وعده عز وجل المؤمنين بجنات عدن، وأنه عز وجل لا يخلف الميعاد؛ لهذا توسل الملائكة بوعده بقولهم: ﴿الَّتِي وَعَدْتَهُمْ ۖ﴾.

١٨- شفاعة المؤمنين في الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، وغيرهم.

١٩- فضيلة الصلاح، وأنه سبب لشفاعة أهله بعضهم لبعض.

٢٠- التوسل إلى الله تعالى بأسمائه؛ لقول الملائكة: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۖ﴾.

٢١- إثبات اسم الله: «العزیز»، وأنه سبحانه ذو العزة التامة؛ لقوله تعالى:

﴿الْعَزِيزُ ۖ﴾.

٢٢- إثبات اسم الله «الحكيم»، وأنه عز وجل ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛

لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ ۖ﴾.

٢٣- دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين سبيل الله بوقايتهم من السيئات

وعقابها؛ لقولهم: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ۖ﴾.

٢٤- أن من وقاه الله السيئات فقد رحمه؛ لقول الملائكة: ﴿وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ

يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۖ﴾.

٢٥- أن الرحمة كما تكون في جلب المحبوب والمرغوب، تكون في دفع المكروه،

وأن من وقى النار والعذاب، فمأله الجنة والثواب.

٢٦- إثبات القيامة وما فيها من الجزاء بالثواب والعقاب، والأهوال؛ لقوله تعالى:

﴿يَوْمَئِذٍ ۖ﴾، وقوله: ﴿لِنُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُمْ بَدْرُؤُونَ ﴿١٦﴾ الآية، وقوله: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ

نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

٢٧- إثبات رحمة الله الخاصة لأوليائه؛ لقول الملائكة: ﴿فَقَدْ رَحِمْتَهُ ۖ﴾، أي:

برحمتك الخاصة.

٢٨- أن الفوز العظيم، الذي لا أعظم منه أن يقي الله العبد من عمل السيئات

وعقابها، ويشمله برحمته، ويدخله جنته، وينيله نعيمها؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

٢٩- فضيلة الإيمان والتوبة واتباع سبيل الله، وأن ذلك سبب لاستغفار الملائكة وسؤالهم المغفرة لهم، وإدخالهم وصالحهم جنات عدن، ووقايتهم عذاب الجحيم والسيئات وعقوباتها، ورحمة الله إياهم، وحصولهم على الفوز العظيم.

٣٠- مناداة خزنة النار للذين كفروا وهم في غمرات النار؛ تبيكتهم لهم وتوبيخاً وتقريعاً؛ لملت الله إياكم في الدنيا حين تدعوكم الرسل وأتباعهم إلى الإيمان فتكفرون، أكبر من مقتكم لأنفسكم التي أدخلتكم النار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

٣١- مقت الكفار وهم في غمرات النار لأنفسهم التي أوردتهم النار، وأوبقتهم في العذاب؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقَّتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾.

٣٢- إثبات صفة المقت لله تعالى كما يليق بجلاله وعظمته؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَقْتُ اللَّهِ﴾.

٣٣- إثبات إقامة الحجة على هؤلاء المكذبين المعذبين؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾.

٣٤- شدة حسرتهم، وتوسلهم بربوبية الله تعالى، وكمال قدرته؛ حيث أماتهم مرتين وأحياهم، وإقرارهم أن الأمر حق، واعترافهم بذنوبهم عسى أن يجابوا في الخروج من النار والعودة إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحاً كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنِي وَأُحْيَيْتَنَا أَتَيْنِي فَأَعْرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

٣٥- إثبات ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾.

٣٦- تقريعهم وتوبيخهم، وزيادة تبيسهم من الخروج من النار؛ لكفرهم في الدنيا بوحدانية الله تعالى، وإيمانهم بالشرك به؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ

كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرِكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ ۖ أَي: فما حكم به عز وجل من خلودكم في النار لا يبدل ولا يعدل.

٣٧- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسبباتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ يَأْتِيهِ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ الآية.

٣٨- أن الحكم كله لله تعالى كوناً وشرعاً وجزاءً؛ لقوله تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ﴾.

٣٩- إثبات اسم الله: «العلي»، وصفة العلو المطلق له تعالى: علو الذات، وعلو الصفات؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَلِيِّ﴾.

٤٠- إثبات اسم الله: «الكبير»، وأنه سبحانه ذو الكبرياء والعظمة.

٤١- امتنانه عز وجل على العباد بإظهار آياته الكونية لهم، الدالة على كمال قدرته وعظمته، واستحقاقه وحده العبادة دون غيره، وإنزاله لهم من السماء الرزق.

فالأولى منة دينية، والثانية منة دنيوية؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا﴾.

٤٢- أن الرزق كله من الله تعالى، ينزله الله تعالى من السماء بإنزال المطر، الذي به حياة البلاد والعباد، وبما يقدره من الأرزاق بأمره النازل من السماء؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢].

٤٣- أن من حكمة الله تعالى كون المطر ينزل من السماء؛ ليعم جميع أجزاء الأرض: جبالها ومرفعاتها وشعابها وأوديتها ومنخفضاتها وسهولها.

٤٤- أن النعمة الدينية أهم وأعظم من النعمة الدنيوية؛ لهذا قدم إظهار الآيات على إنزال الرزق من السماء.

٤٥- أنه لا يعتبر بالآيات ويتعظ بها، ويعرف قدر النعم إلا أهل الإنابة والتوبة إلى الله، وإلى طاعته؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾.

٤٦- وجوب دعاء الله وعبادته وحده لا شريك له، وإخلاص الدين له، ومراغمة الكافرين في ذلك، وعدم المبالاة بهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [١٤].

- ٤٧- إغراق الكافرين بالشرك بالله، وكرهتهم توحيدهم وإخلاص الدين له.
- ٤٨- إثبات علو الله تعالى بذاته وصفاته وعظمته، وإثبات عرشه العظيم، واستوائه عز وجل عليه؛ لقوله تعالى: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾.
- ٤٩- امتنانه عز وجل بإلقاء الوحي على من يختاره من الرسل؛ لتحذير الناس وتخويفهم يوم القيامة، وشدائده وأهواله وعذابه، ووجوب الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.
- ٥٠- أن الوحي روح به حياة القلوب؛ كما أن الروح بها حياة الأبدان؛ لهذا سَمِيَ الوحي: «روحًا»؛ كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].
- ٥١- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ٥٢- إثبات عبودية الرسل والأنبياء لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾.
- ٥٣- الله أعلم حيث يجعل رسالته، فيلقي الروح على من يشاء من عباده، ومشيئته مقرونة بحكمته وعلمه.
- ٥٤- إثبات الحكمة والعلّة في أفعال الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾.
- ٥٥- إثبات لقاء الله تعالى، والتقاء الخلائق بعضهم ببعض؛ للفصل بينهم.
- ٥٦- بروز الخلائق كلهم يوم القيامة في صعيد واحد، لا يخفى على الله منهم شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزَخُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾.
- ٥٧- ظهور تفرده عز وجل بالملك يوم القيامة تمام الظهور، ملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ﴾.
- ٥٨- إثبات اسم الله: «الواحد»، وأنه سبحانه ذو الوحدانية في ألوهيته، وربوبيته، وأسمائه وصفاته؛ لقوله تعالى: ﴿الْوَحِيدِ﴾.
- ٥٩- إثبات اسم الله «القهار»، وأنه عز وجل ذو القهر والغلبة، الذي ذلت لقهره وغلبته جميع المخلوقات والكائنات؛ لقوله تعالى: ﴿الْقَهَّارِ﴾.

٦٠- في اقتران اسميه عز وجل: «الواحد» و«القهار» إشارة إلى تلازم هذين الوصفين في حقه عز وجل، فمن لازم وحدانيته كونه القهار، ومن لازم كونه القهار كونه «الواحد».

٦١- إثبات مجازاة كل نفس يوم القيامة بعملها وكسبها، خيرًا كان أو شرًا؛ لقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾.

٦٢- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾، دون أن يقول: بجزاء ما كسبت، مع أن المراد مجازاتها بجزاء ما كسبت.

٦٣- أن حديث النفس لا يجازى عليه؛ لأنه ليس بكسب؛ لأن الكسب يكون بالقول والعمل، وقد قال ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»^(١).

٦٤- انتفاء الظلم يوم القيامة انتفاء تامًا، فلا أحد يُظلم شيئًا مهما قل؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تُظْلَمُ الْيَوْمَ﴾.

٦٥- إثبات كمال عدل الله تعالى في مجازاته للخلائق.

٦٦- سرعة حسابه عز وجل للخلائق؛ لأن حسابه آتٍ قريب، ولعلمه التام بالخلائق، وأعمالهم وجزائهم، ولأن الإنسان قد يجد شيئًا من جزاء عمله عاجلاً في الدنيا، ولغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

* * *

(١) سبق نخبه.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَنَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْزَاقِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَّا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾ .

قوله: ﴿ وَأَنْذَرَهُمْ ﴾، أي: وأنذر يا محمد الناس، أي: حذرهم وخوفهم.

﴿يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾، أي: يوم القيامة وأهواله وشدائده وعذابه.

وسميت القيامة بـ«الأرزاق»؛ لاقترابها ودنوها؛ كما قال تعالى: ﴿ أَرَفَتِ الْأَرْزَاقُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النجم: ٥٧]، أي: قربت القيامة وأن قيامها ووقوعها، وقال تعالى: ﴿ أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ ﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿ أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿ أَنْ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعِطُوهُ ﴿١﴾ ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيَّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الملك: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى: ١٧].

فالقيامة قريبة مهما طال الوقت؛ لأنها آتية، وكل آتٍ قريب؛ كما أن كل ماضٍ بعيد؛ لأنه لا يمكن أن يرجع.

﴿إِذِ الْقُلُوبُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ الْأَرْزَاقِ﴾، أي: حين القلوب من شدة الخوف والروع والكره.

﴿لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾، أي: قد ارتفعت عند الحناجر والحلق؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذِ

زَاعَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴿الأحزاب: ١٠﴾.

و«الحناجر»: جمع «حنجرة»، وهي ما بين الترقوتين.

﴿كَظْمِينَ﴾ حال، أي: ممتلئين غمًا وهمًا.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ﴾ بالشرك والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾

[لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

﴿مِنْ حَمِيمٍ﴾، أي: من قريب أو صديق وصاحب ينتصر لهم.

﴿وَلَا شَفِيعَ﴾، أي: ولا شفيع يشفع لهم، فيخلصهم من عذاب الله؛ كما حكى تعالى

عن الظالمين قولهم: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ ﴿١٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١].

والشفيع: من يتوسط للغير لطلب منفعة، أو دفع مضرة.

﴿يُطَاعُ﴾ جملة فعلية في محل جر صفة ل«شفيع»، والمعنى: ولا شفيع مطاع.

وهذه الصفة يحتمل أن تكون بيانًا للواقع، والمراد: نفي الشفيع، أي: ليس لهم

شفيع مطلقًا.

ويحتمل أن يكون المعنى: لو قدر أن لهم شفعاء كما يزعمون، فإن هؤلاء الشفعاء لا

يطاعون؛ لأنه لا بد في الشفاعة من إذن الله للشافع، ورضاه عن المشفوع له.

﴿يَعْلَمُ﴾، أي: يعلم عز وجل ﴿خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾؛ من إضافة الصفة إلى الموصوف،

أي: يعلم الأعين الخائنة، وخيانة الأعين: مسارتها النظر إلى الشيء المحرم خفية عن

الآخرين.

﴿وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾، أي: ويعلم ما تخفيه وتكنه الصدور والقلوب من الأسرار

والمضمرات في المعتقدات وغير ذلك.

﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾، أي: يحكم بالحق في جميع أحكامه: القدرية والشرعية

والجزائية، فما قدره فهو حق، وما شرعه فهو حق، وما جازى به العباد على أعمالهم فهو

حق، وقوله حق، وفعله حق، وهو الحق سبحانه وتعالى.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾: قرأ نافع وهشام عن ابن عامر بالخطاب: «تدعون»،

وقرأ الباقون بالغيب: ﴿يَدْعُونَ﴾.

أي: وجميع الذين يدعوهم ويعبدهم المشركون من دون الله، أي: غير الله، من الأصنام وغيرها.

﴿لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾ «شيء»: نكرة في سياق النفي، أي: لا يقضون بأي شيء مهما كان؛ لا بحق ولا بباطل؛ لعجزهم التام، وعدم استطاعتهم فعل أي شيء، أي: فكيف يدعونهم ويعبدونهم من دون الله؟!

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ﴾ وحده ﴿الَسَّمِيعُ﴾، أي: ذو السمع الواسع الذي يسمع الدعاء ويحييه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات.

﴿الْبَصِيرُ﴾ الذي أحاط بصراً وعلماً بكل شيء.

قوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاكْفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾﴾

قوله: ﴿أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الاستفهام: للتقرير والإنكار، أي: أولم يسر هؤلاء المشركون المكذبون برسالتك يا محمد في الأرض بأبدانهم على أقدامهم؟

﴿فَيَنْظُرُوا﴾، أي: فينظروا بأبصارهم، ويعتبروا ويتفكروا بقلوبهم.

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، أي: كيف كانت نهاية الذين كانوا من قبلهم من الأمم المكذبة لأنبياء الله، وما حل بهم من العذاب والعقوبات والهلاك والحزى والفضيحة بسبب تكذيبهم لرسول الله؛ كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْمُكْفِرِينَ مُتْلُهَا ﴿١١﴾﴾ [محمد: ١٠].

﴿كَانُوا هُمْ﴾، أي: كان أولئك المكذبون من الأمم السابقة.

﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ﴾: قرأ ابن عامر بكاف الخطاب: «منكم»، وقرأ الباقون بهاء الغيبة:

﴿مِنْهُمْ﴾، أي: أشد من المكذبين له ﷺ، من كفار قريش وغيرهم.

﴿قُوَّةً﴾ في كبر الأجسام وقوتها، وفي العدد والعدة، وغير ذلك؛ كما قال تعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ ﴿١٤﴾ ﴾ [الفجر: ٦-١٤].

﴿وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ ﴾ من العمران والغراس، واتخاذ المصانع، وبناء المعالم، ونحت البيوت من الجبال، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ بَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأنعام: ٦].

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ الباء: للسببية، أي: فأهلكهم الله بسبب ذنوبهم؛ لتكذيبهم رسل الله وكفرهم وتوليهم، ولم تنفعهم شدة قوتهم، وأثارهم في الأرض.

﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ﴾، أي: وما كان لهم من الله ومن عذابه ﴿مِنَ الْوَاقِ ﴾.

«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي.

أي: وما كان لهم من الله من أيِّ واقٍ يقيهم عذابه، فيدفعه ويمنعه عنهم قبل نزوله، أو يرفعه بعد نزوله؛ كما قال نوح عليه السلام لابنه لما قال: ﴿سَتَأْتِيَ إِلَىٰ جِبَلٍ يَّعِصْمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾، قال له عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ ﴾ [هود: ٤٣].

﴿ذَلِكَ ﴾ الإشارة تعود إلى أخذه عز وجل إياهم بذنوبهم، ﴿بِأَنَّهُمْ ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب أنهم:

﴿كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾، أي: بالآيات البينات، والدلائل الواضحات، والبراهين الساطعات، والحجج القاطعات، على وجوب الإيمان بالله وعبادته وحده.

قال ﷺ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتهُ وَحِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨١، ومسلم في الإيمان ١٥٢؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿فَكْفَرُوا﴾ الفاء: للتعقيب، أي: فكفروا بالله تعالى، وأشركوا معه غيره، وكذبوا رسله، وجحدوا ما جاؤوهم به من الآيات البينات، من غير تأمل ولا نظر.

﴿فَأَحْذَهُمُ اللَّهُ﴾، أي: فأهلكهم الله.

﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾، أي: ذو قوة عظيمة كاملة تامة.

﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، أي: ذو العقاب الشديد المؤلم الموجه، الذي لا عقاب أشد منه، ولا طاقة لأحد به؛ كما قال تعالى: ﴿فِيَوْمٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابُهُ أَحَدًا ۗ وَلَا يُوثِقُ وِثْقَاهُ ۗ أَحَدًا ۗ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦].

و﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: عقابه شديد.

الفوائد والأحكام:

١- أن من أعظم ما كلف الله به الرسول ﷺ وغيره من الرسل: إنذار الناس وتخويفهم يوم القيامة وشدائده وأهواله وعذابه، ووجوب الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَزْفَةِ﴾.

٢- قرب القيامة ودنوها؛ لهذا سميت الأزفة؛ لقرب قيامها ووقوعها.

٣- شدة أهوال القيامة، وبلوغ القلوب فيها الحناجر من شدة الروع والكرب والخوف؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾.

٤- امتلاء القلوب غمًا وهمًا في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿كَظِيمٍ﴾.

٥- تقطع الأسباب بالظالمين بالكفر والشرك في ذلك اليوم، فلا قريب أو صديق ينتصر لهم؛ فيخلصهم من العذاب، ولا شفيع يشفع لهم فيطاع؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾.

٦- ثبوت الشفاعة للمؤمنين بإذن الله تعالى ورضاه؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿مَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، فنفاها عن الظالمين الكافرين، ومفهوم هذا: ثبوتها للمؤمنين.

٧- سعة علم الله عز وجل بكل شيء مهما دق وخفي، فيعلم خائنة الأعين ومسارقتها النظر إلى ما لا ينبغي، ويعلم ما تكنه الصدور والقلوب؛ لقوله تعالى:

﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (١٩).

٨- وجوب مراقبة الله تعالى في السر والعلن، في لحظات الأعين، ومضمرات الصدور، وفي كل شيء.

٩- امتداح الله تعالى لنفسه لقضائه وحكمه بالحق في جميع أحكامه الكونية والشرعية والجزائية؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾.

١٠- ذم الأصنام والأوثان والأنداد التي يعبدها المشركون من دون الله، وأنهم لا يقضون بشيء؛ لعجزهم التام وضعفهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا﴾.

١١- تسفيه عقول المشركين؛ حيث يعبدون من دون الله معبودات لا تقضي لهم بشيء، ولا تملك نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

١٢- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه عز وجل ذو السمع الواسع، يسمع الدعاء ويحييه، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ﴾.

١٣- إثبات اسم الله: «البصير»، وأنه سبحانه قد أحاط بصرا وعلما بكل شيء.

١٤- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وصفتي السمع الواسع لجميع الأصوات، والبصر المحيط بكل شيء في حقه عز وجل، كمال إلى كمال.

١٥- تقرير المشركين المكذبين للنبي ﷺ بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم بأبصارهم آثار ما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات بسبب ذنوبهم، والإنكار عليهم، كيف لا يعتبرون ولا يتعظون بسوء عاقبة أولئك الأقوام؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَيْبَسُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ﴾.

١٦- أن أولئك الأقوام مع ما كانوا عليه من شدة قوتهم، وعظم آثارهم في الأرض، لم ينفعهم ذلك، ولم يدفع عنهم عقاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَّاقٍ﴾.

وفي هذا تهديد للمكذبين للنبي ﷺ، الذين هم أضعف بكثير من أولئك المهلكين.

١٧- أن عذاب الله تعالى إذا نزل فلا وافي منه، ولا دافع له، ولا رافع له من دونه؛

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ﴾ [الرعد: ١١].

١٨- ينبغي النظر والتأمل والاعتبار فيما حل بالمكذبين من العقوبات، والسعيد من وعظ بغيره.

١٩- أن سبب أخذ الأمم السابقة وإهلاكهم: ذنوبهم وكفرهم بالله، وتكذيبهم رسله، وجحودهم لما جاؤوهم به من الآيات البيّنات؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا﴾.

٢٠- إقامة الحجة على الأمم المكذبة بإرسال الرسل وإنزال الآيات البيّنات عليهم.

٢١- إثبات الأسباب وأثرها في المسببات بإذن الله تعالى، وإثبات الحكمة والعلّة في أفعال الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا﴾.

٢٢- إثبات كمال عدل الله تعالى، وأنه لا يؤاخذ أحداً إلا بذنب.

٢٣- إثبات كمال قوة الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ قَوِيٌّ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

اللَّهُ هُوَ الرِّزَاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

٢٤- شدة عقاب الله تعالى لمن عصاه، فلا عقاب أشد منه، ولا طاقة لأحد به؛

لقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

٢٥- ينبغي الحذر من مخالفة أمر الله تعالى؛ لأنه قوي شديد العقاب.

* * *

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٧﴾ يَقُولُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَضُرُّنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٢٩﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ وَيَقُولُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ ﴿٣١﴾ يَوْمَ تَوَلَّوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لِهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقٌّ إِذَا هَلَكَ قَلْبُكُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٣﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٤﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَجَنَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَابٌ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيَّتِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٦﴾.

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾ البيئات، ودلائلنا الواضحات؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١].

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾، أي: وحجة بينة، وبرهان ظاهر دال على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من الحق، من ذلك: العصا، والحية، وغير ذلك من الآيات والحجج

والدلائل التي أيد الله بها موسى عليه السلام.

﴿إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ وهو ملك القبط في مصر.

﴿وَهَمَنْ﴾ وزير فرعون في مملكته.

﴿وَقَرُونُ﴾ وهو رجل من قوم موسى، آتاه الله الأموال والكنوز، من الذهب

والفضة، ففرح بذلك فرح اختيال وبطر، وأفسد في الأرض، وكفر نعمة الله، ونسبها

إلى نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ قَرُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا

إِنْ مَفَاتِحُهُ لِنُورٍ بِالْعُسْبَكَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ

فِيمَا ءَاتَيْنَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ

إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ فُتُورًا فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴿٧٨﴾

[القصص: ٧٦-٧٨] فحسب الله به وبداره الأرض؛ كما قال تعالى: ﴿فَحَسِبْنَا بِهِ بِدَارِهِ

الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٨١].

﴿فَقَالُوا﴾، أي: فقال فرعون ووزيره هامان وقارون صاحب الكنوز لموسى:

﴿سَجِرْ كَذَابٌ﴾، أي: هو ساحر كذاب، أي: هو ساحر في آياته، كذاب في دعواه

الرسالة؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجُنٌّ ﴿٥٢﴾

أَتَوَصَّوْا بِهِ بِبَلِّهِمْ قَوْمٌ طَاعُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات: ٥٢، ٥٣].

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾ الباء: للمصاحبة والملابسة، أي: فلما جاءهم موسى

بالحق والصدق الذي أرسلناه به من عندنا، وهو توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه

وصفاته، الذي عجزوا أن يدحضوه بحججهم الباطلة، لجؤوا إلى الوعيد والتهديد بالقوة.

﴿قَالُوا أَقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾، أي: لم يكتفوا بمجرد رميه بالسحر

وتكذيبه، وصد الناس عنه، بل أمروا بقتل أبناء الذين آمنوا معه من بني إسرائيل؛

تنكيلاً بهم، أي: اقتلوا أبناءهم الذكور.

﴿وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾، أي: واستبقوا نساءهم، أي: الإناث.

وهذا أمر ثانٍ من فرعون بعد بعثة موسى، غير الأمر الأول الذي كان قبل بعثة

موسى، وكان القصد من الأمر الأول: الاحتراز من وجوده، مع إذلال بني إسرائيل،

وتقليل عددهم.

وهذا الأمر الثاني؛ لإهانة بني إسرائيل وإذلالهم، وتقليلهم، ولكي يتشاءم بنو إسرائيل بموسى عليه السلام؛ ولهذا قالوا: ﴿قَالُوا أَوْزِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ [الأعراف: ١٢٩].

﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ﴾، أي: وما مكر الكافرين وخداعهم، وتدبيرهم الخفي والجلي في تكذيب رسل الله واتهامهم بالسحر، ورد الحق وإبطاله. وأظهر في مقام الإضمار، ولم يقل: وما كيدهم؛ لتسجيل وصفهم بالكفر، وليشملهم هذا الحكم هم وغيرهم من الكفار.

﴿إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا في ضياع واضمحلال، وذهاب وهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا آءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ آءِذَا لَفِيَ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [السجدة: ١٠].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرُوْنِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ «أقتل»: فعل مضارع مجزوم بالسكون، جواب الأمر «ذروني»، أي: اتركوني أقتل موسى.

وهذا من فرعون من باب التمويه؛ كأن الناس يمنعونه من قتل موسى، مع أنه لا يستطيع أحد منهم منعه من ذلك، كيف وهو يقول لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] ولكنه يموه ويكذب على الناس بقوله: ﴿ذُرُوْنِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾؛ لأنه لا يستطيع قتله.

﴿وَلِيَدْعُ رَبَّهُ﴾ الواو: عاطفة، واللام: لام الأمر، و«يدع»: فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة الواو. والأصل: «يدعو».

أي: وليدع ربه إن كان صادقاً؛ ليمنعه مني. وفي هذا تحذُّ سافر لموسى، ولربه عز وجل الذي أرسله، وجرأة وسوء أدب، يدل على شدة تمرد فرعون وعتوه وعناده.

وقوله: ﴿رَبَّهُ﴾، ولم يقل: ربنا؛ لأنه ينكر ربوبية الله ظاهراً، ويزعم أنه هو الرب الأعلى.

وإنما أضاف الربوبية لموسى من باب التبيكيت والتحقير؛ كأنه يقول لموسى: هذا ربك الذي زعمت، إن كنت صادقاً فليمنعك مني.

﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب

مفعول به لـ «أخاف»، أي: أخاف أن يبذل موسى دينكم فتركوا عبادتي وتعبدوا رب موسى، أي: يخاف من موسى أن يرد الناس إلى الدين الحق، وهو عبادة الله وحده، وترك الدين الباطل وهو عبادة فرعون.

﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾: قرأ حمزة والكسائي وعاصم ويعقوب بزيادة همزة مفتوحة قبل الواو وإسكان الواو: ﴿أَوْ أَنْ﴾.

والمعنى على هذه القراءة، أي: إني أخاف منه أحد الأمرين: إما تبديل دينكم، وإما إظهار الفساد في الأرض، ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى الواو، فتكون بمعنى القراءة التي بعدها.

وقرأ الباقر وغير ألف: «وَأَنْ يُظْهِرَ»، والمعنى: إني أخاف أن يحصل منه الأمران: تبديل دينكم، وإظهار الفساد في الأرض.

ومؤدى القراءتين واحد؛ لأن القراءتين بمثابة آيتين، فيكون فرعون خاف من موسى الأمرين.

وقرأ نافع وأبو جعفر وأبو عمرو ويعقوب وحفص: ﴿يُظْهِرَ﴾ بضم الياء وكسر الهاء ونصب ﴿الْفَسَادَ﴾، والتقدير: أو أن يظهر - يعني: موسى - في الأرض الفساد.

وقرأ الباقر: ﴿يُظْهِرَ﴾ بفتح الياء والهاء، و«الْفَسَادُ» بالرفع فاعل. والفساد على زعم فرعون: هو صرف الناس عن عبادته إلى عبادة الله تعالى هذا من وجه، ومن وجه آخر: تفريق الناس، فيكون بعضهم تابعاً له، وبعضهم تابعاً لموسى؛ مما يسبب الاختلاف وربما الاقتتال.

وهذا من أعجب وأشد ما يكون في قلب الحقائق، ولا ينطلي إلا على من أعمى الله بصيرته ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَأَسْتَحَفَّ قَوْمَهُ، فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [الزخرف: ٥٤].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أي: وقال موسى لما بلغه قول فرعون: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾، قال: ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، أي: استجرت واعتصمت بربي وربكم.

وخطاب موسى يحتمل أنه لقومه، أو لفرعون وقومه.

وفي قوله: ﴿بَرِّقَ وَرَبَّكُمْ﴾ بيان منه عليه السلام: أن ربه هو رب الجميع، لا كما قال فرعون: ﴿وَلَيْدَعُ رَبِّي﴾ إنكاراً لربوبية الله، وزعماً منه أنه هو ربهم؛ كما قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤].

﴿مَنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ عن قبول الحق وعلى الخلق، طاغٍ عاتٍ، قال ﷺ: «الكبر: بطر الحق، وغمط الناس»^(١)، أي: رد الحق، واحتقار الناس.

﴿لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾، أي: لا يصدق بيوم القيامة، وما فيه من الحساب والجزاء على الأعمال.

وأول من ينطبق عليه هذا الوصف فرعون وقومه.

وفي هذا تطمين من موسى عليه السلام لبني إسرائيل، وتسكين لهم؛ لإشفاقهم عليه من بطش فرعون، وقد أعاده وحفظه.

عن أبي موسى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قومًا قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم، وندراً بك في نحورهم»^(٢).

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾، أي: مؤمن بالله، مصدق بما جاء به موسى من الحق، ولم يعين هذا الرجل باسمه؛ لأنه لا يترتب عليه فائدة.

﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾، أي: من قرابة فرعون، أو من قومه القبط، قال ابن عباس

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة، ما يقول إذا خاف قومًا ١٥٣٧، وأحمد ٤ / ٤١٤، ٤١٥.

رضي الله عنهما: «لم يكن في آل فرعون مؤمن غيره، وغير امرأة فرعون، وغير المؤمن الذي أنذر موسى عليه السلام، الذي قال: «إن الملائمة يأترون بك ليقتلوك»^(١).

﴿يَكْفُرُ إِيمَانَهُ﴾، أي: يخفي إيمانه عن فرعون وقومه خوفاً منهم، ولكنه لما وصل الأمر بفرعون إلى العزم على قتل موسى أظهر إيمانه، وانبرى للدفاع عن موسى عليه السلام؛ غضباً لله تعالى، ونصرة للحق، وقد قال النبي ﷺ: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»^(٢).

﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الاستفهام: للإنكار عليهم، وهذا من أول ألطاف الله بموسى، وحفظه له وإعادته أن سخر له هذا الرجل المؤمن.

و«أن» والفعل «يقولون» في تأويل مصدر في محل جر بلام مقدر، أي: أتقتلون رجلاً؛ لقوله: ربي الله، أي: بسبب قوله: ربي الله، أي: كيف تقتلون رجلاً لم يرتكب جرماً، إلا أنه يقول: ربي الله؟! وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

وقوله: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا﴾، ولم يقل: أتقتلون موسى؛ إبعاداً للتهمة عن نفسه؛ لئلا يُظن أنه يعرف موسى، ويدافع عنه عن معرفة.

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الواو: حالية، والباء للمصاحبة، أي: والحال أنه قد جاءكم بالبينات، أي: بالآيات البينات، والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات، من ربكم على صدق رسالته، وصحة ما جاء به من الحق.

عن عروة بن الزبير، قال: سألت عبدالله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: «رأيت عقبة بن أبي معيط جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه، فقال: ﴿أَنْقَتُلُونَ

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٢٦٦.

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم، الأمر والنهي ٤٣٤٤، والترمذي في الفتن، أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر ٢١٧٤، وابن ماجه في الفتن، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ٤٠١١ - من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴿١﴾.

وقد فاق أبو بكر رضي الله عنه مؤمن آل فرعون من جهتين:

الأولى: أن دفاعه رضي الله عنه كان عن أفضل الخلق وسيد ولد آدم ﷺ، وديفاع مؤمن آل فرعون عن موسى عليه السلام، وهو في المرتبة الثالثة بعد نبينا وإبراهيم عليهم السلام.

الثانية: أن مؤمن آل فرعون كان يكتفم إيمانه، بينما أظهر أبو بكر إيمانه رضي الله عنهما.

﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ، وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.

هذا تنزل من هذا الرجل المؤمن معهم في المخاطبة لاستمالتهم واستعطفهم، لعلهم ينظرون في آيات موسى، ولا يعجلوا في قتله، ولا في اتباعه، وليس شكاً منه في صدق موسى عليه السلام.

أي: فإن يك كاذباً في دعواه الرسالة وصدقتموه فعليه ضرر كذبه، ولا يضركم ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ﴾ [الزمر: ٣٢].

﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾، أي: وإن يكن صادقاً في رسالته، وكذبتموه ﴿يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، أي: يصيبكم بعض الذي يتوعدكم به من العذاب، عاجلاً وأجلاً.

وقدم احتمال كذبه على احتمال صدقه تنزلاً ثانياً معهم، وزيادة في التباعد عن ظنهم أنه يريد الانتصار لموسى، فأراد أن يظهر بمظهر المهتم بأمرهم ابتداءً، وتنزل معهم ثالثاً، فلم يقل: يصيبكم الذي يعدكم، بل قال: بعض الذي يعدكم، وهذا من حسن عقله، وتلفظه في دفعه عن موسى عليه السلام.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ الجملة: تعليلية، أي: إن الله لا يوفق الذي هو ﴿مُسْرِفٌ﴾، أي: متجاوز الحد في أقواله وأفعاله.

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٢٦٧٨.

﴿كَذَّابٌ﴾ ذو كذب، أو كثير الكذب.

وهذا ذم لفرعون؛ لأن هذا الوصف ينطبق عليه؛ فإنه مسرف متجاوز للحد، كذاب مدّع للربوبية والألوهية؛ ولهذا فهو أبعد الناس عن هداية الله وتوفيقه.

ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾: الشهادة لموسى بالصدق، وأنه لو كان مسرفاً كذاباً لما هداه الله وأرشده ووفقه إلى ما جاء به من الحق الظاهر بالآيات البيّنات، والحجج والبراهين القاطعات؛ لأن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب، فانتقل هذا الرجل المؤمن رحمه الله من التنزلات السابقة في وصف موسى إلى قرب التصريح بأنه على الحق والهدى، ثم انتقل بعد ذلك إلى ما هو أبين وأوضح وهو تخويفهم زوال ملكهم، وعذاب الدنيا والآخرة إن ردوا دعوة موسى ولم يتبعوه، فقال: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾.

بعدهما أنكر عليهم قتل موسى بلا مبرر ولا سبب يوجب ذلك، ولح لهم بأن موسى على الحق والهدى، أتبع ذلك بتذكيرهم ما هم فيه من نعمة الملك والظهور في الأرض، ومحذراً من زوالها وحلول عذاب الله فيهم.

قوله: ﴿يَقَوْمِ لَكُمْ أَلْمَلِكُ الْيَوْمَ﴾، أي: لكم الملك الآن.

﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ «ال»: للعهد الذهني، أي: غالبين عالين في أرض مصر على

أهلها، لكم التصرف التام والتدبير فيها.

وفي هذا من حسن الخطاب والتودد إلى قومه، والإشارة إلى التخوف من زوال ملكهم في المستقبل إن لم يشكروا- ما لا يخفى.

﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«من»: اسم

استفهام بمعنى النفي، أي: فمن الذي ينصرنا من عذاب الله، أي: فمن الذي يدفع عنا عذاب الله ويمنعنا منه في الدنيا والآخرة؟ ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾، أي: إن نزل بنا بسبب كفرنا وقتلنا لأوليائه، أي: لا أحد يدفع عنا عذاب الله ويمنعنا منه إن جاءنا، حتى ولو كنا اليوم ظاهرين في الأرض، وكنا ملوكاً، فكل ذلك لا ينفع ولا يدفع.

وفي قوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ تنزل معهم؛ حيث جعل الأمر

مشاركاً بينه وبينهم بقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا﴾، وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾؛ ليفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضى لنفسه.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ معارضاً لقول الرجل المؤمن، ومغرراً بقومه.

﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ «ما» الأولى: نافية، والثانية: موصولة، أي: ما أريكم وما أختار لكم إلا الرأي الذي أراه وأختاره لنفسي، وما أشير عليكم إلا بما أراه هو الحق. وصدق في أنه لا يشير عليهم إلا بما يراه، وهو الاستخفاف بهم، والغش لهم، والكذب عليهم؛ ليؤمنوا بربوبيته وألوهيته، لتبقى رياسته وملكه.

وكذب في زعمه أنه ما يريهم إلا ما يراه حقاً، وما يهديهم إلا سبيل الرشاد، بل إنه يعلم أن ما هو عليه هو الباطل، وأن ما جاء به موسى هو الحق، لكنه غش رعيته، وما نصحهم؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾، أي: وما أدلكم ﴿إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا إلى طريق الحق والرشد والصواب والسداد.

وكذب أيضاً في هذا؛ فهو إنما يدعوهم إلى طريق الغي والضلال والفساد؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَاهَدَى﴾ ﴿٧٦﴾ [طه: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ بِقَوْمِ إِبْنِ آخَافٍ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوْحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِبْنِ آخَافٍ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُولَدُونَ مُدْرِبِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ ﴿٣٥﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ﴾ قال قبل هذا: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ﴾، وقال هنا وفي الذي

بعده: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ﴾ تحقيقاً لإيانه، وأنه مؤمن حقاً.

﴿يَنْقُومِ رَبِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ الْأَحْزَابِ﴾ كرر دعوة قومه رجاء أن يهديهم الله،

غير آيس من هدايتهم.

﴿يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ «يوم» اسم جنس، أي: مثل أيام الأحزاب، أي: أيام وقائع الله

تعالى فيهم، وعقوباته إياهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا

مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢].

والأحزاب: جمع حزب؛ يعني: المكذبين من الأمم السابقة، الذين تحزبوا

واجتمعوا على تكذيب أنبيائهم وعداوتهم، ورد ما جاؤوا به من الحق.

﴿مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ «مثل»: بدل من «مثل» التي قبلها،

أي: مثل عادة قوم نوح، وعادة عاد وثمود، أي: مثل عادة هؤلاء الأقوام بالكفر

والتكذيب؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَّابٍ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

[الأنفال: ٥٢] وفي الآية الأخرى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٤].

أي: مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم بالكفر والتكذيب، وعادة

الله بهم بأخذهم بالعقوبات العاجلة في الدنيا قبل الآخرة، أي: إني أخاف أن يحل بكم

مثل ما حل بأولئك الأقوام من العقوبات.

وذكر قوم نوح؛ لأنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض، ﴿وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾؛ لأنها

بعد قوم نوح.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ «ظلمًا»: نكرة في سياق النفي، فتعم نفي أيّ ظلم مهما قل،

أي: وما الله يريد أيّ ظلم للعباد، فلا يعذبهم إلا بذنب أذنبوه، وجرم أسلفوه؛ كما قال

تعالى: ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ

وَمِنْهُمْ مَنْ حَسَفْنَا بِهِ الْآرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَفْنَا وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن

كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿وَيَنْقُومِ رَبِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّادِ﴾ ﴿٣٣﴾ قرأ ابن كثير بإثبات الياء على الأصل:

«النَّادِي»، وقرأ الباقون بدون ياء: ﴿النَّادِ﴾.

﴿يَوْمَ النَّادِ﴾: يوم القيامة، فبعد أن خوفهم العقوبات الدنيوية خووفهم العقوبات الأخروية، أي: إني أخاف عليكم يوم القيامة وما فيه من الأهوال والعذاب.

وسمي يوم القيامة: يوم التناد؛ لمناداة الناس فيه بعضهم بعضاً، ففيه ينادي أهل الجنة أهل النار، وينادي أهل النار أهل الجنة، وينادي أصحاب الأعراف أهل الجنة وأهل النار، وينادي أهل النار ربهم لإخراجهم منها، وينادي كل قوم بأعمالهم، وينادي الشركاء شركاءهم، وغير ذلك؛ كما دل على ذلك القرآن والسنة.

﴿يَوْمَ تُولُونَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ النَّادِ﴾، و«التولي»: الرجوع.

﴿مُدْبِرِينَ﴾ حال مؤكدة لعاملها؛ لأن التولي هو الإدبار، أي: يوم تولون وترجعون حال كونكم مدبرين، أي: تولون مدبرين إلى النار.

﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: ما لكم من الله ومن بأسه وعذابه ﴿مِنْ عَاصِرٍ﴾.

«من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لكم من الله أي عاصم، أي: أي مانع يمنعكم من عذاب الله، ويرده عنكم، لا من أنفسكم قوة تدفعون بها عذاب الله، ولا ينصركم من دونه أحد؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْلَى السَّرَّابِرُ ٩﴾، ﴿فَأَلَّهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ١٠﴾ [الطارق: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُجُ ١١﴾، ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ١١﴾ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ١٢﴾ [القيامة: ١٠-١٢].

﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾، هذا محتمل أنه من تنمة كلام الرجل المؤمن، ويحتمل أن يكون مستأنفاً من كلام الله، أي: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾ كوناً وقدراً بحكمته وعدله.

﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من» كالتي قبلها، أي: فما له أي هاد يهديه من بعد الله؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِي لَهُ، وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٨٦﴾ [الأعراف: ١٨٦].

وقول هذا الرجل في ختام نصحه لقومه: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ﴾، أي: إني قد بذلت النصح لكم، والهداية بيد الله، فمن يهد الله فلا مضل له، ومن يضل الله فما له من هادٍ.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ﴾ هذا من كلام الرجل المؤمن لقومه، أي: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ﴾، أي: جاء أسلافكم ﴿يُوسُفُ﴾، أي: يوسف بن يعقوب عليهما السلام.

﴿مِنْ قَبْلُ﴾، أي: من قبل بعثة موسى بزمن بعيد.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾، أي: بالآيات البينات، والدلائل والحجج الواضحات، على صدقه، وصحة ما جاء به من الدعوة إلى عبادة الله تعالى وحده.

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ﴾، أي: فما زلتُم في ريب ﴿مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾، أي: من الذي جاءكم به يوسف من الرسالة منذ بعثته فيكم إلى زمن موسى وآل فرعون، فلم يصدقه في رسالته سلفهم ولا خلفهم، ولم يؤمنوا به.

﴿حَقَّ إِذَا هَلَكَ﴾، أي: مات ولم يعقب ذرية، ﴿فَلْتُمْ﴾، أي: من غير دليل ولا برهان، بل بناءً على أمانيتكم الكاذبة: ﴿لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾، أي: قالت لكم نفوسكم: استرحتم وكفيتم، هلك من أرسل إليكم فكذبتموه وتوعدكم، فاطمئنوا؛ لن يبعث الله من بعده رسولاً، أي: فلن تزالوا كافرين بيوسف وغيره من الرسل بعده.

قال ابن كثير^(١): «يعني: أهل مصر قد بعث الله فيهم رسولاً من قبل موسى وهو يوسف عليه السلام، كان عزيز أهل مصر، وكان رسولاً يدعو إلى الله أمته القبط، فما أطاعوه تلك الساعة إلا للمجرد الوزارة والجاه الدنيوي؛ ولهذا قال: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَقَّ إِذَا هَلَكَ فَلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾».

﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ﴾، أي: مثل ذلك يضل الله ﴿مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ متجاوز الحد إلى الكفر والشرك، ﴿مُتْرَابٌ﴾، أي: شاك، راكن للشك والريبة، مكذب بالحق.

﴿الَّذِينَ يُجَدِّدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: يخاصمون ويحاجون في آيات الله، ودلائل وحدانيته في ربوبيته وألوهيته، وأسمائه وصفاته؛ لردّها وإبطالها.

﴿بِعَيْرِ سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ﴾، أي: بغير حجة، ولا برهان جاءهم، ولا دليل.

(١) في «تفسيره» ٧ / ١٣٣.

وهذا القيد لبيان الواقع فلا مفهوم له؛ لأن المجادلين في آيات الله لردّها وإبطالها لا يمكن أن يكون لهم سلطان مطلقاً.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ «مقتاً»: تمييز، والمقت: البغض الشديد، أي: عظم بغضا عند الله الجدال في آيات الله بغير سلطان.

﴿وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: وكبر مقتاً عند الذين آمنوا هذا الفعل، أي: الجدال في آيات الله بالباطل؛ لأنهم يمقتون ويبغضون كل ما مقته الله وأبغضه.

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ قرأ أبو عمرو: «قَلْبٍ» بتنوين الباء، وقرأ الباقون بغير تنوين: ﴿قَلْبٍ﴾.

أي: كما طبع الله، أي: ختم على قلوب هؤلاء المجادلين في آيات الله بغير سلطان، الذين يمقتهم الله أشد المقت، ويمقتهم المؤمنون، ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾، أي: يختم الله، ﴿عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ﴾ عن اتباع الحق، ومتكبر على الخلق محتقر لهم؛ كما قال ﷺ: «الكبر: بطر الحق، وغمط الناس»^(١)، أي: رد الحق وعدم قبوله، واحتقار الناس وازدراؤهم.

﴿جَبَّارٍ﴾ قاسي القلب، كثير الاعتداء على الخلق، وظلمهم بغير حق.

الفوائد والأحكام:

١- إثبات رسالة موسى عليه السلام وتأيده بالآيات البيّنات، والحجج والبراهين القاطعات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾^(٢٣).

٢- تكذيب فرعون وهامان وقارون وآل فرعون لموسى عليه السلام، وعنادهم ومكابرتهم، واتهامهم له بالسحر والكذب؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَقُرُونِ فَقَالُوا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾^(٢٤).

وفي هذا تسلية للنبي ﷺ تجاه تكذيب المشركين له، ووصفه بالسحر، وغير ذلك.

٣- اعترافهم في داخل أنفسهم بعجزهم عن مدافعة ما جاءهم به موسى من

(١) سبق تحريجه.

- الآيات والحجج والبراهين؛ ولهذا اتهموه بالسحر والكذب.
- ٤- التلازم بين السحر والكذب؛ لأن السحر كله مبني على الكذب.
- ٥- أن ما جاء به موسى عليه السلام إلى فرعون وملئه هو الحق من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا﴾.
- ٦- تنكيلهم بمن آمن من بني إسرائيل معه بقتل أبنائهم، واستحياء نسائهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَفْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ، وَأَسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ﴾.
- ٧- شدة حقدهم وعداوتهم للمؤمنين خاصة؛ لقولهم: ﴿أَفْتُلُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ﴾ الآية.
- ٨- أن الله قد يتلى المؤمنين بتسليط الكفار عليهم؛ لحكمة يعلمها من تمحيصهم، وغير ذلك.
- ٩- ضلال وضياع كيد الكافرين ومكرهم، كفرعون وقومه وغيرهم في تكذيب رسل الله، واتهامهم بالسحر ورد الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾، وفي هذا بشارة للمؤمنين، وتثبيت لقلوبهم، وتقوية لعزائمهم.
- ١٠- تهديد فرعون بقتل موسى عليه السلام، وعزمه على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾.
- ١١- تمويهه وخداعه للناس بقوله: ﴿ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ كأنهم يمنعونه، مع أنهم لا يستطيعون منعه؛ لعلمه بنفسه أنه لا يستطيع قتله.
- ١٢- شدة عتو فرعون وتمرده ومكابرتة، وتحديه لموسى وربّه؛ لقوله: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾.
- ١٣- معرفة فرعون في قرارة نفسه أن الدعاء سلاح المؤمن، وإن كابر وتحدى.
- ١٤- تخوف فرعون من موسى أن يبدل دين الناس، فيصرفهم عن عبادته إلى عبادة الله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾.
- ١٥- قلب فرعون للحقائق، وتغريه بقومه بزعمه الكاذب التخوّف من موسى أن يبدل دينهم، أو يظهر الفساد في الأرض؛ لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ

يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿١٦﴾.

١٦- أن الفساد في نظر فرعون وغيره من دعاة الكفر: هو ما خالف دينهم الباطل، ولو كان بالإيمان بالله.

١٧- لا عجب إذا كان فرعون- وهو أشد الناس كفرًا، وزعيم دعاة الكفر ورأس المفسدين في الأرض- يخاف من موسى رسول الله وكليمه أن يظهر الفساد في الأرض، فلا عجب أن يرفع أناس عقائدهم باسم الدين والإصلاح، وهم أفجر خلق الله وأشدهم فسادًا؛ كما يفعل المنافقون، وأهل البدع والأهواء من الرافضة والخوارج وغيرهم من غلاة أهل البدع.

١٨- قوة توكل موسى على ربه، واعتصامه واستجارته به من فرعون، ومن كل متكبر مكذب بالقيامة والمعاد، وطمأنته لبني إسرائيل بأن الله مجيره وحافظه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِّنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ ﴿١٧﴾.

١٩- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة لموسى عليه السلام، وللمؤمنين؛ لقوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾، ﴿رَبِّيَ اللَّهُ﴾، وقول فرعون قبل هذا: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾. ٢٠- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقول موسى: ﴿وَرَبِّكُمْ﴾ على اعتبار الخطاب لفرعون وقومه، وقوله: ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾. ٢١- ذم فرعون؛ لاتصافه بهذين الوصفين الذميين: التكبر، وعدم الإيمان بيوم الحساب.

٢٢- خطر الكبر، وأنه يحمل صاحبه على رد الحق، والتكذيب به، وإنكار البعث والحساب؛ لقول موسى: ﴿مِن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾. ٢٣- إثبات القيامة، والحساب، والجزاء على الأعمال.

٢٤- تسخير الله عز وجل ذلك الرجل المؤمن من آل فرعون، وإنكاره على فرعون أشد الإنكار ما عزم عليه من قتل موسى، وهذا من دلائل استجابة الله تعالى لموسى وإعادته إياه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ

رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴿٢٥﴾.

٢٥- فطنة هذا الرجل المؤمن في العدول عن التعيين في قوله: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا﴾، فلم يقل: أنقتلون موسى؟ لثلاثتهم بانحيازهم إليه، مع أنه آمن به ويعرفه.

٢٦- أن من كتب الله له الإيمان والهداية آمن واهتدى ولو كان من بين قوم كفار، فهذا الرجل وفقه الله للإيمان مع أنه في وسط قوم كلهم كفار.

٢٧- جواز كتمان المؤمن إيمانه إذا كان يخاف على نفسه.

٢٨- حرمة النفوس وعصمتها، فلا يجوز قتلها إلا بما يبيح ذلك شرعاً.

٢٩- شهادة هذا الرجل المؤمن من آل فرعون لموسى عليه السلام، بتبليغه رسالة ربه لفرعون وقومه، وإقامة الحجة عليهم بمجيئه إليهم بالآيات والبينات من ربهم؛ لقوله: ﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

٣٠- قوة إيمان هذا الرجل وشجاعته في الحق؛ لقوله لفرعون وقومه: ﴿وَقَدْ

جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، وهذا يتضمن إنكاره ربوبية فرعون، وإثبات أن لهم رباً سوى فرعون؛ كما يدل على قوة إيمانه قوله: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾. وفي هذا تحذير وتهديد لفرعون وقومه.

٣١- حكمة هذا الرجل المؤمن، وعقله، وبعد نظره؛ لتنزله في الخطاب مع قومه مرة تلو أخرى؛ عسى أن يتأملوا ويتفكروا فيما يدعوهم إليه موسى عليه السلام؛ لقوله: ﴿وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾.

فتنزل معهم في ذكر هذه المعادلة، مع أنه يعلم أن موسى صادق، وتنزل معهم أيضاً في تقديم احتمال كونه كاذباً؛ حتى لا يتهم بالانتصار لموسى، وتنزل معهم أيضاً في قوله: ﴿يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، ولم يقل: يصيبكم الذي يعدكم.

وفي هذا كله دلالة على جواز التورية.

٣٢- أن إثم الكاذب وضرر كذبه إنما يعود على نفسه، وأن خبر الصادق إذا كُذِّب

يعود ضرر تكذبه على من كذبه.

٣٣- ذم هذا الرجل المؤمن لفرعون؛ لقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ ومفهوم هذا: الشهادة بصدق موسى عليه السلام، أي: أنه لو كان موسى بهذا الوصف لما هداه الله ووفقه لبيان الحق على أحسن وجه وأتمه من غير اختلاف ولا اضطراب.

٣٤- الحذر من الإسراف والكذب؛ لأن ذلك سبب للحيلولة دون هداية الله وتوفيقه.

٣٥- الإشارة للتلازم- ولو من بعض الوجوه- بين الإسراف والكذب.

٣٦- تذكير هذا الرجل المؤمن لقومه ما هم فيه من نعمة الملك، والظهور في أرض مصر بلا منازع، وتحذيرهم من حلول عذاب الله فيهم، وزوال ملكهم، إن استمروا على مخالفة أمر الله، وتكذيب موسى؛ لقوله: ﴿يَقَوْمَ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَهَرْنَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾.

٣٧- أن الظهور والغلبة قد يكونان سبباً للأشر والبطر، ومخالفة أمر الله، وكفر نعمه، إلا من وفقه الله وهداه، وأن الكفر والمعاصي من أسباب زوال النعم.

٣٨- أنه لا دافع لعذاب الله إذا جاء، ولا رافع له إذا نزل.

٣٩- تنزل هذا الرجل في الخطاب مع قومه في قوله: ﴿فَمَنْ يَبْصُرْنَا﴾، وقوله: ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾؛ حيث جعل الأمر مشتركاً بينه وبينهم؛ ليُفهمهم أنه ينصح لهم كما ينصح لنفسه، ويرضى لهم ما يرضاه لنفسه.

٤٠- تمادي فرعون في غيه وطغيانه، والتمويه على قومه وخداعهم، والكذب عليهم وغشهم؛ لقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

وكذَّبَ وَاللَّهِ، فَمَا هَدَاهُمْ إِلَّا سَبِيلَ الضَّلَالِ وَالنَّارِ؛ كما قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ ﴿١٨﴾ [هود: ٩٨].

وفي الحديث: «ما من والٍ يلي رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته، إلا حرم

الله عليه الجنة»^(١).

٤١- شدة إشفاق هذا الرجل من عقاب الله تعالى، وخوفه على قومه، ومعرفة ما حل بالمكذبين قبلهم من العقوبات، وتحذيرهم من مثل تلك العقوبات؛ لقوله: ﴿يَنْقُومِ إِنْ أَحَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ الآية.

٤٢- أن سنن الله وعادته في إهلاك المكذبين ثابتة لا تتغير؛ كما أن دأب الأمم وعاداتهم تكذيب الرسل، وتقليد بعضهم بعضًا في ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾.

٤٣- ينبغي أخذ العظة والعبرة من أحوال السابقين وما حل بهم من العقوبات.

٤٤- أن الله لا يظلم أحدًا من خلقه أي ظلم مهملًا، ولا يريد ذلك؛ لقوله تعالى:

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾.

٤٥- إثبات كمال عدل الله تعالى؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال

ضدها.

٤٦- إثبات الإرادة الكونية لله تعالى؛ لمفهوم قوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فإذا

كان لا يريد ظلمًا للعباد، فإنه يريد العدل فيهم.

٤٧- إيمان هذا الرجل بيوم القيامة، وإشفاقه من أهواله وعذابه، وتخوفه على قومه

من ذلك؛ لقوله: ﴿وَيَنْقُومِ إِنْ أَحَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ﴾.

٤٨- مناداة الخلائق بعضهم بعضًا يوم القيامة، والمناداة عليهم بأعمالهم، وغير

ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّارِ﴾.

٤٩- تولى المكذبين يوم القيامة مدبرين إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾.

٥٠- لا عاصم من أمر الله إلا من رحم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾.

٥١- أن من يضلله الله كونهًا وقدرًا فلا هادي له من بعده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ

يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

(١) أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٥١، ومسلم في الإيمان ١٤٢؛ من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

٥٢- إثبات رسالة يوسف عليه السلام، وأنه أرسل إلى أهل مصر القبط قبل موسى بالآيات البيّنات؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

٥٣- مخاطبة القرآن الكريم للخلف من أيّ أمة من الأمم بما حصل للسلف منهم، فأل فرعون الموجودون في عهد موسى ليسوا هم الموجودين في عهد يوسف، بل بينهم مدة طويلة.

٥٤- شك آل فرعون فيما جاءهم به يوسف، واستمرارهم على ذلك، وعلى الكفر في حياته وبعد مماته إلى عهد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ﴾.

٥٥- كراحتهم ليوسف، ولما جاءهم به؛ ولهذا لما مات، كأنه زال عن كواهلهم حمل ثقيل، وقالوا بناء على ظنونهم الكاذبة، وأمانتهم الباطلة: لن يبعث الله من بعده رسولاً؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنَ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾.

٥٦- إضلال الله عز وجل كوناً وقدرًا لكل مسرف مرتاب؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

٥٧- التلازم بين الإسراف والشك والارتياب ولو من بعض الوجوه.

٥٨- ينبغي الحذر من الإسراف والارتياب؛ لأن ذلك سبب للضلال.

٥٩- مقت الله وبغضه للذين يجادلون في آيات بغير حجة ولا برهان؛ لإبطلها

وردها، ومقت المؤمنين لذلك؛ لأنهم يمقتون ما مقته الله؛ لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

٦٠- أنه لا حجة ولا سلطان، ولا دليل ولا برهان لمن يجادل في آيات الله لإبطلها وردها.

٦١- إثبات صفة المقت لله تعالى على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه يتفاضل، وهو من الصفات الفعلية الاختيارية عند وجود سببه، فيمقت الله المجادلين في آياته بغير حجة ولا برهان، ويمقت الظلم وأهله، والكفر وأهله.

٦٢- محبة الله تعالى لمن يجادل في آياته بالحجة والبرهان؛ لإحقاق الحق، ومحبة

المؤمنين لذلك؛ لمفهوم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الآية.

٦٣- طبع الله وختمه على كل قلب متكبر جبار؛ لقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

٦٤- الحذر من التكبر والجبروت؛ لختمه عز وجل على قلوب المتكبرين عن الحق وعلى الخلق، المتجبرين بالاعتداء على الناس وظلمهم بغير حق؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾.

وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(١).
٦٥- الإشارة إلى التلازم بين الكبر والجبروت ولو من بعض الوجوه.

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، تحريم الكبر وبيانه ٩١، من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمُنُّ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَنْقُورُ أَنِّيَعُونَ أهدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعَ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْفِكْرِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ * وَيَنْقُورُ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى التَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾ لِأَجْرٍ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكُرُوا وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ * .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَمُنُّ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَاطَّلَعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ * .

قوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ متبادياً في طغيانه وتمرده وعتوه وعناده لموسى: ﴿ يَنْهَمُنُّ ابْنِ لِي صَرْحًا ﴾، أي: قصرًا عاليًا عظيمًا مرتفعًا شامخًا مبنياً من الطين المشوي؛ كما قال في الآية الأخرى: ﴿ فَأَوْقَدَ لِي يَنْهَمُنُّ عَلَى الطِّينِ فَأَجْعَلِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ ﴿٣٨﴾ [القصص: ٣٨].

﴿ لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ «لعل»: للتعليل، و«الأسباب»: جمع «سبب»، وهي الطرق المؤدية إلى المقصود، أي: لعلني أصل وأبلغ الأسباب.

﴿ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ ﴾ بدل من «الأسباب»، أي: طرق الوصول إلى السموات

وأبوابها.

قال زهير^(١):

ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وإن يرق أسباب السماء بسلم
أي: لعلي أبلغ وأصل إلى طرق السموات وأبوابها، وأنى له ذلك؟ وإنما هذا من
باب التمويه والكذب على قومه.

﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ قرأ حفص بنصب العين: ﴿فَأَطَّلِعَ﴾.
وقرأ الباقر بضمها: «فَأَطَّلِعُ».

والفاء: للسببية، والمعنى: فأصل إلى إله موسى، أي: فأنظر هل هو حق أو غير
حق؟ ثم استدرك خوفاً من أن يقال: إنه في شك من أمره، فقال:
﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾، أي: لأظن أن موسى كاذباً في أن له إلهاً غيري هو ﴿رَبِّ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] كما يقول.

وإنما قال هذا فرعون تمويهاً على أصحابه، وخوفاً من أن يقع في نفوسهم شك في
ربوبيته وألوهيته لهم حين أمر وزيره ببناء الصرح.

وهو في الحقيقة يعلم أن موسى صادق؛ كما يعلم أنه هو الكاذب، وأنه لا سبيل له
إلى بلوغ أسباب السموات، ولا إلى الاطلاع إلى إله موسى؛ كما قال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ
عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرَعُونَ مَثْبُورًا﴾
[الإسراء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ﴾، أي: مثل هذا التزيين زين لفرعون كوناً
وقدرًا سوء عمله، أي: عمله السيئ الذي بلغ غاية السوء، من الكذب والتمويه على
قومه.

ويحتمل أن يكون المعنى: وكذلك زين لفرعون سوء عمله، أي: زين له ذلك
الشیطان والنفس الأمارة بالسوء، مع حب الرياسة والتسلط.

﴿وَصَدَّدَ عَنِ السَّبِيلِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بضم الصاد بالبناء للمفعول:

(١) انظر: «ديوانه» ص ١١١، «المعلقات العشر» ٣/٧.

﴿وَصَدَّ﴾، وقرأ الباقون بفتح الصاد والبناء للفاعل: «وَصَدَّ»، أي: أعرض بنفسه، وصد غيره بالتغدير بهم وإيماهم.

و«ال» في «السبيل» للعهد الذهني، أي: صد عن السبيل المعهود، وسبيل الحق، وطريق الهدى، وعن الصراط المستقيم.

﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ﴾، أي: مكره وخداعه، وتدبيره الخفي والجلي لموسى، ولما جاء به من الحق، والتمويه على الناس، بإظهار أنه على الحق، وأن موسى على الباطل.

﴿إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا في خسار وبوار، وهلاك وضياع ودمار؛ كما قال: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾ [غافر: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ذٰلِكُمْ وَاِنَّ اللّٰهَ لَمُوْهِنٌ كَيْدَ الْكٰفِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ اتَّبِعُونِ اِهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٣٨) يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صٰلِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنفَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (٤٠).

انتقل هذا الرجل المؤمن وتدرج - بتوفيق الله له ومنته عليه - من منكر على فرعون وقومه قتل موسى، إلى محذر لهم عقاب الله لهم في الدنيا، وزوال ملكهم إن خالفوا موسى وكذبوه، ثم إلى محذر لهم يوم القيامة وأهواله وعذابه، إلى أن صار داعية يدعو قومه إلى اتباعه؛ ليبين لهم طريق الحق والصواب.

قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ اتَّبِعُونِ اِهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٣٨)، أي: أدلكم وأرشدكم إلى طريق الحق والرشد والصواب، حقاً وصدقاً، لا كما كذب عليكم فرعون بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (٣٩) وهو إنما يهديكم إلى طريق الغي والضلال، ويقودكم إلى النار.

﴿يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ (٣٩).

لما حثهم على اتباعه؛ ليهديهم طريق الحق، زهدهم في الدنيا، ورجبهم في الآخرة؛ لأن سبب ضلال كثير من الخلق الافتتان بالدنيا، ونسيان الآخرة.

قوله: ﴿يَقَوْمٍ إِنَّمَا هَٰذِهِمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ «إنما»: أداة حصر، أي: ما هذه الحياة الدنيا إلا متاع، أي: يُتمتع بها ويتنعم قليلاً، ثم تذهب وتضمحل وتزول، فلا تغرنكم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣]، [فاطر: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، [الحديد: ٢٠] فهي متاع غرور، ودار عبور؛ كما قال ﷺ لابن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»^(١).

﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ لما بين لهم حقارة الدنيا، أتبع ذلك ببيان قيمة الآخرة.

والآخرة: هي ما بعد الدنيا، وضمير الفصل «هي»: للتوكيد والحصر.

﴿دَارُ الْقَرَارِ﴾، أي: دار المستقر، التي لا زوال لها، ولا ظعن منها إلى غيرها، إما نعيم أبدي، وإما عذاب سرمدي؛ ولهذا يؤتى بالموت على هيئة كبش، فيوقف بين الجنة والنار فيذبح، ويقال: «يا أهل الجنة خلود ولا موت، ويا أهل النار خلود ولا موت»^(٢).

ولما بين قيمة الدار الآخرة أتبع ذلك بالتحذير من العمل السيئ، والترغيب بالعمل الصالح؛ استعداداً لتلك الدار التي هي الحيوان، وهي دار القرار، فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾، أي: من عمل عملاً سيئاً يسوءه في الحال والمآل، من شرك أو فسوق أو عصيان.

﴿فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾، أي: فلا يعاقب إلا بسيئة واحدة مثلها، بقدر ما تستحقه سيئته؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلَهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿جَزَاءُ وَفَاقًا﴾^(٣) [النبا: ٢٦].

(١) سبق تخرجه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٣٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٩؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: ومن عمل عملاً صالحاً بجوارحه، خالصاً لله عز وجل، موافقاً لشرعه، وهدى رسله.

﴿مَنْ ذَكَرَ أَوْ أَنْتَى﴾ «من»: بيانية، أي: لا فرق بينهما في مضاعفة الأجر لكل منهما؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ الجملة: حالية، أي: وهو مصدق بقلبه بالله، وبكل ما أوجب الله الإيثار به، فمن لم يكن مؤمناً لم ينفعه عمله الصالح؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَّلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله، ابن جُدعان كان في الجاهلية يصل الرحم، ويطعم المسكين، فهل ذلك نافعه؟ قال: «لا ينفعه؛ إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»^(١).

﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم وأبو جعفر ويعقوب بضم الياء وفتح الخاء: «يَدْخُلُونَ»، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الخاء: ﴿يَدْخُلُونَ﴾.

والجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، دار السلام والأمن والنعيم التام. وأشار إليهم بإشارة البعيد «أولئك» إشارة إلى علو مرتبتهم وشر فهم.

﴿بُرُزُقُونَ فِيهَا بغيرِ حِسَابٍ﴾، أي: يعطون فيها من جزيل الثواب وعظيم الأجور بلا حد ولا عد، مما لم تبلغه أعمالهم، ولم يخطر على بالهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ في وصف الجنة: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على

(١) أخرجه مسلم في الإيثار ٢١٤.

قلب بشر» (١).

وهكذا لخص هذا الرجل المؤمن الموفق سبيل الرشاد الذي دعا قومه إليه، بالأخذ بأربع وصايا، الأولى: الحذر من الاغترار بالدنيا، والثانية: الاستعداد للآخرة، والثالثة: البعد عن السيئات، والرابعة: الإيمان وعمل الصالحات مع البشارة بدخول الجنة والرزق بغير حساب. فيا لها من وصايا!

قوله تعالى: ﴿ وَيَقَوْمٍ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۖ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدْنَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ (٤٣) فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفِئُضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۖ (٤٤) فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِتَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۖ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ۖ (٤٦) ۝

قوله: ﴿ وَيَقَوْمٍ مَا لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ ۖ ﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: ما بالي أدعوكم إلى النجاة، أي: إلى النجاة من النار، وذلك بدعوتي إياكم إلى الإيمان بالله وعبادته وحده لا شريك له، وتصديق رسوله واتباعه.

﴿ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ ﴾: معطوف على «أدعوكم»، أي: وما بالكم تدعونني إلى النار، أي: إلى ما يكون سبباً لدخولي النار، ثم فسر ذلك بقوله:

﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن أكفر بالله، أي: لأجحد ربوبيته وإلهيته، وما يجب له، ﴿ وَأُشْرِكَ بِهِ ﴾، أي: وأشرك بالله من الشركاء.

﴿ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ﴾، «ما»: موصولة، أو نكرة موصوفة في محل نصب مفعول لـ «أشرك»، أي: الذي ليس لي به علم، وهذا قيد لبيان الواقع؛ لأن كل من كفر بالله وأشرك به، فليس له علم بما أشرك به، ولا أصل لما فعل؛ لأنه على جهل وضلال وبلا دليل.

(١) سبق تخرجه.

والقول على الله بلا علم من أكبر الذنوب، إن لم يكن أكبرها؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَنًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾، أي: وأنا أدعوكم إلى عبادة العزيز الغفار، ذي العزة التامة، والمغفرة الواسعة.

وبدأ هنا باسم «العزيز»؛ لأن المقام يقتضيه؛ لأن فرعون وقومه يرون أن العزة لهم - مع ما فيه تهديد ووعد لهم، إن استمروا على كفرهم وشركهم.

﴿لَا جُرْمَ﴾، أي: لا شك ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ «ما»: موصولة، أي: أن الذي تدعونني إليه من عبادة الأصنام والأنداد، والكفر بالله.

﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ «دعوة»: نكرة في سياق النفي، فتعم، أي: ليس له أي دعوة، أي: لا يستحق العبادة والدعوة والالتجاء إليه، ولا يستجيب لداعيه، لا في الدنيا ولا في الآخرة؛ لأنه لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً؛ كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾: معطوف على قوله: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾، أي: ولا جرم، ولا شك أن مردنا إلى الله، أي: مرجعنا ومصيرنا إلى الله في الآخرة، إليه إيابنا، وعليه حسابنا، ومجازاة كل منا بعمله؛ كما أن مردنا إليه في الدنيا في جميع أمورنا؛ كما قال تعالى: ﴿الْأَلَى إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ﴾: معطوف على ما قبله، أي: ولا جرم ولا شك أن المسرفين الذين أسرفوا على أنفسهم وتجاوزوا الحد بالكفر والمعاصي.

﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ «هم»: ضمير فصل؛ للتوكيد والحصر، أي: هم دون غيرهم أهل النار، وملازموها الخالدون فيها.

﴿ فَسْتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«السين»: للتحقيق والقرب، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فستذكرون ولا بد عن قريب الذي أقوله لكم، أو قولي لكم، عند حلول آجالكم، ومعاناة العذاب، وحرمانكم الثواب، وتندمون حين لا ينفعكم الندم، وكل ذلك آتٍ، وكل آتٍ قريب.

﴿ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾، أي: أكل أمري كله إلى الله، وأعتمد عليه، وأعتصم به من شركم، ومن شر كل ذي شر.

﴿ إِنَّكَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ الجملة: تعليل لما قبلها، أي: عليم بهم، مطلع على أحوالهم، وبواطنهم وظواهرهم، يعلم من يستحق الهداية فيهديه بفضلته، ويعلم من يستحق الغواية فيضله بعدله، يحفظ أوليائه وينجيهم، وينتقم من أعدائه ويهلكهم؛ ولهذا قال:

﴿ فَوَقَّئَهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ﴾ الضمير يعود إلى الرجل المؤمن الناصح لقومه، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فوقاه سيئات مكرهم، أو سيئات الذي مكروا، أي: حفظه ووقاه سوء عاقبة مكرهم، من إرادة قتله وإهلاكه، ونجاه مع موسى من الغرق، ومآله في الآخرة إلى جنات النعيم.

﴿ وَحَاقَ بِتَالِ فِرْعَوْنَ ﴾، أي: وأحاط ونزل بفرعون وقومه.

﴿ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾: من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: العذاب السيئ، بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات، والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، وأخيراً بإغراقهم جميعاً في اليم في صبيحة واحدة، ثم نقلهم إلى النار، فأجسادهم للغرق، وأرواحهم للنار والحرق.

وصدق الله العظيم: ﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣].

﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾، أي: يعرضون على النار صباحاً ومساءً في البرزخ في قبورهم، فيأتيهم من سمومها وعذابها ما لا يطيقون.

وقوله: ﴿ غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ يحتمل أن المراد: على الدوام، ويحتمل أن المراد به: في

هذين الوقتين فقط.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة»^(١).

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾، أي: ويوم تقوم القيامة، ويبعث الناس من قبورهم للحساب والجزاء.

﴿أَدْخُلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وأبو بكر بوصل الهمز وضم الخاء: «أَدْخُلُوا»، والابتداء لهم بضم الهمزة، أي: ادخلوا يا آل فرعون أشد العذاب، والأمر للإهانة والإذلال.

وقرأ الباقون بفتح الهمزة وكسر الخاء: «أَدْخُلُوا»، أي: يقال للملائكة: ادخلوا آل فرعون أشد العذاب.

﴿أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾، أي: أعظم العذاب، وأغلظه، وأقواه ألماً، وهو عذاب جهنم.

الفوائد والأحكام:

١- تمادي فرعون في غيه وطغيانه وتكبره وعلوه، وكذبه وتمويهه على قومه؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ أَيْنَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٣٦) **أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى**.

٢- إثبات علو الله تعالى بذاته؛ لقول فرعون: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٣٦) **أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى**، فهذا يدل على أن موسى أبلغه أن الله في السماء.

٣- احتراز فرعون من تشكيك قومه بربوبيته وإلهيته بعد أمره هامان ببناء صرح له، بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَذِبًا﴾، وهذا من التمويه والكذب على قومه؛ لأنه يعلم أن موسى صادق، ويعلم في قرارة نفسه أنه هو الكاذب؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤].

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي ١٣٧٩، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٦٦، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٠، والترمذي في الجنائز ١٠٧٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٧٠.

٤- تزيين الشيطان والنفس الأمارة- مع حب الرياسة والتسلط- لفرعون سوء عمله والصد عن طريق الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

٥- أن من كتب عليه كونًا وقدراً الضلال، والصد عن طريق الحق وقع في ذلك ولا بد؛ لأن قدر الله نافذ لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾، وهذا على اعتبار التزيين قدرياً.

٦- إعراض فرعون وصدته بنفسه عن طريق الحق، وصدته الناس عن ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ على قراءة فتح الصاد.

٧- أن كيد فرعون ومكره وتدييره الخفي والجلي لتكذيب موسى وما جاء به من الحق في فساد وبوار، وهلاك وضياع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾، وهكذا كل داعٍ للشرك فكيده في تباب وخسار.

٨- تल्पف هذا الرجل المؤمن في دعوته قومه إلى الله؛ لقوله: ﴿يَنْقُومُ﴾.

٩- تدرج هذا الرجل المؤمن من الإنكار على قومه قتل موسى بغير حق، ومن تحذيرهم عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، إلى دعوتهم إلى اتباعه؛ ليهديهم طريق الرشاد؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

١٠- شجاعة هذا الرجل وقوته في الحق، في دعوته قومه إلى اتباعه، وتعريضه بقوله لهم: ﴿اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ بكذب فرعون عليهم، وتضليله لهم بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

١١- أن سبيل الحق والرشد واحد، لا ثاني معه.

١٢- تزيده قومه في الدنيا وبيان حقارتها، وأنها مجرد متاع سرعان ما تضحل وتزول، فلا يغتروا بها، وينشغلوا عما خلقوا له؛ لقوله تعالى: ﴿يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾، وقد قال ﷺ: «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكنني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، وتهلككم كما

أهلكتهم»^(١).

١٣- ترغيبهم في الدار الآخرة، وبيان أنها دار الاستقرار التي لا زوال لها، ولا انتقال منها، ويجب الاستعداد والعمل لها؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾. ١٤- وجوب الحذر من الدنيا وفتنتها؛ فإنها سبب هلاك وضلال كثير من الخلق، ووجوب الاستعداد للآخرة والعمل لها.

١٥- إثبات الدار الآخرة، وقيام الساعة؛ لقوله: ﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾، وقوله: ﴿وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

١٦- التحذير من عمل السيئات، وأن من عمل سيئة جوزي بمثلها؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾.

١٧- كمال عدل الله تعالى، فمن عمل سيئة جوزي بسيئة واحدة مثلها، من غير زيادة.

١٨- الترغيب في الإيمان والعمل الصالح، وبيان ما أعده الله لمن عمل صالحًا وهو مؤمن من دخول الجنة، وما لهم فيها من واسع الرزق بغير حساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

١٩- لا بد لقبول العمل من كونه صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، موافقًا لشرعه. ٢٠- لا فرق بين الذكر والأنثى في الثواب والعقاب، فكل منهما يجازى بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

٢١- أن العمل الصالح لا ينفع إلا مع الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾. ٢٢- التنويه بشأن من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن؛ للإشارة إليهم

(١) سبق تحريجه.

بإشارة البعيد: ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾ رفعة لهم وتنويهاً بقدرهم.

٢٣- إثبات وجود الجنة، وأن الله أعدها للذين آمنوا وعملوا الصالحات.

٢٤- كرم الله عز وجل وواسع جوده وعطائه؛ حيث يعطي أهل الجنة بلا

حساب، ولا عد، ولا حد.

٢٥- تعجب هذا الرجل المؤمن وإنكاره على قومه، كيف يدعوهم إلى ما فيه

نجاتهم من الإيمان والعمل الصالح، وعبادة العزيز الغفار، وتصديق رسوله واتباعه،

ويدعونه إلى ما يكون سبباً لدخول النار من الكفر بالله والشرك؛ لقوله: ﴿وَيَقَوْمٍ مَا

لِيَ أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ

لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾.

٢٦- أن من دعا إلى اتباع الحق فهو داعٍ إلى النجاة في الدنيا والآخرة، ومن دعا إلى

الباطل فهو داعٍ إلى الهلاك والشقاء في الدنيا وإلى النار في الآخرة.

٢٧- إثبات وجود النار، وأن الله أعدها لمن كفر وأشرك وأسرف؛ لقوله:

﴿وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ﴾، وقوله: ﴿وَأَنْتَ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، وقوله: ﴿النَّارُ

يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

٢٨- أن كل من كفر بالله وأشرك به، فليس له علم بذلك، وإنما تعبد على جهل

وضلال.

٢٩- إثبات اسم: «العزيز»، وأنه ذو العزة التامة، لا يضام من لاذ بجناحه واحتمى

بحماه؛ لقوله: ﴿الْعَزِيزِ﴾.

٣٠- إثبات اسم الله: «الغفار»، وأنه عز وجل ذو المغفرة الواسعة لعباده، يستر

ذنوبهم ويتجاوز عنها؛ لقوله: ﴿الْغَفَّارِ﴾.

٣١- في اقتران اسميه عز وجل: «العزيز» و«الغفار»، وصفتي العزة التامة،

والمغفرة الواسعة في حقه كمال إلى كمال.

٣٢- أن الدعوة إلى الكفر والشرك بالله دعوة باطلة؛ لأن الشركاء لا يستحقون

العبادة والدعاء من دون الله، ولا يستجيون لداعيهم ولا ينفعونه؛ لأنهم لا يملكون

لأنفسهم ولا لغيرهم شيئاً؛ لقوله: ﴿لَا جَزْمَ لَنَا بِمَا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ لَيْسَ لَكَ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ﴾.

٣٣- أن مرد الخلائق في جميع أمورهم إلى الله تعالى، وإليه إياهم في الآخرة، وعليه حسابهم وجزاؤهم؛ لقول هذا الرجل المؤمن مذكراً قومه بذلك: ﴿وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾.

٣٤- تهديد المسرفين بالكفر والشرك والمعاصي، ووعيدهم بالخلود في النار، والتحذير من ذلك؛ لقوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، وفي هذا تعريض بما عليه قومه من الكفر والشرك والإسراف، وتحذير لهم.

٣٥- تهيبجه مشاعر قومه، وأنهم سيدكرون قوله ونصحه لهم، وسيندمون حين لا ينفع الندم، عندما يحل بهم العقاب، ويُحرمون الثواب، وفي هذا تحذير لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾.

٣٦- تفويضه أمره إلى الله واعتماده عليه واعتصامه به؛ ليمنعه من شرهم ومن شر كل ذي شر؛ لقوله: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾.

٣٧- إحاطة علم الله تعالى وبصره بالعباد، وأحوالهم الظاهرة والباطنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾.

٣٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة.

٣٩- حفظ الله تعالى إياه، ووقايته له من سوء مكرهم وكيدهم، وإنجاؤه منهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَوَقَّهٗ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ وهو الواقى والكافي سبحانه لمن توكل عليه.

٤٠- إحاطة سوء العذاب بأصنافه المختلفة بآل فرعون، وفي النهاية إغراقهم في اليم في صبيحة واحدة؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾.

٤١- تعذيبهم في البرزخ بعرضهم على النار صباحاً ومساءً؛ لقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

٤٢- إثبات عذاب القبر؛ لقوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾.

عن عائشة رضي الله عنها: أن يهودية دخلت عليها، فقالت لها: أعاذك الله من

عذاب القبر. فسألت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: «نعم، عذاب القبر حق». قالت عائشة: «فما رأيت رسول الله ﷺ صلى صلاة إلا تعود من عذاب القبر»^(١).

قال رسول الله ﷺ: «فأوحى إلى أنكم تفتنون في قبوركم»^(٢). فعذاب القبر ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة.

٤٣- إدخال آل فرعون يوم القيامة أشد العذاب، والجمع لهم بين العذاب المعنوي بالإهانة والإذلال، والعذاب الحسي في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾.

٤٤- أن النار هي أشد العذاب، وأن شدة العذاب فيها بقدر شدة الكفر، فلما كان فرعون وآله من أطغى الخلق جوزوا بأشد العذاب.

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجنائز، ما جاء في عذاب القبر ١٣٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في العلم ٨٦، ومسلم في الكسوف ٩٠٥، والنسائي في الجنائز ٢٠٦٢- من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلُّ فِيهَا إِتْنَا اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعْتُوا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٥٤﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ يَغْتَرِ سُلْطَانِ اتَّهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلُّ فِيهَا إِتْنَا اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعْتُوا الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ ۞

قوله: ﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ ﴾ «إذ»: ظرف متعلق بمحذوف، أي: اذكر إذ يتحاجون، أي: حين يتحاج أهل النار ويتخاصمون فيها.

﴿ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ ﴾ الفاء: عاطفة، و«الضعفاء» جمع: «ضعيف»: ضد القوي، والضعف يكون في البدن؛ كما يكون في المال والشرف والسيادة، وغير ذلك، والمراد بهم: لأتباع.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: للذين استكبروا عن الحق، وعلى الخلق، من السادة والكبراء ونحوهم، وهم المتبوعون.

﴿ إِنَّا كُنَّا ﴾، أي: في الدنيا، ﴿ لَكُمْ تَبَعًا ﴾ جمع: «تابع»، أي: مُتَّبِعِينَ.

﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَبَرُونَ عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴾، أي: فهل أنتم دافعون ومتحملون عنا نصيبًا من النار، أي: جزءًا أو قسطًا من النار؛ جزاء متابعتنا لكم في الدنيا.

﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا ﴾، أي: كلنا نحن وأنتم في النار، فكيف نغني وندفع عنكم نصيباً منها ونحن كلنا فيها؟
كما قال تعالى: ﴿ قَالَتْ أَخْرَبُهُمْ لَأَوْلَهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَتَاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٨].

لكن شتان ما بين عذاب الأتباع وعذاب المتبوعين؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُونِ أَثْقَالَهُمْ وَأَنْفَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴾ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا ﴿٧٨﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

وقال ﷺ: «من دعا إلى ضلالة فعلية وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً»^(١).

﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ﴾، أي: قد قضى بحكمه القدري الجزائي.
﴿بَيْنَ الْعِبَادِ﴾، أي: بين الناس عموماً، أي: بين أهل الجنة وأهل النار؛ كما قال تعالى: ﴿ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين، والأتباع والمتبوعين.
﴿لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ﴾، أي: لخزنة النار، وسميت النار بجهنم؛ لجهمتها وظلمتها، وبعد قعرها، وشدة حرها.

وخزنتها: هم الملائكة الموكلون عليها، وهم من الغلظة والشدة كما وصفهم الله تعالى في قوله: ﴿ عَلَيْهَا مَلَيِّكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦].

وهم كثرة كاثرة؛ كما دل عليه حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالنار يوم القيامة تقاد بسبعين ألف زمام، بكل زمام سبعون ألف ملك

(١) سبق تخرجه.

يجرونها»^(١).

﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ﴾، أي: اسألوا ربكم واطلبوا منه.

﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾، أي: قدر يوم من العذاب؛ لأن يوم القيامة يوم واحد، ليس فيه ليل ولا نهار، ولا شمس ولا قمر.

وإنما طلبوا التخفيف؛ لشدة ما هم فيه من العذاب، واكتفوا بطلب تخفيف العذاب لا رفعه، وتخفيف يوم واحد فقط؛ لشدة بأسهم من ذلك كله.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال الخزنة للذين في النار موبخين لهم.

﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمُ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتقريع والتقرير، أي: أولم تك تأتيكم رسلكم بالآيات البيّنات، والدلائل والحجج الواضحات، التي فيها بيان الحق وتحذيركم من النار؟

﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ «بلى»: حرف جواب، أي: قال الذين في النار: بلى قد جاءتنا رسلنا بالبيّنات، وقامت علينا الحجّة، لكننا كذبنا رسلنا وعاندناهم، وكفرونا بما جاؤوا به من البيّنات وخالفناهم.

﴿قَالُوا﴾، أي: قال الخزنة لهم تهكمًا بهم: ﴿فَادْعُوا﴾ أنتم، فلن ندعوا لكم؛ لأن الدعاء والشفاعة للكفار مما لا يجوز ولا يقبل.

﴿وَمَا دَعَوْا إِلَّا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هذا من تنمة كلام الخزنة لهم، أي: وما دعاء الكافرين إلا في ضياع واضمحلال، فلن يستجاب لكم، ولن يخفف عنكم العذاب. ويحتمل: أنه استئناف من كلام الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾^(٥١)
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ^(٥٢) وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْهُدَىٰ
وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ^(٥٣) هُدًىٰ وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ^(٥٤) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ
اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ^(٥٥) إِنَّ الذِّكْرَ

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٢، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٣.

يُجَكِّدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ
فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾.

قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ «إن» واللام: للتوكيد، أي: إنا لننصر رسلنا وننصر الذين آمنوا في الحياة الدنيا بالحجة والبرهان، ببيان الحق وإظهاره، بالآيات البينات، والحجج والبراهين الواضحات، وإزهاق الباطل وإبطاله. وننصرهم بالانتصار لهم ممن آذاهم؛ بجعل الغلبة والظفر لهم بالقتال في الميدان، وهزيمة أعدائهم وإهلاكهم.

كما قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿حَقَّقْ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»^(١). ولهذا أهلك الله المكذبين من الأمم السابقة بأنواع العقوبات، وأنجى رسله والمؤمنين، ومكن لرسوله محمد ﷺ وأصحابه بالهجرة إلى المدينة، ونصرهم في بدر وفي فتح مكة، وجعل لهم العز والسؤدد، ونصر خلفاءه وأصحابه، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها.

﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾، أي: وننصر رسلنا والذين آمنوا نصرًا أعظم وأكبر وأجل يوم يقوم الأشهاد، أي: يوم القيامة، يوم يقوم الأشهاد من الملائكة والرسل والمؤمنين وغيرهم على الخلائق بأعمالهم، وذلك بالفصل بينهم وبين من خالفهم وحاربهم، بإدخالهم جنات النعيم، وإدخال من خالفهم نار الجحيم.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ﴾ قرأ نافع وحمة والكسائي وعاصم بالياء على التذكير: ﴿يَنْفَعُ﴾، وقرأ الباقون بالتاء على التأنيث: «تَنْفَعُ»، و«يوم» بدل من «يوم» في

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْهَادُ﴾، أي: يوم لا ينفع الظالمين بالشرك والكفر؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَبْقَى لَا تَشْرِكُ بِاللَّهِ إِنَّكَ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

﴿مَعذِرَتُهُمْ﴾، أي: اعتذارهم، أي: لا ينفعهم اعتذارهم، ولا يقبل منهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ (٣٦) [المرسلات: ٣٦].

﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ اللام: للاستحقاق، أي: ولهم اللعنة من الله، بطردهم وإبعادهم من رحمته وجنته، ولهم اللعنة من الملائكة والناس أجمعين، ومن عامة اللاعنين بالدعاء عليهم بذلك؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [البقرة: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩].

﴿وَلَهُمْ﴾ يوم القيامة ﴿سُوءُ الدَّارِ﴾، وهي النار التي تسوء ساكنيها من شدة عذابها.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَسَاءَ الْمَصِيرُ﴾ (٦) [الملك: ٦].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾، أي: ولقد أعطينا موسى: ﴿الْهُدَى﴾، أي: التوراة، والآيات البيّنات التي اهتدى بها بنفسه، وهدى بها الناس وأرشدهم إلى الحق، فصار بذلك هاديًا مهديًا.

﴿وَأَوْزَنَّا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ أَلْكِتَابَ﴾، أي: جعلناهم من بعد موسى يتوارثون الكتاب، أي: التوراة، وعلمها، والعمل بأحكامها.

﴿هُدًى﴾: مصدر في موضع الحال، أي: هاديًا ومرشدًا، أو مفعول لأجله، أي: لأجل أن يكون هدى.

﴿وَذَكَرْنِي﴾: معطوف على «هدى»، أي: وتذكرة وعظة وعبرة.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيئَةً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨].

﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، أي: لأصحاب العقول الصحيحة السليمة؛ لأنهم هم الذين

ينتفعون بالآيات الشرعية والكونية؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا
يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، [آل عمران: ٧].

﴿فَاصْبِرْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ كما في قوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾
[الأحقاف: ٣٥]، أي: اصبر على حكم الله الشرعي والكوني؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا﴾ [٢٣] ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤]، أي: اصبر على دعوة قومك،
وعلى ما تلقاه منهم من التكذيب، وما ينالك منهم من الأذى والعناء.

وقد صبر ﷺ صبر الجبال الراسيات، فوضع سلى الجزور على ظهره وهو ساجد،
وأدميت قدماه، وشج في وجهه، وكسرت ربايعته، ورمي بالسحر والشعر والكهانة
والكذب والجنون، وعاده أقرب الناس إليه، وتحزب الناس عليه، وقُدح في رسالته،
واتهم في أهله، ولقي ﷺ من أنواع الابتلاء ومن صنوف الأذى من قومه ما لم يلقه نبي
قط، وهو مع ذلك صابر محتسب، يردد قوله: «رب اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون»^(١).
فصلوات الله وسلامه عليه، وجزاه عن أمته خير الجزاء.

﴿إِنَّكَ وَعَدَّ اللَّهُ﴾، أي: إن وعد الله لك بالنصر والتمكين، وجعل العاقبة لك في
الدنيا والآخرة وللمؤمنين.

﴿حَقٌّ﴾، أي: أمر ثابت لا مرية فيه ولا شك؛ لأن الله لا يخلف الميعاد؛ لتتام
قدرته، وصدق وعده؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ الْوَعْدَ﴾ [آل عمران: ٩]، الرعد:
[٣١]، وقال تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخَلِّفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم: ٦].

﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾، أي: اطلب من الله المغفرة لذنبك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾، أي: اقرن بين تسبيح ربك وحمده؛ ولهذا جاء الترغيب في
أن يقال في ختام المجلس: «سبحانك اللهم وبحمدك»^(١).

وذلك؛ لأن في التسبيح تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين،

(١) سبق تخرجه.

وفي الحمد إثبات وصفه عز وجل بصفات الكمال.

﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، أي: في آخر النهار وأوله، اللذين هما من أفضل الأوقات، فالعشي: ما بعد الزوال، والإبكار: ما قبل الزوال. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة ذي اليمين، قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ إحدى صلاتي العشي»^(١).

والتسييح بمعناه العام يشمل أداء العبادة من الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك، وفي حديث أم هانئ رضي الله عنها قالت: «صلى النبي ﷺ في بيته سبحة الضحى»^(٢).

ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما: «لو كنت مسبحًا لأتممت»^(٣).

أي: لو كنت مصليًا نافلة في السفر لأتممت الصلاة وما قصرتها؛ لأن السنن الرواتب تسقط في السفر ما عدا راتبة الفجر.

ولهذا حمل كثير من المفسرين قوله تعالى: ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ نُسُوتُ وَحِينَ نُصْبِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ١٧، ١٨] على أن المراد به: أوقات الصلوات الخمس.

والأمر بالآية بالصبر والاستغفار والتسييح لا شك أنه أمر له ﷺ ولأمته؛ لأن لها فيه الأسوة والقدوة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ﴾، أي: بغير حجة ولا برهان أتاهم من كتاب أو سنة. وهذا قيد بيان للواقع، وهو أن كل مجادل في آيات الله إنما يجادل بغير سلطان وبغير حجة.

(١) أخرجه البخاري في الصلاة، تشبيك الأصابع في المسجد ٤٨٢، ومسلم في المساجد، السهو في الصلاة والسجود له ٥٧٣.

(٢) أخرجه مسلم في الحيض، تستر المغتسل بثوب ٣٣٦، وأبو داود في الصلاة ١٢٩٠.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٦٨٩، وأبو داود في الصلاة ١٢٢٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٧١.

﴿إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ﴾ «إن»: نافية بمعنى: «ما»، أي: ما في صدورهم ﴿إِلَّا كِبْرٌ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: ما في صدورهم وقلوبهم إلا كبر عن اتباع الحق، وتكبر على من جاءهم به، واحتقار للخلق. ونكر «كبر» للتعظيم.

﴿مَّا هُمْ بِبَلِّغِيهِ﴾ الجملة مستأنفة، والضمير يعود إلى «كبر»، أي: ما هم ببالغين في هذه المجادلة مرادهم من الكبر الذي في صدورهم، والتعالي على الحق وعلى من جاء به، وإخمال الحق، وإظهار الباطل، بل سيزيدهم ذلك ذلاً ومهانة واحتقاراً، ويبقى الحق هو الثابت المرفوع، والباطل هو الزاهق الموضوع؛ كما قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨].

﴿فَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ﴾، أي: استجر بالله واعتصم به من شر هؤلاء المجادلين المتكبرين وحالهم، ومن شر كل ذي شر من شياطين الإنس والجن وغير ذلك، ومن كل مكروه؛ فإنه حافظك وعاصمك.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، أي: إنه هو وحده السميع المجيب لدعاء من دعاه، الذي وسع سمعه الدعاء، وجميع الأقوال والأصوات.

﴿الْبَصِيرُ﴾ ذو البصر الذي أحاط رؤيته وعلماً بكل شيء.

الفوائد والأحكام:

١- تخاصم أهل النار فيها، وعداوتهم فيما بينهم؛ الضعفاء والمستكبرين، والأتباع والمتبوعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ الآية.

٢- تسلط الأقوياء على الضعفاء، وخضوع الضعفاء للأقوياء، واتباعهم لهم وتقليدهم، مما يوجب على المسلمين أفراداً وجماعات ودولاً أخذ زمام القوة، في جميع نواحي الحياة، مادياً وعسكرياً، وغير ذلك؛ لأنهم يملكون أعظم قوة معنوية، وهو كونهم على الحق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]،

- وقال ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»^(١).
- ٣- ندم المستضعفين وتمنيهم وطلبهم من المستكبرين الذين أضلوهم أن يدفعوا ويتحملوا عنهم نصيباً- ولو قليلاً- من النار، مقابل اتباعهم لهم؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ﴾.
- ٤- اعتذار المستكبرين المتبوعين بقولهم: ﴿إِنَّا كُلُّ فِيهَا﴾، أي: فلا يمكن أن نتحمل عنكم نصيباً من النار ما دمنا جميعاً فيها.
- ٥- خنوع المستكبرين وصغارهم وذلمهم يوم القيامة؛ لقولهم: ﴿إِنَّا كُلُّ فِيهَا﴾، أي: فلا فضل لأحد منا على الآخر؛ كلنا في النار.
- ٦- إقرارهم بحكم الله العدل بين العباد، وقضائه الفصل بينهم بمجازاة كل بعمله، وإدخال الكفار النار، وإدخال المؤمنين الجنة دار القرار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.
- ٧- أن حكم الله إذا نفذ فلا يمكن دفعه ولا رفعه؛ ولا معقب له؛ لقولهم: ﴿إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيْ وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٢٩) [ق: ٢٩].
- ٨- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بَيْنَ الْعِبَادِ﴾.
- ٩- سؤال أهل النار خزنة جهنم الدعاء لهم بتخفيف العذاب عنهم يوماً واحداً؛ لشدة حسرتهم، وشدة ما هم فيه من العذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾^(٤١).
- ولشدة يأسهم من التخفيف سألوا فقط تخفيف العذاب عنهم يوماً واحداً.
- ١٠- إثبات خزنة النار الموكلين عليها، وعلى تعذيب أهلها.
- ١١- إثبات ربوبية الله الخاصة لخزنة النار وغيرهم من الملائكة.

(١) أخرجه مسلم في القدر ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

١٢- توبيخ الخزنة وتقريرهم لأهل النار، وتقريرهم بقيام الحجة عليهم؛ بإرسال الرسل إليهم بالبينات، يحدرونها عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَوْلَمَ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾.

وفي هذا تعذيب معنوي ينصب على قلوبهم قد يفوق العذاب الحسي.

١٣- إقرار أهل النار واعترافهم بقيام الحجة عليهم، ولكنهم لم يستجيبوا؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

١٤- إقامة الحجة على الأمم بإرسال الرسل إليهم بالبينات، وأنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير.

١٥- تهكم الخزنة بأهل النار؛ لقولهم لهم: ﴿فَادْعُوا﴾، أي: فادعوا أنتم.

١٦- ضياع دعاء الكافرين واضمحلاله، وأنه لا يستجاب، ولا قيمة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ﴾.

ويستثنى من هذا في الدنيا دعوة المظطر، ودعوة المظلوم؛ فإنها يستجابان ولو من كافر؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥] ولقوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١).

وذلك أن المظطر يكون مخلصاً لله في الدعاء، مظهرًا لكمال افتقاره إلى الله، ولأن المظلوم طالب لإقامة العدل.

١٧- وعد الله تعالى الذي لا يخلف وعده بنصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، وتأكيده ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا﴾.

١٨- نصر الله تعالى لرسوله والمؤمنين نصرًا أجل وأعظم يوم القيامة عند قيام الأشهاد بالفصل بينهم وبين من خالفهم وحاربهم وعاداهم، بإدخال الرسل والمؤمنين

(١) سبق تخرجه.

جنات النعيم، وإدخال من خالفهم وحاربهم نار الجحيم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

١٩- إثبات قيام الأشهاد يوم القيامة من الملائكة والرسل والمؤمنين وغيرهم على الخلائق بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾.

٢٠- التحذير من مخالفة الرسل وسلوك غير سبيل المؤمنين؛ لأن من فعل ذلك فهو مغلوب مخذول في الدنيا والآخرة.

٢١- نفي انتفاع الظالمين بمعذرتهم في ذلك اليوم؛ لقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذَرَتُهُمْ﴾.

٢٢- لعنهم وطردهم وإبعادهم عن رحمة الله تعالى وجنته، وإدخالهم النار أسوأ دار؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَهُمُ الْعَذَابُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾.

٢٣- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وبعثه بالهدى والنور؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى﴾.

٢٤- الامتنان على بني إسرائيل بتوريثهم التوراة: علمها والعمل بها بعد موسى؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْزَنَّا بَيْنَ إِسْرَائِيلَ أَلْكَتَبَ﴾، ولم يقوموا بها، بل حرفوها وبدلوها.

٢٥- اشتغال التوراة على الهدى والنور والضياء، والذكرى والموعظة والعبرة، لأصحاب العقول الصحيحة السليمة؛ لقوله تعالى: ﴿هُدًى وَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾.

٢٦- أنه لا ينتفع بالهدى والذكرى إلا أصحاب القلوب السليمة الصحيحة.

٢٧- الثناء على أهل العقول الذين ينتفعون بعقولهم، ويتذكرون ويعتبرون بالآيات، وأن من لم يتذكر بالآيات فليس بعاقل.

٢٨- وجوب الصبر على طاعة الله تعالى، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٢٩- تأكيد أن ما وعد الله تعالى به من النصر والتمكين له ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.

وفي هذا تسلية له ﷺ، وتثبيت وتقوية لقلبه، ولأتباعه، وتحذير لأعدائه.

٣٠- وجوب الاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لَذَنبِكَ﴾ وهو أمر له ﷺ

ولأمته.

وهو ﷺ وغيره من الرسل من باب أولى- ليسوا بمعصومين من الوقوع في الصغائر، على الصحيح من أقوال أهل العلم، لكنهم لا يُقرون عليها، وسرعان ما يتوبون منها.

قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:

١، ٢]، وقال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾

[محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُشْرِكَ فِي الْأَرْضِ﴾

[الأنفال: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَتَعْلَمَ الْكٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿يٰٓأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبٰنِغِي

مَرَضَاتٍ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحریم: ١].

وقال تعالى: ﴿عَسَىٰ وَتُوِّىٰ ﴿١﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعُهُ

الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾﴾ [عس: ١-٤].

لكنهم معصومون من الخطأ في التبليغ، ومن الوقوع في الكبائر.

٣١- مشروعية التسبيح بحمد الرب عز وجل بآخر النهار وأوله؛ لقوله تعالى:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٣٢- فضيلة القرآن بين التسبيح والتحميد؛ لأن التسبيح فيه التنزيه لله تعالى عن

النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين، والتحميد فيه إثبات الوصف بالكمال لله

تعالى.

٣٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ.

٣٤- فضيلة هذين الوقتين: العشي والإبكار؛ لأنها ينتظمان أوقات الصلوات

الخمس كلها.

٣٥- ذم المجادلين في آيات الله بغير حجة ولا برهان أتاهم من كتاب أو سنة،

وبيان أن ما حملهم على ذلك إنما هو الكبر الذي في قلوبهم عن اتباع الحق، وعلى من جاءهم بالحق، وعلى الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانًا أَنَّهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾.

٣٦- أن المجادلين في آيات الله لردّها وإبطالها ليس لديهم حجة ولا دليل، بل يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق، وهيهات لهم ذلك.

٣٧- خطر الكبر، وأنه سبب لرد الحق، والتعالي على الخلق.

٣٨- تحقير هؤلاء المجادلين المتكبرين، وتأسيسهم من بلوغ مرادهم، من رد الحق وإخماله، وإعلاء الباطل وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿مَأْتُهُم بِلَاغٍ﴾. وفي هذا تثبيت للنبي ﷺ، وبشارة له.

٣٩- مشروعية الاستعاذة بالله من جميع الشرور وأهلها؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ﴾، وهو أمر له ﷺ ولأمته.

٤٠- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه سبحانه ذو السمع الواسع الذي وسع دعاء الداعين وإجاباتهم، ووسع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾.

٤١- إثبات اسم الله: «البصير»، وأنه عز وجل ذو البصر الذي أحاط بكل شيء بصراً وعلماً؛ لقوله تعالى: ﴿الْبَصِيرُ﴾.

٤٢- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وصفتي السمع الواسع والبصر المحيط بكل شيء كمال إلى كمال.

قال الله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسُوفُ قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ اذْعُوبِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ لَيْلًا لِتَسْكُنُوا فِيهَا وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٥﴾

قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسُوفُ قَلِيلًا مِمَّا تَدَّكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾

قوله: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اللام: لام الابتداء والتوكيد، أي: لخلق السموات والأرض والتي هي من أكبر المخلوقات.

﴿أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، أي: أكبر وأعظم من خلق الناس ابتداءً، ومن إعادتهم أحياءً بعد موتهم الذي ينكره المشركون، وهو على الله يسير، فمن قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق ما دونه من باب أولى.

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُخَيِّقَ الْمَوْتِ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾﴾ [يس: ٨١].

قال ابن القيم: «وهذا من أبلغ الأدلة على المعاد، أي: أن الذي خلق السموات والأرض. وخلقها أكبر من خلقكم، كيف يعجزه خلقكم بعدما تموتون خلقاً

جديداً؟!» (١).

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي: جاهلون، لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، فلا يتفكرون في خلق السموات والأرض، ولا يتأملون في الأدلة البينة، والحجج الظاهرة على كمال قدرة الله تعالى؛ ولهذا ينكرون المعاد والبعث؛ استبعاداً وكفراً وعناداً، مع اعترافهم بما هو أولى مما أنكروا.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾؛ لأن الأعمى لا يرى شيئاً مما أمامه، وكثيراً ما يصطدم بما يؤذيه.

والبصير يرى ويشاهد كل ما أمامه، فيتجنب غالباً كل ما يؤذيه، فلا يستوي هذا وهذا، وهذا أمر معلوم لكل أحد، وإنما ذكر توكيداً لنفي الاستواء بين المؤمن وغيره؛ لقوله بعده:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ﴾ معطوف على قوله: ﴿الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾، أي: ولا يستوي الذين ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات بجوارحهم، فأحسنوا بالإيمان بالله، والإخلاص له، ومتابعة شرعه.

﴿وَلَا الْمُسِيءَ﴾ اللام: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: ولا المسيء الذي لم يؤمن ولم يعمل الصالحات، بل كفر وعمل السيئات، فالذي آمن وعمل الصالحات كالبصير، يرى الطريق، ويمشي على بصيرة من أمره، والمسيء كالأعمى، لا يرى الطريق، ويتخبط في مشيته، وحال الاثنين كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ كذلك زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

فستان بين الطريقين، وستان بين سالكيهما؛ ولهذا قال تعالى مخاطباً المؤمنين ومرغباً

لهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَنفُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ [الأنفال: ٢٩].

﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وعاصم بقاء الخطاب: ﴿تذكرون﴾، وقرأ الباقون بياء الغيبة ﴿يذكرون﴾، أي: قليلاً ما تتعظون وتعتبرون.

و«قليلاً»: مفعول مطلق نائب عن المصدر فهو صفته، عاملة: «تذكرون».

و«ما»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى للقلّة، أي: تتذكرون

تذكراً قليلاً قليلاً، وقيل: «ما»: مصدرية، أي: قليلاً تذكركم واتعاضكم.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّمٌ﴾ «إن» واللام: للتوكيد، أي: لكائنة وواقعة لا محالة.

﴿لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ توكيد معنوي لإتيانها، أي: لا ريب ولا شك في إتيانها ووقوعها

قريباً؛ كما قال تعالى: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾ [القمر: ١]، وقال تعالى: ﴿أَرْفَتِ

الْأَرْفَةُ ﴿٥٧﴾﴾ [النجم: ٥٧].

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: لا يؤمنون بإتيان الساعة، ولا

يصدقون بها، بل يكذبون بها.

ولهذا صار أكثر الناس كافرين؛ لأن الإيمان بها وباليوم الآخر والحساب من أعظم

ما يحفز ويحمل على الإيمان والعمل.

ولهذا يربط القرآن الكريم كثيراً بين الإيمان بالله واليوم الآخر.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١٠﴾﴾.

قوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي﴾ الدعاء هو العبادة، وهو شامل لدعاء العبادة،

ودعاء المسألة.

قال ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ

الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿١٠﴾﴾ (١).

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة، باب الدعاء ١٤٧٩، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٢، وابن ماجه في الدعاء،

﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾، أي: أستجب لكم دعاءكم، فأقبل عبادتكم، وأعطيتكم سؤالكم، فمن فضله عز وجل أمر بالدعاء وتكفل بالإجابة؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة إلا آتاه الله إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم، أو قطيعة رحم». فقال رجل من القوم: إذن نكثر؟ قال: «الله أكثر»^(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربه عز وجل، قال: «أربع خصال، واحدة منهن لي، وواحدة لك، وواحدة فيما بيني وبينك، وواحدة فيما بينك وبين عبادي. فأما التي لي: فتعبدني لا تشرك بي شيئاً، وأما التي لك علي: فما عملت جزيتك به، وأما التي بيني وبينك: فمنك الدعاء، وعلي الإجابة، وأما التي بينك وبين عبادي: فارض لهم ما ترضى لنفسك»^(٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «إني لا أحمل هم الإجابة، وإنما أحمل هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء، فإن الإجابة معه»^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يدع الله سبحانه غضب الله عليه»^(٤)، وفي رواية: «من لم يسأل الله بغضب عليه»^(٥).

قال الشاعر:

فضل الدعاء ٣٨٢٨، وأحمد ٤ / ٢٧١، والحاكم ١ / ٤٩٠ - ٤٩١، من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه، وقال الحاكم: «صحيح الإسناد».

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٧٣.

(٢) أخرجه الحافظ أبو يعلى، فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ١٤٢.

(٣) انظر: «دقائق التفسير» ٣ / ٤ / ٥٦٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في الباب السابق ٣٨٢٧، وأحمد ٢ / ٤٧٧، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ١٤٣: «إسناده لا بأس به».

(٥) أخرجه أحمد ٢ / ٤٤٢، والترمذي في الدعوات ٣٣٧٣.

الله يغضب إن تركت سؤاله وترى ابن آدم حين يُسأل يغضب

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، أي: عن دعائي وعبادتي وحدي بلا شريك.

﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ﴾ قرأ أبو جعفر ورويس عن يعقوب بضم الياء وفتح الخاء على

البناء للمفعول: «سَيَدْخُلُونَ»، أي: سيدخلهم ملائكة العذاب جهنم، وقرأ الباقون

بفتح الياء وضم الخاء: ﴿سَيَدْخُلُونَ﴾.

﴿دَاخِرِينَ﴾ صاغرين ذليلين حقيرين.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو

فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿١١﴾ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ

شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿١٢﴾ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿١٣﴾ اللَّهُ

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ

مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾.

قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ﴾، أي: صير كونًا وقدرا لأجلكم، ولمصالحكم

ومنافعكم، ﴿اللَّيْلَ﴾ يغشاكم بظلامه ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾، أي: لأجل أن تسكنوا فيه،

فتسكن جوارحكم وقلوبكم ونفوسكم، وينتقض عنكم تعب العمل في النهار،

ويتجدد نشاطكم.

﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾، أي: وجعل النهار مبصرًا، أي: صيره مضيئًا بالشمس،

وموضع إبصار تتحركون فيه بأعمالكم وطلب معاشكم، وفي أسفاركم وتجارااتكم.

وفي هذا دلالة على كمال ربوبية الله تعالى ووحدانيته، وتما قدرته وعظيم منته؛

ولهذا قال:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾، اللام: للتوكيد، ونكر «فضل»؛ للتعظيم، أي: إن

الله لذو فضل عظيم، أي: صاحب إفضال عظيم على الناس.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾، أي: مع عظيم فضله عليهم أكثرهم لا

يشكرون الله على ما أولاهم من النعم؛ من جعل الليل سكنا من أجل راحتهم، وجعل

النهار مضيئاً من أجل تصرفهم في أعمالهم ومعاشهم، وغير ذلك.
أي: لا يشكرون الله، لا بقلوبهم، ولا بألسنتهم، ولا بجوارحهم، بنسبة النعم إليه،
واستعمالها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته؛ لجهلهم وظلمهم.

﴿ذَلِكُمْ﴾، أي: ذلكم الذي جعل لكم ما ذكر وامتن به عليكم ﴿اللَّهُ﴾: خبر
أول لـ«ذلكم»، أي: المألوه المعبود، المتفرد وحده بالالوهية ﴿رَبُّكُمْ﴾: خبر ثانٍ
لـ«ذلكم»، أي: المتفرد بالربوبية، أي: بالخلق والملك والتدبير.
﴿خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ خبر ثالث لـ«ذلكم»، أي: خالق جميع الأشياء، وفي هذا
تقرير وتوكيد لكمال ربوبيته.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو، وفي هذا تقرير وتوكيد لكمال ألوهيته،
وأنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ
مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢].

﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: فكيف تُصرفون عن الإيمان
بالله تعالى وعبادته وحده إلى عبادة غيره من الأصنام والأوثان والأنداد، مع قيام
البرهان على وحدانيته، وتفرد بالخلق دون غيره؟!!

﴿كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾، أي: كما أفك هؤلاء وصرفوا
عن عبادة الله تعالى إلى عبادة غيره بسبب تكذيبهم آيات الله ورسوله، كذلك يصرف عن
عبادة الله الذين كانوا بآيات الله يجحدون بسبب كفرهم وجحودهم لآيات الله.

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ﴾، أي: الذي صير لكم الأرض.

﴿فَكَرَارًا﴾، أي: ذات قرار، أي: مستقر، بجعلها ساكنة، وإرسائها بالجبال؛ لثلا
تميد بكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ١٥، لقمان: ١٠].

وجعلها مذللة مهيأة للاستقرار والعيش والبناء عليها، والزرع فيها، واستخراج
خيراتها؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْسُقُوا فِي مَنَاجِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥].

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾، أي: وجعل السماء بناءً عاليًا، وسقفًا محفوظًا للأرض، وللمخلوقات كلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢].
﴿وَصَوَّرَكُمُ فَاَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾، أي: جعل صوركم على أحسن الأشكال، فليس في الحيوانات كلها أحسن صورة من بني آدم.

كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُ فَأَحْسَنَ صُورَهُ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التغابن: ٣].

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾، أي: وأعطاكم من الطيبات كلها، مما لذ وطاب، من مأكَل ومشرب وملبس ومسكن ومنكح وغير ذلك.

فامتَن عز وجل عليهم بجعل الأرض قرارًا وسكنًا لهم، وبجعل السماء تظلمهم، وبخلقهم وإحسان صورهم، وتأمين أرزاقهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الشِّمْرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

﴿ذَلِكُمْ﴾ الذي جعل لكم الأرض قرارًا وسكنًا، والسماء بناءً، وخلقكم وأحسن صوركم، ورزقكم من جميع الطيبات.

﴿اللَّهُ﴾، أي: الإله المعبود الذي يجب أن تعبدوه وحده دون سواه.

﴿رَبِّكُمْ﴾ المتفرد بربوبيتكم وربوبية جميع الخلق، خلقًا وملكًا وتدبيرًا.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ﴾، أي: فتعالى الله وتقدس وتعظم، وكثر خيره وفضله، أي: أنه ذو البركة الثابتة العظيمة العامة.

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كلهم، خالقهم ومالكهم ومدبرهم، من عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة، وعالم الحيوان، وعالم الجماد، وغير ذلك.

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: هو عز وجل وحده ذو الحياة التامة أزلاً وأبداً؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣].

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود بحق إلا هو؛ لكمال حياته ودوامها أزلاً وأبداً. ﴿فَكَادُغُوهُ﴾ دعاء عبادة، ودعاء مسألة، أي: اعبدوه واسألوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ حال، أي: مخلصين له وحده العمل، أي: العبادة والدعاء دون شريك.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]. ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أعقب وصفه عز وجل بالحياة الكاملة، وتفرد به بالألوهية بلا شريك، والأمر بإخلاص الدعاء والدين له، بحمد نفسه على كمال حياته، وتمام وحدانيته في إلهيته وربوبيته، فقال:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي: الوصف بصفات الكمال، مع المحبة والتعظيم، مستحق لله وحده، خاص به.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾؛ خالقهم ومالكهم، ومدبرهم؛ لكمال صفاته وتمام نعمه. عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما: «من قال: لا إله إلا الله، فليقل على إثرها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قال: فذلك قوله: ﴿فَكَادُغُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (١).

وروي عن سعيد بن جبير؛ أنه كان يستحب ذلك، ويأمر به (٢).

الفوائد والأحكام:

١- أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، بدءاً وإعادة؛ لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، بل إن الناس جزء من الأرض؛

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٣٥٧.

(٢) أخرجه الطبري ٢٠ / ٣٥٨.

لأنهم خلقوا من طين.

٢- إثبات البعث بعد الموت، وتمام قدرة الله تعالى على ذلك؛ لأن من قدر على خلق السموات والأرض فهو على إعادة الناس أحياء بعد موتهم أقدر من باب أولى.

٣- أن أكثر الناس لا يعلمون العلم الذي ينفعهم، فلا يتأملون في الأدلة البينة، والحجج الظاهرة؛ ولهذا ينكرون البعث تكذيباً به واستبعاداً، مع اعترافهم بما هو أولى مما أنكروا؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

٤- لا ينبغي الاغترار بما عليه أكثر الناس؛ فأكثرهم على جهل وضلال.

٥- أنه لا يستوي الأعمى الذي لا يشاهد ما أمامه، ويسير في الطريق على غير هدى، والبصير الذي يشاهد ما حوله، ويسير في الطريق على بصيرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾.

٦- أنه كما لا يستوي الأعمى والبصير، فكذلك لا يستوي المؤمن وغيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءِ﴾.

فالمؤمن يسير على نور من ربه، وبصيرة من أمر دينه، وغيره يتخبط في ظلمات الجهل والكفر، وشتان بين هذا وذاك؛ كما قال تعالى: ﴿أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢].

٧- تقريب القرآن للمعاني بضرب الأمثلة الحسية، فقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾؛ لتقريب المعنى الذي بعده، وهو عدم استواء المؤمن وغيره.

٨- لا بد من الجمع بين الإيثار بالقلب وعمل الصالحات بالجوارح.

٩- لا بد من كون العمل صالحاً، أي: خالصاً لله، موافقاً لشرعه.

١٠- الترغيب في الإيثار والعمل الصالح، والتحذير من الكفر والعمل السيئ.

١١- قلة التذكر والاتعاظ عند كثير من الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا مَّا

تَتَذَكَّرُونَ﴾، فقليل تذكركم، وقليل المتذكر منهم.

١٢- إثبات وتأکید إتيان الساعة، وقيام القيامة بلا شك، ووجوب الإيمان بها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

١٣- تكذيب كثير من الناس بالساعة والقيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٤- يجب الحذر من الاغترار بما عليه أكثر الناس من التكذيب بالساعة، ورد الحق.

١٥- إثبات القول والكلام لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ﴾.

١٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

١٧- وجوب دعاء الله تعالى؛ دعاء عبادة، ودعاء مسألة؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

١٨- تكفله عز وجل ووعدته بإجابة دعاء من دعاه؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾.

١٩- قرب الإجابة من الله عز وجل إذا تحقق الدعاء على وجه صحيح؛ لأن الله رتب الإجابة على الدعاء ترتب الجواب على الشرط؛ فقال: ﴿أَدْعُوهُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. أي: إن تدعوني أستجب لكم.

٢٠- أن الدعاء هو العبادة؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْعُوهُ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾.

٢١- التهديد والوعيد بجهنم للمستكبرين عن عبادة الله تعالى ودعائه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

٢٢- التحذير من الكبر؛ لأنه يحمل صاحبه على التكبر عن قول الحق، وعلى التعالي على الخلق.

٢٣- الجمع للمتكبرين عن عبادة الله تعالى في جهنم بين العذاب الحسي بالنار، والعذاب والمعنوي بالإذلال لهم والإهانة.

٢٤- أنجزاء من جنس العمل، فمن استكبر عن عبادة الله تعالى سيدخل جهنم صاغراً ذليلاً.

٢٥- إثبات جهنم، وأنها موجودة الآن، معدة لأهلها.

٢٦- الامتنان على العباد، وبيان تمام قدرة الله تعالى بجعل الليل مظلمًا؛ ليكون وقتًا للسكن، وجعل النهار مبصرًا؛ ليكون وقتًا للعمل؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾.

٢٧- إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وأحكامه القدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾.

٢٨- فضل الله العظيم على الناس، وقلة الشاكر فيهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾.

٢٩- وجوب شكر الله على نعمه، وعدم الاغترار بها عليه كثير من الناس، فأكثرهم غير شكور لنعم الله وفضله، بل كفور بذلك، ينسب ذلك إلى غير الله، ويستعمله في معصيته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣].

٣٠- إثبات وحدانية الله عز وجل في ربوبيته وألوهيته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٣١- الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، وأنه الرب الخالق لكل شيء، المستحق للعبادة وحده لا شريك له.

٣٢- التعجب والإنكار على المشركين في انصرافهم عن عبادة الله تعالى الرب الخالق لكل شيء، إلى عبادة الأصنام والأوثان، مع قيام البرهان على تفرد الخالق ووحدانيته؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾.

٣٣- أنه كما أفك هؤلاء وصرّفوا عن عبادة الرب الخالق، إلى عبادة آلهة لا تخلق شيئًا، بسبب تكذيبهم الرسول ﷺ وما جاءهم به من الحق؛ كذلك يصرف عن عبادة الله الذين كانوا بآيات الله يمحذون؛ بسبب كفرهم وجحودهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ

يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿١١٠﴾.

٣٤- أن الذنوب والمعاصي تحول دون رؤية الحق ومعرفته؛ كما قال تعالى:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾

[الأنعام: ١١٠]، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٣٥- بيان تمام قدرته عز وجل، والامتنان على العباد بجعل الأرض قراراً لهم، يسكنون ويعيشون عليها، والسماء بناءً وسقفاً للمخلوقات، وتصويرهم وتحسين صورهم، ورزقهم من الطيبات؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ﴿١١٠﴾﴾.

٣٦- تأكيد إثبات وحدانيته عز وجل في ربوبيته وإلهيته، والاستدلال على ألوهيته، بربوبيته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴿١١٠﴾﴾، والتذكير بعظيم إنعامه وإفضاله ورحمته؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴿١١٠﴾﴾، أي: الذي أنعم عليكم بهذه الأشياء الأربعة.

٣٧- تعالیه عز وجل، وتعاضمه، وأنه سبحانه ذو البركة العامة، والإفضال والخير الكثير؛ لقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

٣٨- إثبات اسم الله تعالى: «الحي»، وأنه سبحانه ذو الحياة الكاملة أزلاً وأبداً؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ ﴿١١٠﴾﴾.

٣٩- وجوب دعاء الله تعالى، وإخلاص العبادة والدين له وحده؛ لأنه لا معبود بحق إلا هو؛ لقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴿١١٠﴾﴾.

٤٠- استحقاؤه عز وجل لكمال الحمد، واختصاصه بذلك؛ لكمال في ذاته

وصفاته وفي إنعامه؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١٠﴾﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُ يُصَرِّفُونَ ﴿٦٩﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ۞

لما ذكر الأمر بإخلاص العبادة لله تعالى وحده، وذكر الأدلة والبيّنات على ذلك، أتبع ذلك بذكر النهي عن عبادة غير الله، والأدلة على ذلك، فالأول أعظم مأمور على الإطلاق، والثاني أعظم منهبي على الإطلاق.

قوله: ﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۞ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: إن الله نهاني أن أعبد الذين تدعون وتعبدون غير الله على جهل منكم وضلال؛ من الأصنام، والأوثان، والأنداد.

﴿ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي ۞ ﴾، أي: حين جاءني الآيات البيّنات، والحجج والأدلة الواضحات، والبراهين القاطعات من ربي على أنه لا يستحق العبادة سواه.

﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ ۞ ﴾، أي: أمرني ربي أن أستسلم وأخضع وأنقاد على علم وبصيرة، بالطاعة باطنًا وظاهرًا، بقلبي ولساني وجوارحي.

﴿لَرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، أي: لرب جميع العالمين؛ خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، وهو الله عز وجل وحده لا شريك له، لا رب لهم غيره، ولا معبود لهم سواه.

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ الآية.

لما ذكر أنه نُهي عن عبادة غير الله، ذكر الموجب لهذا النهي، وهو كونه عز وجل المستحق للعبادة وحده؛ لأنه الرب الخالق المحيي المميت.

ومعنى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾، أي: ابتداء خلقكم من تراب بخلق أبيكم آدم من

تراب؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ طِينٍ﴾ (١٣) [المؤمنون: ١٢].

﴿ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ﴾، أي: ثم ابتداء خلق سائر النوع الإنساني في بطن أمه من نطفة، وهي

«المني»، الماء المهين؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِيكَ نُّطْفَةٌ مِنْ مَنِيِّ يُعْنَى﴾ (٣٧) [القيامة: ٣٧]، وقال تعالى:

﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ (٢٠) [المرسلات: ٢٠].

﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ وهي: دم غليظ تعلق في جدار الرحم.

﴿ثُمَّ﴾ بعد اكتمال أطوار خلقكم في بطون أمهاتكم من علقة إلى مضغة إلى عظام،

إلى أن كسا العظام لحماً، وأنشأه خلقاً آخر ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ

نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ (١٣) ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ

عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (١٤) [المؤمنون:

١٣، ١٤].

وقوله: ﴿يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾، أي: أطفالاً، أو ثم يخرج كل واحد منكم طفلاً.

﴿ثُمَّ لَتَبْلُغُوا﴾ اللام في المواضع الثلاثة: للتعليل.

﴿أَشَدَّكُمْ﴾، أي: غاية قوتكم وشدتكم، وتكامل قواكم البدنية والعقلية،

وذلك ما بين الثلاثين سنة إلى الأربعين.

﴿ثُمَّ لَتَكُونُوا شُيُوخًا﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم وابن ذكوان وحزمة

والكسائي بكسر الشين «شُيُوخًا»، وقرأ الباقون بضمها: ﴿شُيُوخًا﴾، أي: تبلغوا سن

الشيخوخة.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّي مِن قَبْلُ﴾، أي: من قبل بلوغ الأشد والشيخوخة.
 ﴿وَلْيَبْلُغُوا﴾، أي: ولأجل أن تبلغوا ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾، أي: وقتًا محددًا معينًا، ومدة
 تنتهي بها أعماركم.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، أي: ولأجل أن تعقلوا وتفكروا في أطوار خلقكم، وأن
 الذي نقلكم في هذه الأطوار، من طور إلى طور، هو المستحق وحده للعبادة الذي لا
 يجوز صرف العبادة لغيره، وهو قادر تمام القدرة على بعثكم بعد موتكم.

﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾، أي: هو وحده الذي يحيي ويميت، أي: المتفرد بالإحياء
 والإماتة، يجعل الحياة في الميت، والموت في الحي؛ كما ذكر تعالى عن إبراهيم عليه السلام
 قوله للذي حاجه في ربه: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ
 إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة:
 ٢٥٨].

﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾، أي: إذا أراد أمرًا وحكم به وقدره.

و﴿أَمْرًا﴾: واحد الأمور، لا واحد الأوامر، أي: إذا قضى شأنًا من الشؤون.
 ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قرأ ابن عامر: «فَيَكُونُ» بالنصب، وقرأ الباقون بالرفع:
 ﴿فَيَكُونُ﴾.

والفاء في قوله: ﴿فَإِنَّمَا﴾: رابطة لجواب الشرط «إذا»، والفاء في قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾
 للتعقيب، أي: فيكون من غير تأخر، ولا ممانعة؛ لأن الله عز وجل لا يعجزه شيء.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ
 مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

ولهذا وُصف عيسى عليه السلام بأنه كلمة الله؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ
 عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَيْنَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْفُسَهُمْ يُصْرَفُونَ﴾ [٦٦] الَّذِينَ كَذَبُوا
 بِالْكِتَابِ وَإِذَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَعْدَاءُ فِي أَعْتَقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ

يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا
 كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ
 فِيهَا فِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾.

قوله: ﴿لَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الاستفهام: للتقرير، والخطاب
 للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ألم تر إلى الذين يجادلون ويخاصمون من المشركين
 والمكذبين في آيات الله؛ لردّها وإبطالها.

﴿أَنْ يَصْرُفُونَ﴾، الاستفهام: للتعجب والإنكار، أي: كيف يُصرفون عن الإيمان بها
 وتصديقها، إلى المجادلة بها وتكذيبها، مع وضوحها وظهورها، ودلالتها على الحق؟!
 ﴿الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ﴾ «الذين»: بدل من الموصول الأول، و«ال» في
 «الكتاب» يحتمل أن تكون للعهد الذهني، أي: الذين كذبوا بالكتاب المعهود «القرآن
 الكريم»، ويحتمل أن تكون للجنس، فيكون المراد به: جنس الكتاب، فيشمل جميع كتب
 الله.

﴿وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا﴾، أي: وبالذي أرسلنا به رسلنا من الكتب، أو من
 الدعوة للإيمان بالله وتوحيده ونبذ الشرك، والإيمان بالبعث، وغير ذلك.
 ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، أي: فسوف يعلمون عاقبة مجادلتهم بآيات الله وتكذيبهم
 بالكتاب، وبالذي أرسلنا به رسلنا، وهذا تهديد ووعيد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَلُومِذِ
 لِنُكَاذِبِينَ﴾.

﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ «الأغلال»: جمع «غُل»، وهي القيود في الأيدي
 والأعناق؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ
 مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾﴾ [يس: ٨]، وقال تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤].

﴿وَالسَّلْسِلُ﴾ الواو: استثنائية، و«السلاسل»: مبتدأ، خبره محذوف، تقديره: في
 أرجلهم، أو خبره: ﴿يُسْحَبُونَ﴾، أي: يسحبون بها.

ويجوز كون «السلاسل» معطوفة على «الأغلال»، فتكون في الأعناق، أي: تغل

أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل.

و«السلاسل»: جمع: «سلسلة»، وهي القيود في الأرجل، وقد تجعل في الأعناق.
 ﴿يُسْحَبُونَ﴾، أي: يجرون بهذه السلاسل التي في أرجلهم على وجوههم إهانة
 وإذا لآلهم؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿٤٨﴾ [القمر: ٤٨].
 ﴿فِي الْحَمِيمِ﴾، أي: في الماء الحار الذي بلغ غاية الحرارة.

﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾، أي: يوقد عليهم فيها اللهب العظيم؛ كما قال تعالى:
 ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ ﴿٦﴾ [التكوير: ٦]، أي: أشعلت وأوقدت نارًا تتأجج، وقال تعالى:
 ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ ﴿٦﴾ [الطور: ٦]، أي: الموجج نارًا.

أي: يسحبهم الزبانية على وجوههم تارة إلى الحميم، وتارة إلى النار الملتهبة.
 كما قال تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٣﴾ ﴿يَطُوفُونَ فِيهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ﴿٤٤﴾
 [الرحمن: ٤٣، ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوَابًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ ﴿٦٧﴾ ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرَجَهُمْ لِآلِ
 الْجَحِيمِ﴾ ﴿٦٨﴾ [الصافات: ٦٧، ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَآ أَصْحَابُ الشِّمَالِ﴾ ﴿٤١﴾ في سُجُورِ
 وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلِّ مِّنْ يَّحْمُورٍ ﴿٤٣﴾ لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ [الواقعة: ٤١-٤٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ
 أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَكُونُونَ شَجَرٍ مِّنْ زُقُومٍ ﴿٥٢﴾ فَالَّذِينَ مِنهَا الْبَطُونُ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ مِنَّا حَمِيمٍ ﴿٥٤﴾
 فَشَرِبُوا شَرَبَ أَلْهِيبٍ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزِّلَتْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ [الواقعة: ٥١-٥٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ
 شَجَرَتَ الزُّقُومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيرِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلِيِّ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾
 خَذُوهُ فَأَعْيَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ
 أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمَتُّونَ ﴿٥٠﴾ [الدخان: ٤٣-٥٠].

﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ﴾ من قبل الملائكة أو غيرهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ ﴿٧٣﴾
 الاستفهام: للتوبيخ والتفريع والتبكيت لهم، والتحقير لمعبوداتهم، أي: أين الذين كنتم
 تشركونهم.

﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: مع الله، أي: أين الأصنام والأوثان التي كنتم تعبدونها من
 دون الله؟ لم ينجسوا اليوم، ويدفعوا عنكم بعض العذاب، وينفعوكم؟ كما قال تعالى:

﴿ وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٢، ٩٣].
 ﴿ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ﴾، أي: غابوا عنا، وذهبوا فلا نراهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا آءَذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَهِيَ تَأْتِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ [السجدة: ١٠].
 أي: غابوا عنا أحوج ما كنا إليهم، فلن ينفعوننا.

﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾ «بل»: للإضراب الانتقالي، أي: لم تكن ندع ونعبد من قبل شيئاً، فأنكروا عبادتهم إياهم ظناً منهم أن ذلك يفيدهم وينفعهم؛ كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مِنْكُمْ مَشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٢٣، ٢٤].

كما ينكر الشركاء في المقابل عبادة المشركين لهم؛ كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ ﴾ [فاطر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الأحقاف: ٦].

ويحتمل أن مرادهم بقولهم: ﴿ بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا ﴾: الإقرار ببطلان عبادتهم إياهم، وأنها لا قيمة لها؛ لأنهم ليسوا بشيء؛ كما قال ﷺ وقد سئل عن الكهان: «ليسوا بشيء»^(١)، أي: ليسوا بشيء يعتد به فيما يقصدهم الناس لأجله.

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [يونس: ٦٦] وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ٥].

﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴾، أي: مثل ذلك الإضلال يضل الله الكافرين، حتى إنهم يوم القيامة يقرون بضلالهم، وبطلان ما كانوا عليه.
 وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: كذلك يضلهم الله؛ للتسجيل عليهم بالكفر،

(١) أخرجه البخاري في الآداب ٦٢١٣، ومسلم في السلام ٢٢٢٨، من حديث عائشة رضي الله عنها.

وأنه سبب إضلالهم وعذابهم، وليعم هذا الوصف بالكفر واستحقاق العذاب كل من سلك مسلكهم.

﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي: ويقال لهم أيضًا من الملائكة أو غيرهم: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ﴾، الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب.

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ الباء: للسببية في الموضعين، و«ما»: مصدرية في الموضعين، أي: بسبب كونكم تفرحون في الأرض، أي: بسبب فرحكم في الأرض. كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ نُهُمُ رُسُلُهُمُ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [غافر: ٨٣].

﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، أي: بالباطل، فرح أشر وبطر واختيال، وهذا هو الفرح المذموم؛ كما قال قوم قارون محذرين له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. وهذا بخلاف الفرح المحمود، وهو الفرح بالخير والعلم والهدى والعمل الصالح؛ قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾، أي: وبسبب كونكم تمرحون، أي: تتوسعون في الفرح. ﴿أَدْخَلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ الأمر للإذلال والإهانة والإلزام، أي: ادخلوا أبواب جهنم أذلاء صاغرين حقيرين.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، أي: ماكثين فيها مكثًا أبديًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧].

﴿فَبئسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، أي: فقبح وساء مأوى ومسكن المتكبرين ومقيلهم جهنم.

وأظهر في موضع الإضمار، فلم يقل: فبئس مَثْوَاكُم؛ لتسجيل التكبر عليهم، وأنه سبب دخولهم النار، وليعمهم هذا العذاب وغيرهم من المتكبرين.

الفوائد والأحكام:

١- نهي الله عز وجل للنبي ﷺ عن عبادة غير الله بما أنزل الله عليه من الآيات

البيئات، والدلائل والحجج الواضحات، والبراهين القاطعات على بطلان عبادة غير الله، وأنه لا يستحق العبادة سواه؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي﴾.

٢- أنه ﷺ في هديه فيما يأمر به أو ينهى عنه على بصيرة ووحى من ربه، ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤].

٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة له ﷺ؛ لقوله: ﴿مِنْ رَبِّي﴾.

٤- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى والاستسلام له، والانقياد والخضوع له عز وجل ظاهراً وباطناً؛ لقوله: ﴿أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٥- إثبات ربوبية الله تعالى لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٦- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدم النهي عن الشرك على قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

٧- إثبات كمال قدرته عز وجل، واستحقاقه العبادة وحده لا شريك له، وتمام قدرته على البعث؛ لا ابتدائه خلق آدم أبي البشر من تراب، وخلق النوع الإنساني من نطفة ونقله في مراحل خلقه من طور إلى طور، إلى بلوغ أجله؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّىٰ مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى﴾.

٨- أن أصل خلق الإنسان من التراب بخلق آدم عليه السلام؛ مما يوجب عليه التواضع والخضوع لله تعالى، وعدم التكبر عن قبول الحق، وعلى الخلق.

٩- عناية الله تعالى بالإنسان في جميع أطوار خلقه، ومراحل حياته إلى بلوغ أجله.

١٠- حكمة الله تعالى البالغة في كون بعض بني آدم يتوفى، وهو في بعض أطوار خلقه، ومراحل حياته، وبعضهم يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً.

١١- بلوغ كل مخلوق الأجل المسمى له، والمدة التي ينتهي بها عمره؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى﴾، فلا أحد يموت قبل أجله، ولا أحد يتأخر عن أجله؛ كما قال

تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

١٢- أن كل يوم يمر على الإنسان ينقص من عمره؛ لأن عمره معدود له غاية ونهاية؛ مما يوجب على المرء تدارك أيام حياته؛ للاستعداد لما أمامه.

قال الشاعر:

المرء يفرح بالأيام يقطعها وكل يوم مضى- يدني من الأجل^(١)

وقال الآخر:

يسر المرء ما ذهب الليالي وكان ذهابهن له ذهاب^(٢)

١٣- في ذكر أصل خلق الإنسان، وأطوار خلقه، ومراحل حياته، تذكير للعباد ليتفكروا ويتأملوا بعقولهم كمال قدرة الله تعالى، ووحدانيته، وتمام قدرته على البعث؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

١٤- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى.

١٥- تفردة عز وجل بالإحياء والإماتة؛ لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾.

١٦- نفوذ قضائه عز وجل وأمره بقوله للشيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ دون تأخر، وأنه

سبحانه لا يعجزه شيء من إحياء أو إماتة أو غير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾.

١٧- إثبات تمام قدرته عز وجل على البعث؛ لأن بيده عز وجل الحياة والموت:

﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ وفي هذا الرد على منكري البعث.

١٨- التعجب من حال المكذبين المجادلين بآيات الله لردها وإبطالها، كيف يصرفون

عن الإيمان بها وتصديقها إلى المجادلة بها وتكذيبها؟ أين عقولهم؟ وأين تدبرهم الآيات؟

لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾.

١٩- ينبغي سؤال الله الثبات على الحق، والخوف من صرف القلب عن الهدى:

(١) انظر: «البصائر والذخائر» ١٠٢/٥، «زهر الآداب» ١/٣٦٧.

(٢) انظر: «المعجم المفصل في شواهد العربية» ١/١٠٥، «شرح الشواهد الشعرية في أمات الكتب النحوية»

﴿رَبَّنَا لَا تُرِخْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨].

٢٠- تهديد المكذبين بالقرآن، وبما أرسل الله به رسله من الهدى؛ لقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أُرْسِلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠).

٢١- شدة عذاب المجادلين في آيات الله، المكذبين بالكتاب، وما أعد لهم من الأغلال في أعناقهم، والسلاسل في أرجلهم، وسحبهم بين الحميم والنار المسجورة الموقدة؛ لقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيمِ تُرَفِّي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (٧٢).

٢٢- تعذيبهم عذاباً معنوياً لا يقل عن العذاب الحسي، بتوبيخهم وتقريعهم على إشرآهم مع الله آلهة لا تنفعهم ولا تدفع عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ (٧٣) مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

٢٣- إقرارهم بتخلي هؤلاء الشركاء عنهم أحوج ما كانوا إليهم، وأنهم لم ينفعوهم؛ لقولهم: ﴿ضَلُّوا عَنَّا﴾.

٢٤- إنكارهم أنهم كان يدعون من دون الله شيئاً؛ ظناً أن ذلك ينفعهم ذلك اليوم؛ لقولهم: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾.

٢٥- إقرارهم ببطلان عبادتهم آلهة من دون الله، وأنها كالعدم لا قيمة لها، وهذا على الاحتمال الثاني في معنى قولهم: ﴿بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئاً﴾.

٢٦- أنه كما أضل الله هؤلاء الكافرين الذين عبدوا من دون الله ما لا ينفعهم وما ليس بشيء، كذلك يضل الله الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾.

٢٧- أن الكفر سبب الإضلال؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١١٠) [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

٢٨- إثبات القدر، وأن من كتب عليه الضلال فهو ضال لا محالة.

٢٩- توبيخ المجادلين بآيات الله، المكذبين بالكتاب وبهدي الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتقريعهم، بأن ما حل بهم من العذاب والنكال إنما هو بسبب فرحهم في

الأرض بغير الحق، ومرحهم؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ ﴿٧٥﴾.

٣٠- جواز الفرح بحق؛ كالفرح بحصول الخير والنصر للمسلمين، والتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح وبالرزق من أهل وأولاد صالحين، ومال حلال يعفه عن السؤال، ونحو ذلك؛ لمفهوم الآية، بل هو مأمور به؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ﴿٤٠﴾. وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾. [يونس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَقَرِّحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٤١﴾. [الروم: ٤-٥] وقال ﷺ فيما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «من سرته حسنة، وساءتة سيئته، فذلك المؤمن»^(١).

٣١- إثبات الأسباب وتأثيرها في المسببات بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ ﴿٧٥﴾.

٣٢- إهانة الكافرين وإذلالهم، وتعذيبهم معنوياً وحسياً؛ بأمرهم بدخول أبواب جهنم والخلود فيها؛ لقوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

٣٣- إثبات وجود جهنم، وتعدد أبوابها، وخلود أهلها فيها.

٣٤- أن جهنم بئس المأوى والمسكن للمتكبرين المكذبين لرسول الله تعالى وآياته؛

لقوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

٣٥- التحذير من التكبر عن الانقياد للحق، والتكبر على الخلق؛ لأن ذلك هو

سبب المجادلة في آيات الله والتكذيب بها، وتكذيب الرسل، المفضي بصاحبه إلى جهنم وبئس المصير.

* * *

(١) أخرجه أحمد ١/ ١٨، والترمذي في الفتن، ما جاء في لزوم الجماعة ٢١٦٥، وابن ماجه في الأحكام

قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّئِكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا آخَرَهُمْ عَنْهُمَا مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّئِكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ هذا تأكيد لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرْ لِذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿غافر: ٥٥﴾، فيه تأكيد لأهمية الاستعانة بالصبر، وتأكيد لتحقق وعد الله تعالى له ﷺ بالنصر.

والأمر بالصبر يشمل: الصبر على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، أي: فاصبر على دعوة قومك، وما ينالك منهم من التكذيب والأذى.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ﴾، أي: إن وعد الله بالنصر والتمكين، وجعل العاقبة لك في الدنيا والآخرة ﴿حَقٌّ﴾، أي: أمر ثابت واقع، لا مرية فيه، ولا شك؛ لكمال صدقه عز وجل، وتمام قدرته.

﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾، الفاء: عاطفة، و«إن»: شرطية، و«ما»: زائدة للتوكيد، أي: فيما

نرينك في حياتك ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعُدُّهُمْ﴾، أي: بعض الذي نتوعدهم به من العذاب والنكال الدنيوي، وهكذا وقع؛ فإن الله أقر عينه بقتل كبرائهم وسادتهم في يوم بدر، وهزيمتهم شر هزيمة، ثم فتح الله عليه مكة وسائر جزيرة العرب في حياته صلى الله عليه وسلم.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾، أي: قبل أن نرينك ذلك.

﴿فَالْيَتِيمَ الَّتِي يُرْجِعُونَ﴾، أي: فاليتيماء التي يردون، وسنريك بهم، ونذيقهم ما توعدناهم به من عذاب الآخرة الذي هو أشد وأبقى وأكبر من عذاب الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ نكر «رسلًا»: للتكثير، أي: رسلاً كثيرين من قبلك.

﴿مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ «من»: تبعية في الموضعين، أي: بعضهم الذين قصصناهم عليك، وأخبرناك خبرهم، وما جرى بينهم وبين أقوامهم، وصرهم على ما حصل لهم من الأذى، وما انتهى إليه أمرهم: من إهلاك المكذبين، وإنجاء الرسل ونصرهم وأتباعهم، وجعل العاقبة لهم في الدنيا والآخرة. وفي هذا تسلية له ﷺ، وبشارة بإهلاك المكذبين له، ونصره عليهم، وجعل العاقبة له وللمؤمنين في الدنيا والآخرة، وتهديد للمكذبين.

﴿وَمِنْهُمْ﴾، أي: وبعض الرسل ﴿مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، أي: الذين لم نقصصهم عليك ولم نخبرك خبرهم، وهم الأكثر؛ كما قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٤].

والذين قصصهم الله عليه في القرآن وسأهم خمسة وعشرون رسولاً، منهم ثمانية عشر رسولاً مذكورون في قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [٨١]، وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوسُفَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٦].

وسبعة ذكروا في آيات متفرقة، وهم: إدريس، وهود، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم، ومحمد.

قال الناظم:

في «تلك حجتنا» منهم ثمانية من بعد عشر، وبعد سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا^(١)

والعرب منهم أربعة: إسماعيل، وشعيب، وصالح، ومحمد، عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾، أي: وما كان لرسول من هؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله تعالى على كثرتهم.

﴿أَنْ يَأْتِكَ بِتَايَةٍ﴾، «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: وما كان لرسول الإتيان بآية، أي: المجيء بآية من الآيات السمعية أو العقلية التي جاؤوا بها.

﴿إِلَّا يَأْتِيَنَّكَ اللَّهُ﴾ «إلا»: أداة حصر، ﴿يَأْتِيَنَّكَ اللَّهُ﴾، أي: بأمر الله الكوني ومشيتته.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ الكوني بنزول النصر للرسول وأتباعهم المؤمنين، وحلول العذاب على الكافرين.

﴿فُضِيَ بِالْحَقِّ﴾، أي: حكم بالعدل بين الرسل وبين المكذبين، فينجي الله الرسل وأتباعهم، ويهلك المكذبين الكافرين؛ كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ﴾، أي: وخسر وقت مجيء أمر الله وقضائه بالحق ﴿الْمُبْطِلُونَ﴾، أي: أهل الباطل وأربابه ودعاته.

(١) البيتان للبيجوري. انظر: «جوهرة التوحيد» ص ١٨٥.

والباطل: ضد الحق، فإذا قُضِيَ بالحق زال الباطل، وإذا جاء الحق زهق الباطل، وإذا زال الباطل وزهق خسر أهله.

وفي هذا تهديد وتحذير للمكذبين له ﷻ من الاستمرار على باطلهم فيخسرون؛ كما خسر المبطلون قبلهم.

وفي الإظهار بقوله: ﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ دون الإضمار بأن يقول: «وخسروا هنالك» تسجيل عليهم بهذا الوصف، وأنه سبب خسرتهم، وأن كل مبطل فهو خاسر.

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٨﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ﴾، أي: الذي جعل لأجلكم الأنعام وخلقها لكم، وهي: الإبل والبقر والغنم.

﴿لِتَرْكَبُوا مِنْهَا﴾، أي: لأجل أن تركبوا منها الذي يُرَكَبُ ويُحْمَلُ عليه، وهي الإبل.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أي: ومنها جميعاً: إبلها وبقرها وغنمها تأكلون لحمًا.

كما قال تعالى: ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧٢].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ كثيرة لا تحصى؛ من شرب لبنها، والانتفاع بأصوافها وأوبارها وأشعارها وجلودها؛ في صنع الأثاث والأمتعة، وغير ذلك. ومن الحرث والسقي على البقر، وعلى الإبل أحياناً، وغير ذلك.

﴿وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ﴾ معطوف على «تركبوا»، أي: ولأجل أن تبلغوا عليها حاجة في صدوركم؛ من حمل الأثقال عليها إلى البلاد البعيدة، والمتاجرة بها، وكونها جمالاً وزينة لكم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾﴾ [النحل: ٦، ٧].

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ فالإبل والرواحل تحملكم في البر، والفلك والسفن تحملكم في البحر؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لِيَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الزخرف: ١٢، ١٣].

﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾، أي: ويظهر لكم آياته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، وأسمائه وصفاته، حتى تروها وتعقلوها.

﴿فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ الاستفهام: للتوبيخ والتحدي والنفي، أي: لا تقدرتون على إنكار شيء من آيات الله؛ لظهورها.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلُوا اللَّهَ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ تأكيد لما سبق في قوله في أول السورة: ﴿﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءِثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾﴾ [غافر: ٢١].

وقد سبق بيان معاني مفردات هاتين الآيتين في الكلام على الآية الأولى منهما.

وقوله هنا: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ﴾، أي: أكثر منهم عددًا وعدة.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾، أي: فما نفعهم ولا دفع عنهم عذاب الله وبأسه.

﴿مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ «ما»: موصولة أو مصدرية، أي: الذي كانوا يكسبونه، أو

كسبهم، من كثرة العدد والعدة والقوة والآثار، وما جمعه من الأموال وغير ذلك.

ويحتمل كون «ما» في قوله: ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ﴾ استفهامية، أي: فما الذي أغنى عنهم

كسبهم؟ والاستفهامية أبلغ؛ لأنها تتضمن النفي مع التحدي، أي: أي شيء أغنى عنهم

كسبهم لما دمرهم الله وأهلكهم؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴾، أي: فلما جاءت هؤلاء المكذبين رسلهم بالآيات البينات، والحجج الواضحات، الدالة على صدقهم، وصحة ما أرسلوا به.

﴿ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴾، أي: فرح هؤلاء المكذبون بالذي عندهم من العلم، وهو ما هم عليه من التقليد لأبائهم على جهل وضلال؛ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا أَفْتَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولُو كَانٍ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ أَقْبَوُا ءَابَاءَهُمْ صَالِينَ ﴾ [١٦] ﴿ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمْ مُبْرَعُونَ ﴾ [٧٠] [الصفوات: ٦٩، ٧٠].

﴿ وَحَاقَ بِهِمْ ﴾، أي: أحاط ونزل وحل بهم.

﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ «ما»: موصولة، أي: العذاب الذي كانوا به يسخرون ويكذبون.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾، أي: فلما أبصروا عذابنا بأعينهم.

﴿ قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾، أي: صدقنا بوحداية الله تعالى إلهًا لا شريك له.

﴿ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴾ هذا تأكيد لما قبله، أي: وكفرونا بكل الذي كنا به مشركين مع الله من الأصنام والأوثان والأنداد، أي: جحدنا ذلك وأنكرناه.

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ﴾، أي: فلم يكن ينفعهم إيمانهم حين رأوا بأسنا وشاهدوه؛ لأنه إيمان عن مشاهدة، لا إيمان بالغيب، وإيمان اضطرار لا اختيار؛

كما قال موسى عليه السلام: ﴿ وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ

الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْنَ ﴾ [النساء: ١٨].

﴿ سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ ﴾ «سنة» مفعول مطلق لفعل محذوف، أو مفعول

به لفعل محذوف، أي: احذروا سنة الله، أي: طريقته الكونية التي قد مضت في إهلاك المكذبين، وعدم قبول توبة من لم يتب إلا بعد معاينة العذاب؛ كما قال تعالى لفرعون لما قال حين أدركه الغرق: ﴿ءَأْمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأْمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، فقال الله تعالى له: ﴿ءَأَكْفُرُ بِكَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠، ٩١].

﴿وَحَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾، أي: خسر وقت رؤية بأسنا الكافرون، أي: ظهر حقيقة خسراهم، حيث خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهلهم؛ لبطان ما هم عليه وكفرهم.

الفوائد والأحكام:

- ١- تأكيد الأمر له ﷺ بالصبر؛ لأهميته، وتأكيد تحقق وعد الله له بالنصر؛ ليطمئن قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾.
- ٢- فضيلة الصبر؛ لأن الله أمر به رسوله ﷺ، وأكد الأمر له بذلك، وهو أمر له ولأمته.
- ٣- أن وعد الله حق ثابت لا شك فيه؛ لأنه سبحانه لا يخلف الميعاد، وفي هذا بشارة له ﷺ ولأمته.
- ٤- وعد الله عز وجل له ﷺ بالانتقام له وللمؤمنين من المكذبين، إما في حياته في الدنيا، وإما في الآخرة، والتهديد والوعيد لهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَمَا نُرِيدُكَ بِعَظْمِ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾.
- وقد أراه الله عز وجل فيهم ما شفا صدره والمؤمنين في بدر وغيرها من الغزوات، ولعذاب الآخرة أشق.
- ٥- تشریفه ﷺ وتكريمه بخطاب الله تعالى له.
- ٦- أن الرسول ﷺ ليس له من الأمر شيء، بل الأمر كله لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿فَكَمَا نُرِيدُكَ بِعَظْمِ الَّذِي نَعُدُّهُمْ أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ﴾ الآية.
- ٧- أن مرجع الخلائق ومردهم إلى الله تعالى، فيجازي كلاً بما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ تَوَفِّيْنَاكَ فَإِلَيْنَا يَرْجِعُونَ﴾.

٨- تهديد المكذبين له ﷺ بأنهم لن ينجوا من العذاب، فإن نجوا من عذاب الدنيا فلن ينجوا من عذاب الآخرة.

٩- إخباره ﷺ بكثرة الرسل قبله، وما جرى لهم مع أقوامهم، وصبرهم على ما نالهم من الأذى من أقوامهم، ممن قصهم الله تعالى عليه، وممن لم يقصصهم عليه تسلياً له وتثبيتاً لقلبه، وتهديداً للمكذبين له؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

١٠- أن الرسل على كثرتهم فإن كل ما جاؤوا به من الآيات إنما هو بإذن الله عز وجل، وليس لأحد منهم أن يأتي بآية إلا بإذن الله؛ لأن ذلك إلى الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. وفي هذا رد على الذين يكذبون بما جاءت به الرسل من الآيات من عند الله، أو يقترحون عليهم الإتيان بآيات من عند أنفسهم.

١١- إثبات الإذن الكوني لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

١٢- التهديد والتحذير للمكذبين المبطلين من مجيء أمر الله بتعذيبهم، والقضاء بالحق بإهلاكهم وخسرانهم، وإنجاء الرسول ﷺ والمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

١٣- خسران أهل الباطل عند نزول العذاب وهلاكهم، وريح أهل الحق ونجاتهم.

١٤- الامتنان على العباد بخلق الأنعام لهم؛ لركوبهم، وأكلهم، والانتفاع بمنافعها الكثيرة، وبلوغ حاجات في صدورهم، وحملهم عليها في أسفارهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبَلَّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

١٥- جواز التمتع بجمال وزينة هذه الأنعام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ

حِينَ تَرْيَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾﴾ [النحل: ٦].

١٦- نعمة الله تعالى على العباد بتسخير الفلك تحملهم وتجاراتهم؛ لقوله تعالى:

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تُحْمَلُونَ﴾.

١٧- الامتنان على العباد بإظهاره آياته الدالة على كمال قدرته، وعظيم خلقه في الأنعام وغيرها، وتحديهم بها؛ مما لا يستطيعون إنكار آية منها إلا على سبيل العناد والمكابرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ﴾ (٨١).

١٨- تقرير المشركين المكذبين بسيرهم في الأرض بأبدانهم، ونظرهم بأبصارهم آثار ما حل بالمكذبين من قبلهم من العقوبات بسبب ذنوبهم، والإنكار عليهم: كيف لا يعتبرون ولا يتعظون بذلك؟ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.

١٩- أن أولئك الأقوام كانوا أكثر من كفار قريش، وأشد منهم قوة واثاراً في الأرض، فما نفعهم ولا دفع عنهم ما كانوا يكسبون عذاب الله حين نزل بهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَعْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (٨٢).

٢٠- أن عذاب الله إذا نزل بقوم لم ينفعهم، ولم يدفعه عنهم شدة قوتهم وما كانوا يكسبونه من المال والعدد والعدة.

٢١- ردهم ما جاءتهم به رسلهم من البينات، وفرحهم بما عندهم من العلم بما ورثوه عن آبائهم من الجهالات والأباطيل التي يحاجون بها لإدحاض الحق؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

٢٢- إقامة الحجة على أولئك الأقوام بما جاءتهم به الرسل من البينات.

٢٣- إحاطة العذاب- الذي كانوا به يسخرون ويكذبون- بهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾.

وفي هذا تحذير من مخالفة الرسل وردّ ما جاؤوا به من البينات.

٢٤- إيمانهم بوحداية الله تعالى، وبراءتهم من الشرك وأهله حين لا ينفعهم ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ، وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾.

٢٥- أن الإيمان عند مشاهدة العذاب، وفي حالة الاضطرار لا ينفع صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَمْ يَكْ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾.

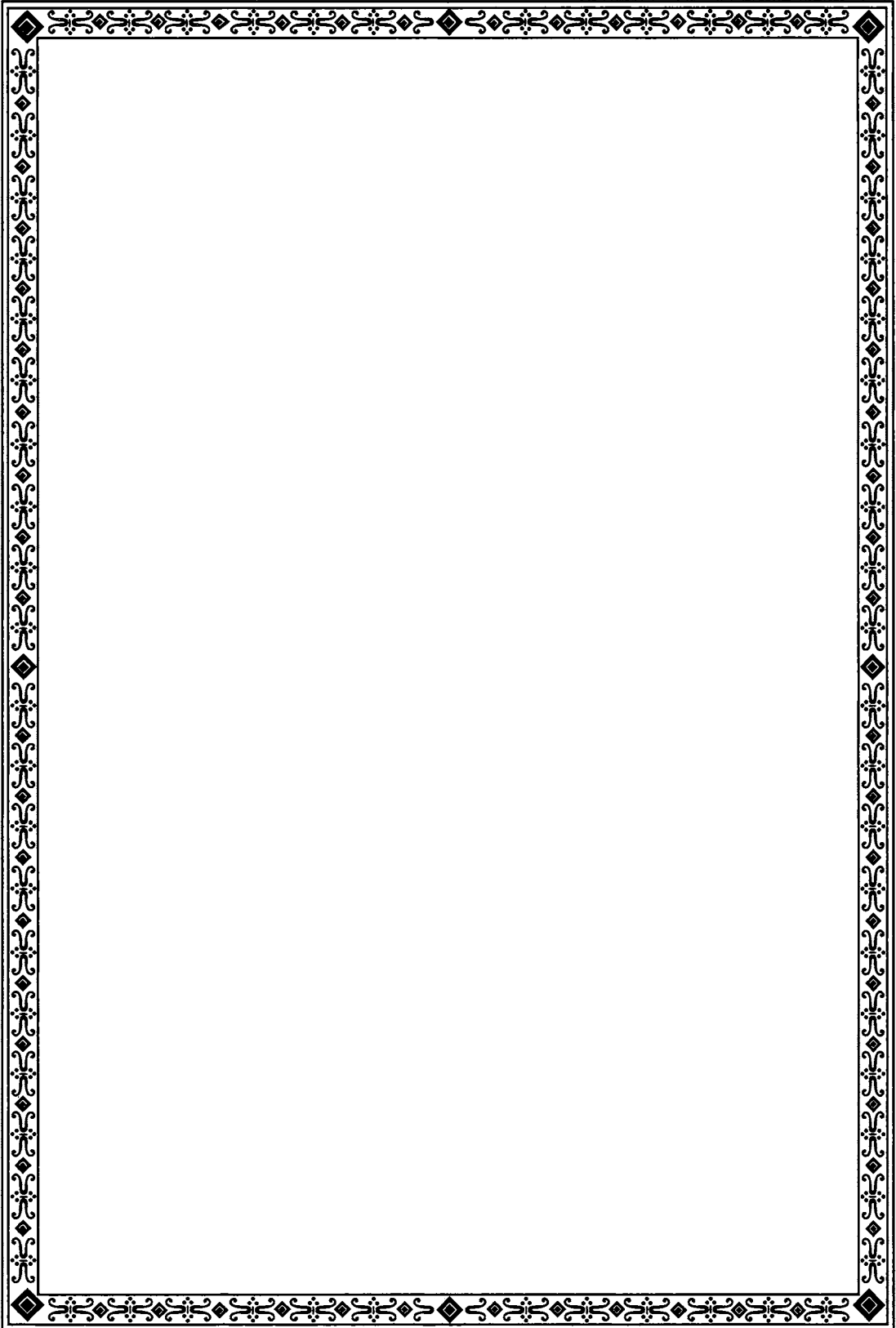
٢٦- أن سنة الله الكونية الماضية في عباده التي لا تتبدل ولا تتحول: إهلاك الكاذبين، وعدم قبول توبة من لم يتب إلا بعد معاينة العذاب لا ينفع صاحبه؛ لقوله تعالى: ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾.

٢٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿فِي عِبَادِهِ﴾.

٢٨- خسارة الكافرين عند حلول العذاب وهم على الكفر خسارة تامة في دينهم ودنياهم وأخراهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكٰفِرُونَ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ فُصِّلَتْ



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت: «سورة فصلت» بهذا الاسم؛ لقوله تعالى في أولها: ﴿كَتَبْنَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ [الآية: ٣].

وتسمى: «سورة حم السجدة»؛ لجمعها بين بدئها بـ «حم» ووجود السجدة فيها دون بقية الحواميم.

وتسمى: «سورة المصابيح»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا﴾ [الآية: ١٢].

كما تسمى: «سورة الأوقات»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [الآية: ١٠].

ب- مكان نزولها:

مكة.

ج- فضلها:

عن جابر رضي الله عنه (أن النبي ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ «ألم تنزيل»، و«تبارك الذي بيده الملك»^(١)).

د- موضوعاتها:

١- افتتحت: «سورة فصلت» بتعظيم القرآن، وبيان إعجازه، وإثبات تنزيله من عنده عز وجل رحمة للعالمين، وامتداحه بتفصيله وكونه قرآنا عربيا مشتملا على التبشير والإنذار ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.

٢- إعراض كثير من المشركين عن القرآن فلا يسمعونه بأذانهم، ولا يتفكرونه بقلوبهم. وتوعدهم بالويل، ووعد المؤمنين بأجر غير ممنون: ﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهَمًّا لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيْءِ آذَانِنَا وَقُرْءَانًا مِّنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن، ٢٨٩٢.

فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَىٰ اللَّهِ
وَأَسْتَغْفِرُوا لَهُ ۚ وَسُئِلَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾.

٣- الإنكار على المشركين كفرهم بالله تعالى مع كمال ربوبيته، وعظيم خلقه،
وواسع ملكه، وتمام تدبيره: ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ
أنداداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ
سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا
طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَتَجْعَلُونَ لَهُ ۚ أنداداً ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رُوسَىٰ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي
أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِبِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا
بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾.

٤- إنذار المعرضين عما جاء به ﷺ من الحق أن يجلب بهم من العذاب ما حل
بعاد وثمود، بسبب تكذيبهم الرسل، وكفرهم بما أرسلوا به، وبيان ما أخذوا به من
العقوبات، وإنجاء المؤمنين المتقين ﴿ فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ
وَتَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا
لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ وَبَجْتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٥﴾.

٥- تهديد ووعد أعداء الله من الكفرة المكذبين والمشركين بحشرهم إلى النار
وشهادة جلودهم عليهم، وما لهم فيها من العذاب الحسي والمعنوي: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ
أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ فَإِن يَصَّبِرُوا قَالُوا إِنَّا لَمِنَ الْمُتَمَرِّدِينَ ﴿١٧﴾ وَإِن يَسْتَعِيبُوا فَمَا
هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿١٨﴾.

٦- تقييذه عز وجل للمشركين قراء زينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم، وحق
عليهم قول الله تعالى في الكفر والخسران والعذاب كالمكذبين قبلهم: ﴿ وَقَيَّضْنَا

لَهُمْ قُرْبَاءٌ فَرَزَيْنَا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِنْ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾

٧- وعد الله تعالى العظيم للذين آمنوا بالله واستقاموا على طاعته بتنزل الملائكة عليهم عند الاحتضار وطمأننتهم بأن لا يخافوا ولا يحزنوا، وبشارتهم بالجنة التي كانوا يوعدون، وما لهم فيها من النزل العظيم، وتوليهم إياهم في الدنيا والآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾

٨- لا أحد أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين.

٩- بيان عدم استواء الحسنة والسيئة، والحث على دفع السيئة بالتي هي أحسن ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَرْزُقْنَاكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾

١٠- بيان عظيم آيات الله تعالى الكونية الدالة على وجوب عبادته تعالى وحده، وتمام قدرته على البعث: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَلْتُّ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا يَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِن اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً إِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾

١١- تهديد ووعيد الملحدون بآيات الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا

أَفَنَنْقَلِي فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

١٢- ذم الذين كفروا بالذكر لما جاءهم، وامتداحه والثناء عليه، وتمام حفظه عز وجل له: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْتُبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾.

١٣- تسليته ﷺ، وبيان أن ما يقال له من التكذيب قد قاله المكذبون للرسول من قبله: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

١٤- إقامة الحجة على المشركين بكون القرآن عربياً: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجْمًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ ءَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ ۗ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي ءَأَادَانِهِمْ وَقُرْهُو عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾.

١٥- التذكير برسالة موسى عليه السلام وإيتائه الكتاب واختلاف قومه وتشكيكهم وارتياهم فيه وتهديدهم.

١٦- تمام عدل الله تعالى فمن عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

١٧- اختصاصه عز وجل بعلم الساعة، وإحاطة علمه بكل ما تخرجه الثمرات من أكمامها وما تحمل حق أنثى ولا تضع إلا بعلمه.

١٨- توبيخ المشركين يوم القيامة بنداؤه تعالى إياهم ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِى قَالُوا ءَأَدَّبْتَنَا مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوا مَا لَهُمْ مِنَ نَجِيصٍ ﴿٤٨﴾﴾.

١٩- بيان أن من طبيعة الإنسان أنه لا يسأم من طلب الخير، وإن مسه الشر أيس وقنط ولئن أذاقه الله رحمة منه بعد ضراء مسته قال هذا لي، وإنكاره الساعة، وإدلاله على الله، وإعراضه عند النعمة، ودعائه العريض إذا مسه الشر، وتهديده عز وجل الكافرين بالعذاب الغليظ: ﴿لَا يَسْمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَعُوْثُ قَنُوطًا ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا

وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ .

٢٠- إثبات أن القرآن من عند الله حقاً، ووعيد وتهديد الكافرين به، وبيان إغراقهم بالضلال والشقاق البعيد، والشك في لقاء ربهم ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٥٢﴾ سَأُزَيِّجُهُمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَّا يَهْتَفُوا بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ﴿٥٤﴾ .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَلِّمٌ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞

قوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ١﴾ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَأَعْمَلْنَا عَمَلُونَ ﴿٥﴾ ۞

قوله: ﴿حَمْدٌ ١﴾ سبق الكلام عليه.

﴿تَنْزِيلٌ﴾: مبتدأ، وخبره: «كتاب»، أو خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا القرآن تنزيل، ونُكِّرَ للتعظيم.

﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، أي: من عند الرحمن الرحيم، وفي هذا إشارة إلى أن تنزيهه بمقتضى رحمته عز وجل، رحمة منه بعباده، بل هو أجل رحمته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ۖ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۗ﴾ [الأنعام: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ فِي ذَٰلِكَ لِرَحْمَةٍ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥١].

﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ نُكِّرَ «كتاب» للتعظيم، أي: كتاب عظيم ﴿فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ تفصيلاً لفظياً؛ بأن جعلت كل آية مستقلة عن الأخرى، مفصلاً بعضها عن بعض، وتفصيلاً معنوياً ببيان معاني آياته وإيضاحها، وما فيها من الحكم والأحكام؛ كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حال، ونُكِّر «قُرْءَانًا»: للتعظيم، أي: حال كونه قرآنًا عربيًّا بأعظم اللغات وأفصحها وأوسعها ألفاظًا ومعاني؛ كما قال تعالى: ﴿يَلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥].

وصدق حافظ إبراهيم في قوله على لسان اللغة العربية (١):
وسعت كتاب الله لفظًا وغاية وما ضقت عن آي به وعظات
﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، أي: يعلمون ويفهمون معناه، وهم العرب، ويتتبعون بعلمهم، فيعملون بالقرآن، فيكون حجة لهم لا حجة عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣].

﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: صفة ثانية لـ «قُرْءَانًا»، أو حال، أي: حال كونه بشيرًا ونذيرًا.
أي: بشيرًا للمؤمنين بما يسرهم من الثواب العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، بيان ما أعد الله لمن اتبعه من الحياة الطيبة والجزاء العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُدَىٰ وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].
﴿وَنَذِيرًا﴾، أي: ونذيرًا للكافرين، أي: محذرًا لهم من العقاب العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

وبين قوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾: طباق، وقدم البشارة على الإنذار؛ لأن رحمة الله تغلب غضبه.

﴿فَاعْرَضَ أَكْثَرَهُمْ﴾: معطوف على قوله: ﴿فُصِّلَتْ﴾، أي: فأعرض أكثر أهل مكة، وأكثر الخلق، أي: انصرفوا عن القرآن.

(١) انظر: «ديوانه» ص ٢٥٣.

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾، أي: لا يسمعون سماع فهم وانتفاع وقبول وإجابة؛ بسبب إعراضهم.

﴿وَقَالُوا﴾ الواو: عاطفة في المواضع الأربعة، أي: وقال هؤلاء المعرضون، من شدة عنادهم وكفرهم:

﴿قُلُوبُنَا فِيْ أَكْتَتٍ﴾، أي: في أغطية، وفي أغلفة مغطاة؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [البقرة: ٨٨].

﴿مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾، أي: مانعة من فهم الذي تدعونآ إليه يا محمد؛ من توحيد الله تعالى وتصديقك، وتصديق القرآن.

﴿وَفِيْءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾، أي: صمم وثقل، فلا نسمعه.

﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، أي: حاجز وسائر وحائل يحول بيننا وبينك فلا نراك، وهذا مبالغة منهم في عدم قبول ما يدعوهم إليه؛ لأنه إذا انسد طريق السمع، وطريق البصر، وهما طريقا وصول المعرفة والعلم والهدى إلى القلب، صار القلب مغلقا لا ينفذ إليه هدى؛ ولهذا قالوا قبل هذا: ﴿قُلُوبُنَا فِيْ أَكْتَتٍ مِّمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾؛ لأنهم أصموا أسماهم عن سماعه، وتعاموا بأبصارهم عن رؤيته.

﴿فَاعْمَلْ إِنِنَّا عَمِلُونُ﴾، أي: فاعمل أنت على دينك وشاكلتك، ونحن نعمل على ديننا وشاكلتنا؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلْ عَلَى شَاكَلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]. وقد يشعر قولهم هذا بالتحدي له ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىٰ أَنَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَجِدْ فَاَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُٓ وَيَلِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ عَيْرٌ مَّمَّنُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله: ﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المعرضين وغيرهم:

﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ﴾ «إنما»: أداة حصر، ﴿مِثْلُكُمْ﴾: للتوكيد، أي: ما أنا إلا بشر مثلكم، ولست بملك، وليس بيدي من الأمر شيء، ولا عندي ما تستعجلون به.

والبشر: هم بنو آدم، وسموا بذلك؛ لظهور بشرتهم عارية غير مكسوة؛ بخلاف

الحيوانات الأخرى، فهي مكسوة إما بالوبر، أو بالصوف، أو بالشعر، أو بالريش، أو بغير ذلك.

ولعل الحكمة في هذا: ليعلم الإنسان أنه كما أنه محتاج إلى اللباس الحسي، فهو أعظم حاجة منه إلى اللباس المعنوي لباس التقوى؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ «بشر»، أي: خصني الله وفضلني عليكم بوحيه إليّ.

﴿أَنَّمَ إِلَهُكُمْ إِلَهًُ وَحِدٌ﴾ مصدر مؤول في محل رفع نائب فاعل للفعل «يوحى»، أي: أنما يوحى إليّ وحدانية إلهكم. والإيحاء: هو الإعلام بسرعة وخفاء، والوحي: ما ينزله الله تعالى من كلامه وشرعه على رسوله.

﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستقيموا على دينه علمًا وعملاً، واقصدوا إليه، وأخلصوا له، ودوموا على ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥].

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم»^(١).

﴿وَأَسْتَغْفِرُكُمْ﴾ لما أمر بالاستقامة، أتبع ذلك بالأمر بالاستغفار؛ لأن العبد مهما حرص على الاستقامة، فلا بد أن يحصل منه خلل؛ بتقصير بمأمور، أو ارتكاب لمحذور، وقد قال ﷺ: «استقيموا، ولن تحصوا»^(٢).

وقد قيل:

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٣٨، والترمذي في الزهد ٢٤١٠، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٢.

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٧٧، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها؟ كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه^(١)
والمعنى: واطلبوا منه عز وجل المغفرة لذنوبكم وما يقع منكم من خلل أو تقصير؛
بستره والتجاوز عنه.

﴿وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ «ويل»: كلمة تهديد ووعيد، أي: ويل وهلاك وعذاب
للمشركين بالله؛ لعدم استقامتهم على أمر الله، ولهذا قال:

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، أي: لا يزكون أنفسهم بالتوحيد والإيمان، وتطهيرها
من الشرك، ولا يزكون أموالهم بالصدقة.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩، ١٠]، وقال
تعالى لموسى عليه السلام: ﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَٰهٌ إِلَّا أَن تَرْكِبَ ﴿١٨﴾﴾
[النازعات: ١٧، ١٨].

وقال ﷺ: «اللهم آتِ نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها»^(٢).

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ﴾؛ يعني: الذين لا يشهدون أن لا إله إلا الله^(٣).

قال ابن القيم: «أي: لا يأتون ما تزكى به أنفسهم من التوحيد والإيمان؛ ولهذا
فسرها غير واحد من السلف بأن قالوا: ﴿لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، أي: لا يقولون: لا إله
إلا الله. فعبادة الله وحده لا شريك له، وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه،
هو أعظم وصية جاءت بها الرسل، ودعوا إليها الأمم».

وقال أيضًا: «وقال كثير من السلف ومن بعدهم: هي التوحيد: شهادة أن لا إله
إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب؛ فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب،

(١) البيت ليزيد بن محمد المهلبى. انظر: «التمثيل والمحاضرة» ص ٩٣، «زهر الآداب» ١/ ٥٥، «نهاية
الأرب» ٣/ ٩٤.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٢٢، والنسائي في الاستعاذة ٥٤٥٨، من حديث زيد بن أرقم رضي
الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٩٥.

وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء، فإن التزكي - وإن كان أصله النماء والزيادة والبركة - فإنه إنما يحصل بإزالة الشر؛ فلهذا صار التزكي ينتظم الأمرين جميعاً، فأصل ما تزكو به القلوب والأرواح هو التوحيد.

﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ﴾، أي: بالدار الآخرة والمعاد والحساب والجزاء.

﴿هُمْ كَفَرُونَ﴾ «هم»: تأكيد للأول، أي: هم جاحدون للآخرة، غير مؤمنين بها؛

كما قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ (٨).

لما توعد المشركين أتبع بوعده المؤمنين؛ جمعاً بين الترغيب والترهيب؛ ليكون العبد

بين الخوف والرجاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ بِأَلْحَابَاتٍ وَبِذَعُونَا رَعَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: صدقوا بالقرآن، وبكل ما أوجب الله الإيمان به من

أركان الإيمان الستة وغيرها.

﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: وعملوا الأعمال الصالحات القائمة على الإخلاص

لله، والمتابعة للرسول ﷺ بجوارحهم.

﴿لَهُمْ أَجْرٌ﴾، أي: لهم خاصة أجر عظيم، وهو ثواب وجزاء إيمانهم وأعمالهم

الصالحة.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾، أي: غير مقطوع ولا ممنوع؛ كما قال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْدُوزٍ﴾

[هود: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ رَزَقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]، أي: في جميع

الأوقات.

الفوائد والأحكام:

١ - إثبات إعجاز القرآن بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره، وتحدي العرب به؛

لقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾ (١).

٢ - تعظيم القرآن الكريم، وإثبات نزوله من عند الله؛ لقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِّنَ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢) كَتَبْتُ فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ، قُرْءَانًا عَرَبِيًّا.

- ٣- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال يكون من أعلى.
- ٤- الرد على المعتزلة القائلين بخلق القرآن.
- ٥- إثبات اسمين من أسماء الله تعالى، هما: «الرحمن» و«الرحيم»، وصفة الرحمة الذاتية له عز وجل، والرحمة الفعلية؛ العامة والخاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.
- ٦- أن «الرحمن» أبلغ من «الرحيم»؛ لهذا قدم عليه.
- ٧- الامتنان على العباد بإنزال القرآن، وأن ذلك من رحمته بهم، بل هو أجل رحمته.
- ٨- أن القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة؛ كما أنه مكتوب بالمصاحف بأيدي المؤمنين؛ لقوله: ﴿كَتَبُ﴾.
- ٩- الامتنان على العباد بتفصيل آيات القرآن وبيانها، وكونه بلغة العرب أفصح اللغات وأوسعها؛ لقوله تعالى: ﴿كَتَبُ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾.
- ١٠- أنه إنما يستفيد من إنزال القرآن، وتفصيل آياته، وكونه عربياً: أهل العلم الذين يتفعلون بعلمهم، ويهتدون به إلى الحق، دون من عداهم؛ لقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.
- ١١- فضل العلم؛ لأنه هو سبب معرفة الحق، والاهتداء إليه بتوفيق الله، وفضيلة أهله المنتفعين به.
- ١٢- تضمن القرآن الكريم البشارة للمؤمنين الذين يصدقون به ويتبعونه، والندارة للكافرين الذين يكذبون به ويخالفونه؛ لقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾.
- ١٣- أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؛ لتقديم البشارة في الآية على الإنذار.
- ١٤- إعراض كثير من قريش وكثير من الخلق عن القرآن، وانصرافهم عنه، وعدم سماعهم له سماع فهم وانتفاع؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.
- ١٥- شدة عتو وعناد المشركين، وإغلاقتهم قلوبهم، وصمهم آذانهم، وحجبهم أبصارهم عما يدعوهم إليه ﷺ، والقرآن الكريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِيءِ آذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾.

١٦- أن السمع والبصر هما طريقا وصول العلم والمعرفة إلى القلب، فإذا انسد هذان الطريقان لم يصل الهدى إلى القلب.

١٧- شدة تشبثهم بما هم عليه من الشرك والكفر والضلال؛ لقولهم: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا نَعْمَلُونَ﴾.

١٨- بيان أنها هو ﷺ بشر مثلهم، يعتريه غالبًا ما يعترى البشر، فليس بملك، ولا بيده من الأمر شيء، ولا يعلم الغيب؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

١٩- أن ما خصه الله تعالى به دونهم، وفضله به عليهم هو الوحي إليه؛ لقوله: ﴿يُوحَىٰ إِلَىٰ﴾.

٢٠- إثبات رسالته ﷺ بوحى الله تعالى إليه.

٢١- إثبات وحدانية الله تعالى في إلهيته، وأن ذلك أهم وأعظم ما جاءت به الرسل عليهم السلام؛ لقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾.

٢٢- وجوب الاستقامة على دين الله علمًا وعملاً، والإخلاص له، والدوام على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ﴾.

٢٣- أن من امثل أمر الله، واجتنب نهيه، وأخلص له العبادة والطاعة، فالأولى أن يوصف بكونه «مستقيماً»، لا «ملتزماً» كما درج على السنة كثير من الناس.

٢٤- وجوب سؤال الله مغفرة الذنوب والتوبة منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا﴾.

٢٥- أن العبد مهما حرص على الاستقامة على أمر الله فإنه لا يخلو من نقص وتقصير، ولهذا أمر بالاستغفار؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا﴾.

٢٦- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للمشركين بالعذاب؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾.

٢٧- ذم المشركين، وبيان سبب توعدهم بالعذاب، وهو عدم تزكيتهم لأنفسهم بالتوحيد، وعدم تطهيرها من الشرك، بالإيمان بالله، والإخلاص له، والاستقامة على أمره، وعدم تزكيتهم أموالهم بالصدقة، وكفرهم بالآخرة، وتكذيبهم بها؛ لقوله تعالى:

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٧).

٢٨- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء على الأعمال.
 ٢٩- وعد الله تعالى للمؤمنين الذين عملوا الصالحات بالأجر والثواب العظيم الذي لا انقطاع له؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾.

- ٣٠- جمع القرآن بين الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد.
 ٣١- لا بد من الجمع بين الإيمان بالقلب، والأعمال الصالحة بالجوارح.
 ٣٢- لا بد من كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله تعالى، تبعًا لشرعه.
 ٣٣- ضمانه عز وجل لثواب أهل الجنة وجزائهم؛ لهذا سماه أجرًا.
 ٣٤- أن نعيم الجنة لا يفنى ولا ينقطع.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَامًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَفَضَّلْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْصِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَوْفَةً مِّثْلَ صَوْفَةِ عَادٍ وَتَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَخْرَجْتُمْ عَنْهَا وَيَوْمَ لَا يُبْصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْمَذَىٰ فَاخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا بَيْنَ يَدَيْنَا ﴿١٨﴾ ۞

بعدما ذكر إعراض المشركين عن القرآن، وما فيه من البشارة والندارة، وعن الآيات الشرعية، أتبع ذلك بذكر كفرهم بالله، وعدم تأملهم في الآيات الكونية، وإنكار ذلك عليهم.

قوله: ﴿ قُلْ ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين أشركوا مع الله غيره؛ منكرًا عليهم: ﴿ أَيُّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ الاستفهام: للإنكار والتوبيخ، واللام: للتوكيد، أي: أنكم أيها المشركون لتكفرون بالخالق العظيم، الذي خلق الأرض في يومين، والذي خلق الأشياء كلها؟ أي: تجحدون إلهيته وتنكرونها، وتستكبرون عن عبادته؟

وقوله: ﴿ خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾، أي: أوجد السبع الأرضين على عظمتها وسعتها في يومين. وبدأ بخلق الأرض؛ لأنها كالأساس.

﴿ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ﴾، أي: وتصيرون له شركاء ونظراء وأمثالًا تعبدونهم من دونه، لا يخلقون شيئًا، بل هم مخلوقون لله.

﴿ ذَلِكَ ﴾ الإشارة إلى الذي خلق الأرض في يومين، وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيمًا له عز وجل، أي: ذلك الذي خلق الأرض في يومين هو سبحانه.

﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كلهم: خالقهم، ومالكهم، والمتصرف فيهم.

و«العالمين»: كل ما سوى الله تعالى من المخلوقات.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا﴾ الواو: عاطفة، أي: وجعل في الأرض، أي: أوجد فيها ﴿رَوَاسِيَ﴾، أي: جبلاً ثوابت.

﴿مِنْ فَوْقَهَا﴾ تشاهد منتصبه فوق الأرض، لها فوائد عظيمة، ولها أصول ثابتة في عمق الأرض، قد تزيد على ما يشاهد منها، قال تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥] [لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

﴿وَوَزَعْنَا فِيهَا﴾، أي: جعلها كثيرة البركات والخيرات، من الزروع والأشجار والثمار والمياه والمعادن، وغير ذلك، مما لا يحصى من بركاتنا.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾، أي: وقدر وقسم في الأرض أقواتها، أي: أرزاق أهلها، وما يقتاتون به ويعتاشون عليه هم وأنعامهم، أي: قدر ذلك وحدده من حيث النوع والكمية والكيفية والمكان والزمان، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَعَلْنَا لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣].

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ تامة: يومان لخلق الأرض، ويومان لجعل الرواسي فيها من فوقها، والمباركة فيها، وتقدير أقواتها.

﴿سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ قرأ أبو جعفر: «سَوَاءً» بالرفع، وقرأ يعقوب: «سَوَاءٍ» بالخفض، وقرأ الباقر: ﴿سَوَاءً﴾ بالنصب.

أي: في أربعة أيام كاملة مستوية، بلا زيادة ولا نقصان، لمن أراد السؤال عن ذلك. أو سواء للسائلين، أي: تقديراً على وفق مصالح طالبي الحاجات من الرزق ونحوه؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكُم مِّن كُلِّ مَسْأَلٍ مُّتَمُوَةً﴾ [إبراهيم: ٣٤].

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾، أي: ثم بعد أن خلق الأرض قصد إلى خلق السماء. فخلق السماء كان بعد خلق الأرض.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾: الجملة حالية، أي: وهي بخار مرتفع تصاعد من الماء الذي كان قبل أن تخلق الأرض.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْتِ يَا﴾، أي: استجيبا وانقادا لأمرى وإلى مرادى منكما.

﴿طَوَّعًا أَوْ كَرْهًا﴾ مصدر في موضع الحال، أي: طائعتين أو مكرهتين.

﴿قَالَتَا أَنِنَا طَائِعِينَ﴾، أي: جئنا طائعين، أي: طائعين لأمرى، مستجيبين له عن

طواعية لا إكراه.

وجمع «طائعين» باعتبار جمع سبع السموات وسبع الأرضين.

﴿فَقَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾، أي: خلقهن وأوجدهن، وفرغ من تسويتهن سبع

سموات ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ آخرين.

فتم خلق السموات والأرض في ستة أيام؛ كما قال تعالى في سورة الأعراف:

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٥٤].

وقد خلق عز وجل الأرض أولاً في يومين؛ لأنها كالأساس، ثم استوى إلى السماء

فسواهن في يومين؛ لأنها سقف المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي

الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وأما دحو الأرض بإخراج مائها ومرعاها، وترسيتهما بالجبال فهو بعد خلق السماء؛

كما قال تعالى في سورة النازعات: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨)

وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالَ

أَرَسَهَا (٣٢) مِّنْعًا لَّكُمْ وَلِاتِّعِمَكُمُ (٣٣) [الآيات: ٢٧ - ٣٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم

استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها

الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله:

﴿دَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فخلقت الأرض وما فيها من شيء في أربعة

أيام، وخلقت السموات في يومين»^(١).

وبهذا الجمع بين الآيات يتبين أن المراد بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾^(١٠) [فصلت: ١٠]: أن مجموع أيام خلق الأرض وما يتعلق بها هو أربعة أيام.

وليس المراد: أن يومي ترسيتهما بالجبال والمباركة فيها وتقدير أقواتها جاء بعد يومي خلقها.

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾، أي: وأوحى في كل سماء شأنها الخاص بها، وبأحوال أهلها.

﴿وَرَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْنُوحٍ﴾، أي: وجعلنا السماء الدنيا، أي: القربى إلى الأرض ﴿بِمَصْنُوحٍ﴾، أي: بنجوم وكواكب مشرقة مضيئة يستنار بها ويهتدى، وزينة وجمالاً للسماء ظاهراً.

﴿وَحِفْظًا﴾ مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: وجعلنا هذه المصاييح حفظاً من استراق الشياطين السمع بالشهب؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَةً لِّلنَّظِيرِينَ﴾^(١١) وَحِفْظُنَّهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ^(١٧) إِلَّا مَن أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ^(١٨) [الحجر: ١٦-١٨].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ﴾^(٦) وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ^(٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْأَعْلَىٰ وَيُقَدِّفُونَ مِّن كُلِّ جَانِبٍ^(٨) دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ [الصفات: ٦-٩].

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى المذكور من خلق الأرض وما فيها، والسماء وما فيها.

﴿تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾، أي: تقدير وخلق وتدبير ذي العزة التامة، الذي قهر بعزته الأشياء كلها، وخلق بها المخلوقات ودبرها.

﴿الْعَلِيمِ﴾، أي: ذي العلم الواسع، المحيط بجميع المخلوقات.

(١) أخرجه البخاري معلقاً في تفسير سورة حم السجدة، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما. انظر:

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْآخِرَةِ وَالْعَذَابُ الْأَخِرُ أَخْرَىٰ لَهُمْ لَا يُصَرُّونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونَ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَبَجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَنْقُونَ ﴿١٨﴾﴾.

بعدهما ذكّرهم بالآيات الشرعية والكونية، وذكر إعراضهم عنها وكفرهم، أتبع ذلك بتهديدهم - إن استمروا في إعراضهم - بعقوبات من قبلهم.

قوله: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾، أي: فإن أعرض هؤلاء المشركون عن الإيمان بالله، والانتقياذ لأمره، والتأمل في آياته الشرعية والكونية، واستمروا على ما هم عليه من الشرك والكفر.

﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثُمُودَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فقل لهم يا محمد: خوفتكم وحذرتكم ﴿صَاعِقَةً﴾، أي: عقوبة شديدة تصعقكم، أي: تهلككم، ﴿مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ﴾: وهم قوم هود عليه السلام الذين أهلكوا بالريح العقيم. ﴿وَتُمُودَ﴾: معطوف على «عاد»، أي: ومثل صاعقة ثمود قوم صالح عليه السلام الذين أهلكوا بالصيحة. وتخصيص عاد وثمود بالذكر بين الأمم المهلكة؛ لأنهم في الجزيرة، وأثارهم معلومة عند العرب، ولشدة عقاب الله لهم.

﴿إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ «إذ»: ظرف بمعنى حين، أي: حين جاءتهم الرسل، وجمع الضمير في قوله: ﴿جَاءَتْهُمْ﴾ باعتبار مجموع أفراد عاد وثمود، وجمع «الرسل» باعتبار أن هودًا وصالحًا جاء بها جاء به المرسلون قبلهم وبعدهم؛ كما في قوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الشعراء: ١٢٣] ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء: ١٤١] وهم إنما كذبوا هودًا وصالحًا، ولكن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين.

﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾، أي: يتبع بعضهم بعضاً متوالين، ودعوتهم واحدة، فهود وصالح جاءا بما جاءت به الرسل قبلهم من الدعوة إلى الله، والتذكير بآياته الكونية والشرعية، المينة للحق أتم بيان؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْنَا عَادًا إِذْ أَنْذَرْنَا قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ الشُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحقاف: ٢١].

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ «أن»: يحتمل أن تكون مصدرية، أي: بألا تعبدوا إلا الله، أي: إذ جاءتهم الرسل بعدم عبادة غير الله. وتكون «لا» على هذا نافية. ويحتمل أن تكون «أن» تفسيرية، أي: إذ جاءتهم الرسل قائلين لهم: لا تعبدوا إلا الله، وتكون «لا» على هذا ناهية.

وهذا معنى: لا إله إلا الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، أي: فردوا رسالتهم وقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾، اللام: واقعة في جواب «لو»، أي: لو شاء ربنا ألا نعبد إلا إياه لأنزل رسلاً من الملائكة، وهكذا قال كفار مكة كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨].

وهذه حجة باطلة؛ لأن المرسل إليهم بشر، فكيف ينزل الله ملائكة على بشر؟ ولو فرض أن الله أنزل ملكاً لجعله بصورة بشر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الفاء: عاطفة لربط المسبب بالسبب، أي: فسبب أنكم لم تكونوا ملائكة فإننا بما أرسلتم به ﴿كَافِرُونَ﴾، أي: مكذبون به، جاحدون له؛ لأنكم بشر مثلنا؛ كما في قولهم: ﴿قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥].

وقولهم: ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ هذا على سبيل التنزل، لا على سبيل الإقرار؛ لأنهم لا يصدقون بأنهم رسل، وهو متعلق بالخبر: ﴿كَافِرُونَ﴾، وقُدِّم عليه؛ لإفادة الحصر، مع

مراعاة الفواصل.

﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ الآية:

لما ذكر عن عاد وثمود ما اشتركا فيه من المكابرة والإصرار على الكفر، فصل هنا ما اختصت به كل أمة منهما من صور الكفر، وما حل بهما من العذاب.

قوله: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما»: حرف شرط وتفصيل في الموضعين، والسين والتاء للمبالغة، أي: تكبروا تكبراً عظيماً عن قبول الحق، وتعالوا على الخلق، وبغوا وطغوا وتجبروا في الأرض.

﴿ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾: حال من فاعل «استكبروا»، وفيه زيادة تشنيع عليهم لاستكبارهم؛ لأن الاستكبار لا يكون بحق أبداً، لأن الكبر من خصائص الله تعالى، قال تعالى في الحديث القدسي: «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منها قذفته في النار»^(١). وفي حديث أبي سعيد، وأبي هريرة رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبت»^(٢).

﴿ وَقَالُوا ﴾: معطوف على «استكبروا»، أي: وقالوا من شدة استكبارهم، مغترين بقوة تركيبهم، وشدة قواهم، معتقدين أنهم يمتنعون بها من بأس الله. ﴿ مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً ﴾ «من»: اسم استفهام، ومعناه النفي، أي: لا أحد أشد منا قوة؛ ولهذا رد الله عليهم بقوله:

﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ الاستفهام: للتقريع والإنكار والتقريع، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: أولم يعلموا أن الله الذي خلقهم وأوجدهم من العدم هو أشد منهم قوة، فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا؟ فلو نظروا إلى هذه الحال نظراً صحيحاً لم يغتروا بقوتهم.

﴿ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا ﴾ معطوف على «استكبروا»، أي: وكانوا بآياتنا الدالة على وحدانية الله تعالى، والمذكورة لهم بنعم الله تعالى عليهم، والمحذرة لهم من عذاب الله؛ كقول هود عليه

(١) أخرجه أبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠.

السلام لهم: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا ءَالَآءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقوله: ﴿وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَّاكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ (١٣٢) ﴿أَمَّاكُمْ بِأَنعَمِ وَبَيْنَ﴾ (١٣٣) ﴿وَحَنَّتِ وَعْيُونِ﴾ (١٣٤) ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٣٥) [الشعراء: ١٣٢-١٣٥].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمِطِرًا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١٣٤) ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ (١٣٥) [الأحقاف: ٢٤، ٢٥].

﴿يَجْحَدُونَ﴾، أي: يكفرون بها ويكذبونها وينكرونها.

﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فسخرنا وسلطنا عليهم ﴿رِيحًا﴾، نُكِّرَتْ للتعظيم، أي: ريحًا عظيمة عاتية.

﴿صَرَصَرًا﴾، أي: شديدة البرد، شديدة الصوت؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قوتهم، وهي الريح العقيم، وهي الدبور؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ (٤١) ﴿مَا نَذُرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّيمِ﴾ (٤٢) [الذاريات: ٤١-٤٢]. وقال ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور» (١).

﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم بكسر الحاء: ﴿نَحْسَاتٍ﴾، وقرأ الباقر بإسكانها: «نَحْسَاتٍ»، أي: مشؤومات.

وهذا على سبيل الإخبار عنهن لا على سبيل السب لهن، وهن ثمانية أيام، وسبع ليالٍ متتابعات، ابتدأت بفجر اليوم الأول، وانتهت بغروب شمس اليوم الثامن؛ كما قال تعالى:

﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرَّصِرٍ عَاتِيَةٍ﴾ (٦) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ (٧) ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (٨) [الحاقة: ٦-٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ رِيحًا صَرَّصِرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ (١١) ﴿تَرْزُقُ النَّاسَ﴾

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازٌ تَخَلَّ مُنْقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ [القمر: ١٩، ٢٠].

﴿تُنذِقُهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن نذيقهم
 ﴿عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: عذاب الهون والذل في الحياة الدنيا، أي: العذاب
 الذي يذلهم ويهينهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَيُّومَ تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣].
 فاجتمع عليهم مع العذاب الحسي بالتدمير والإهلاك، العذاب المعنوي بالخزي
 الذي لا يقل عن العذاب الحسي.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾ اللام: للتوكيد، ﴿أَخْرَىٰ﴾، أي: أشد خزيًا من خزي عذاب
 الدنيا؛ لأن عذاب الآخرة على رؤوس الخلائق ومشهدهم كلهم، وهو أشد من عذاب
 الدنيا وأبقى وأكبر؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى:
 ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَالْعَذَابُ الْآخِرَةُ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

﴿وَهُمْ لَا يَصُرُونَ﴾، أي: لا أحد ينصرهم فيدفع عنهم عذاب الله، أو يرفعه عنهم،
 ولا هم ينتصرون بأنفسهم؛ كما كانوا يعتدُّون بشدتهم وقوتهم.
 ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْتَهُمْ﴾، أي: أرشدناهم إلى طريق الحق والهدى، ودللناهم عليه،
 وبيّناهم بيانا ظاهرا؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَيْنَأْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الاسراء: ٥٩].
 أي: آية مبصرة بيّنة واضحة على صدق صالح عليه السلام، وصحة ما جاءهم به.
 ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ السين والتاء: للمبالغة، أي: فاختراروا الجهل والكفر
 والضلال ﴿عَلَى الْهُدَىٰ﴾، أي: على العلم والإيمان، وكذبوا نبيهم صالحا عليه السلام
 وخالفوه، وعقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية.

﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ﴾، أي: فأصابتهم وأهلكتهم صاعقة العذاب المهين
 المذل لهم، وهي الصيحة الشديدة التي رجفت بهم، وقطعت قلوبهم في أجوافهم.
 ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي
 كانوا يكسبونه، أو بسبب كسبهم من اختيار الجهل والكفر والضلال على العلم
 والإيمان والهدى - مع ما أعد لهم من العذاب الشديد في الآخرة.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (١٨) من عاد وثمود، أي: خلصناهم من العذاب بسبب إيمانهم بقلوبهم، وتقوى الله بجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (٥٨) [هود: ٥٨].
وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (٦٦) [هود: ٦٦].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين كفرهم بالخالق العظيم رب العالمين، الذي خلق الأرض وما فيها، والسماء وما عليها، وجعلهم له أندادًا لا تخلق شيئًا، بل هي مخلوقة لله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي كُفِّرُوكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَيَجْعَلُونَ لَهُ ءَأْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١) الآيات.

٢- أن الله تعالى خلق الأرض في يومين؛ لقوله: ﴿خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾.

٣- تحريم الشرك واتخاذ الأنداد مع الله؛ لأن الله أنكر ذلك على المشركين، ودل على امتناع الند له عز وجل بكونه سبحانه هو رب العالمين.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع العالمين؛ خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾.

٥- أن الله عز وجل جعل في الأرض رواسي من فوقها، وبارك فيها، وقدر فيها أقواتها في يومين آخرين، فيكون خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام تامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِّنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلنَّاسِ لَيْلٍ﴾ (١٠).

٦- الامتنان على العباد بخلق الأرض، وترسيتهما بالجبال حتى لا تميد بهم، ونشر البركة والخير فيها، وتقدير أقواتها حسب حاجاتهم ومصالحهم.

٧- التنبيه والتذكير بنعمة الله تعالى بترسية الأرض بالجبال من فوقها؛ لما في ذلك من الفوائد العظيمة من حفظ توازن الأرض، ومن كونها أعلامًا يهتدى بها، ودرئها العواصف، ووجود المغارات والملاجئ فيها، وانحدار السيول من سفوحها وقممها وخطورها بشدة إلى الرياض الخصبة المنبتة، وما جعل الله تعالى في قممها من أنواع

المعادن الجيدة، وغير ذلك.

٨- أن كل شيء عند الله عز وجل بمقدار من الأقوات والأرزاق وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا نُنزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩].

٩- أن خلق السماء بعد خلق الأرض، وكانت دخانًا قبل ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾، أي: قصد وعمد إلى خلقها؛ كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

١٠- أمره عز وجل للسماء والأرض بالإتيان طوعًا أو كرها، وانقيادهما لأمره، وإتيانها طائعتين؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

١١- انقياد جميع المخلوقات وتسليمها التام لأمر الله تعالى الكوني.

١٢- أن الله عز وجل خلق السموات السبع، وفرغ منها في يومين؛ لقوله تعالى: ﴿فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنٍ﴾.

١٣- أن خلق السموات والأرض وما فيها كان في ستة أيام، وفي ذلك دلالة على كمال وعموم ربوبيته، وتمام قدرته تعالى وحكمته؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤].

١٤- إيجاز عز وجل في كل سماء أمرها وشأنها، وما تحتاجه؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾.

١٥- تزيينه السماء الدنيا بنجوم وكواكب مضيئة على أهل الأرض، وحرسًا لها من استراق الشياطين السمع من الملأ الأعلى؛ لقوله تعالى: ﴿وَرَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَحِفْظًا﴾.

١٦- التنويه بعظمته عز وجل، وعظمة خلقه وتقديره وإتقانه، وكمال عزته، وسعة علمه؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾.

١٧- إثبات اسمين من أسماء الله عز وجل، وهما: «العزیز» و«العلیم»، وصفتي:

- العزة والعلم التامتين؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.
- ١٨- في اقتران اسميه العزيز والعليم، وصفتي «العزة» و«العلم» في حقه عز وجل كمال إلى كمال.
- ١٩- إنذار المعرضين عن الإيمان، وعن الانقياد لأمر الله تعالى، وعن التأمل في آياته، وتحذيرهم من عقوبات المكذبين قبلهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَعِقَةً مِثْلَ صَعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾.
- ٢٠- ينبغي التأمل فيما حل بالمكذبين من العقوبات بسبب إعراضهم وتكذيبهم، والحذر من ذلك، والسعي من وعظ بغيره.
- ٢١- أن من أشد عقوبات المكذبين ما حل ب«عاد وثمود» من قبائل الجزيرة.
- ٢٢- إقامة الحججة على عاد وثمود بمجيء الرسل إليهم، من بين أيديهم ومن خلفهم، يأمرونهم بعبادة الله تعالى وحده، وترك عبادة ما سواه؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾.
- ٢٣- تكذيبهم وكفرهم بما جاءتهم به رسلهم بحجة أنهم بشر، وليسوا بملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا لَكِنَّا مَلَكًا فَإِنَّا يَمَّا أُرْسِلَتْ بِهِ كُفْرُونَ﴾.
- ٢٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وإقرار الكفار بها، وبربوبية الله تعالى لهم ربوبية عامة؛ لقولهم: ﴿لَوْ شَاءَ رَبُّنَا﴾.
- ٢٥- إثبات علو الله تعالى على خلقه، وإثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء، وإقرار الكفار بذلك؛ لقولهم: ﴿لَأَنْزَلْنَا لَكِنَّا مَلَكًا﴾.
- ٢٦- استكبار عاد في الأرض بغير الحق، واغترارهم بقوتهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾.
- ٢٧- أن الاستكبار لا يكون بحق أبدًا؛ لأن الكبر من خصائص الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.
- ٢٨- الإنكار عليهم وتقريعهم في زعمهم أنه لا أحد أشد منهم قوة، وتقريعهم بأن الذي خلقهم هو أشد منهم قوة، فلولا خلقه إياهم لم يوجدوا؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ

بِرَّوَأَنْتَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴿٢٩﴾.

٢٩- كفرهم بآيات الله، وتكذيبهم بها، وإنكارهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

بِجَحْدُونَ﴾، فجمعوا بين الاستكبار والتكذيب.

٣٠- إهلاكهم بالريح الصرصر العاتية، شديدة البرد، شديدة الصوت؛ تعذيباً

لهم، وخزياً في الحياة الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ

لِنَذِيْقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣١- جواز نسبة النحس إلى الأيام على سبيل الإخبار، لا على سبيل السب والشؤم؛

لقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ﴾.

قال ابن القيم: «فلا ريب أن الأيام التي أوقع الله سبحانه فيها العقوبة بأعدائه

وأعداء رسله كانت أياماً نحسات عليهم؛ لأن النحس أصابهم فيها، وإن كانت أيام

خير لأولياءه المؤمنين، فهي نحس على المكذبين، سعد للمؤمنين، وهذا كيوم القيامة؛

فإنه عسير على الكافرين، يوم نحس لهم، يسير على المؤمنين، يوم سعد لهم»^(١).

٣٢- الجمع للمكذبين من عاد بين العذاب الحسي المهلك، وبين العذاب المعنوي

المخزي المذل المهين في الدنيا؛ لقوله تعالى: ﴿لِنَذِيْقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

٣٣- الجمع لهم ولغيرهم من المكذبين بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة

الذي هو أشد وأخزى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى﴾.

٣٤- إثبات الدار الآخرة وما فيها من الثواب والعذاب.

٣٥- أنه لا ناصر لهم لا من أنفسهم، ولا من غيرهم، يدفع عنهم عذاب الله أو

يرفعه؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُنصُرُونَ﴾.

٣٦- إقامة الحججة على ثمود بدلائلهم وإرشادهم إلى الحق، وإيتائهم الناقة آية

مبصرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَهُمْ﴾.

٣٧- اختيارهم العمى والجهل، والكفر والضلال، على العلم والإيمان والهدى؛

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٩٦.

- لقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نَمُودٌ فَهَدَيْتَهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾.
- ٣٨- أن من كتب عليه الضلال فلن يهتدي مهما يُبَيِّن له الحق وأرشد إليه.
- ٣٩- أن هداية الدلالة والإرشاد عامة لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم.
- ٤٠- إثبات الاختيار للإنسان، وأنه ليس مجبراً على فعله؛ لقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾، وفي هذا رد على الجبرية.
- ٤١- إهلاك ثمود بصاعقة العذاب الهون، وهي صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم، وأذلتهم، وأهانتهم، فاجتمع لهم العذاب الحسي، والعذاب المعنوي؛ لقوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ صَاعِقَةً الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾، مع ما ينتظرهم كنظرائهم عاد وغيرهم من المكذبين من عذاب الآخرة، الذي هو أشد وأكبر إيلاماً، وأعظم خزيًا وهوأناً.
- ٤٢- التحذير من إيثار العمى على الهدى، وأن ذلك سبب للعقوبة العاجلة.
- ٤٣- إثبات الأسباب، وأن ما حل بهؤلاء المكذبين بسبب كسبهم، وهو اختيارهم الكفر على الإيثار؛ لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.
- ٤٤- إنجاء المؤمنين المتقين من العذاب؛ لإيمانهم وتقواهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾.
- ٤٥- لا بد من الجمع بين الإيثار والتصديق بالقلب، وتقوى الله بعمل الجوارح.
- ٤٦- فضيلة الإيثار والتقوى والترغيب فيهما؛ لأنها سببا النجاة من العذاب في الدنيا والآخرة.
- ٤٧- كمال عدل الله عز وجل؛ حيث أهلك المكذبين، وأنجى المؤمنين المتقين.

قال الله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَئِن لَّوَدِدُنَا لَمَّ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ * وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ وَإِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْرَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْآخِرَةِ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسِ جَعَلَهُمَا مَحْتًا أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لَئِن لَّوَدِدُنَا لَمَّ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ .

قوله: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ ﴾ قرأ نافع ويعقوب بالنون وفتحها، وضم الشين: «نَحْشَرُ»، ونصب: «أَعْدَاءُ»، وقرأ الباقون بالياء وضمها، وفتح الشين: ﴿يُحْشَرُ﴾، ورفع: ﴿أَعْدَاءُ﴾.

و«يوم»: متعلق بفعل محذوف، أي: اذكر لهؤلاء المكذبين وغيرهم يوم يحشر أعداء الله، أي: يوم يجمعون ويساقون إلى النار.

وأعداء الله هم الكفار؛ كما أن أولياءه هم المؤمنون؛ كما قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾، أي: يرد أولهم على آخرهم ويساقون إلى النار سوقاً عنيفاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَوْقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِدًا﴾ ﴿٨١﴾ [مريم: ٨٦].

﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: حتى إذا جاؤوها ووردوها ووصلوها.

﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم من الكفر والشرك والمعاصي، وهم ينكرون ذلك؛ كما في قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

فتشهد عليهم أسماعهم بما سمعت من الباطل، وتشهد عليهم أبصارهم بما أبصرت من ذلك، وتشهد عليهم جلودهم بما مست.

وقوله: ﴿وَجُلُودُهُمْ﴾ من عطف العام على الخاص؛ لأن الجلود تحوي جميع الأعضاء والجوارح والحواس، فشهادتها عليهم بمثابة شهادة جميع أعضائهم. فذكر السمع والبصر من بينها؛ لأن أكثر الذنوب تقع بسببها، وذكر الجلود؛ لأنها تعم جميع الجوارح.

﴿وَقَالُوا لِيَجُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾ الاستفهام: للتوبيخ واللوم والعتاب، أي: لاموا جلودهم وعاتبوها: لم شهدتم علينا، ونحن ندافع عنكم؟ وخصوا الجلود؛ لأن لومها لوم لجميع الأعضاء.

﴿قَالُوا﴾، أي: قالت الجلود وغيرها من الأعضاء: ﴿أَنْطَقْنَا اللَّهُ﴾ بالشهادة عليكم، ﴿الَّذِي أَنْطَقَ﴾ بقدرته التامة، ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ فلا يستعصي عليه شيء، ولا يخرج عن إرادته وتقديره شيء.

﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، أي: وهو لكمال قدرته أوجدكم من العدم أول مرة، وبقدرته أنطقنا، وبقدرته يبعثكم خلقاً جديداً؛ ولهذا قالوا:

﴿وَالِيَهُ تُرْجَعُونَ﴾، أي: تُردون خلقاً جديداً للحساب والجزاء على أعمالكم. والتعبير بالمضارع ﴿تُرْجَعُونَ﴾ لاستحضار حالتهم ووقوفهم بين يدي الله، وما

ينتظرهم من العذاب.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ من كلام الله تعالى، وليس من تنمة كلام الجلود.

أي: أنه عز وجل لما ذكر حشرهم وجمعهم يوم القيامة دلل عليهم بالخلق الأول، فقال: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(١)؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾؛ عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «اجتمع عند البيت قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، كثيرة شحم بطونهم، قليلة فقه قلوبهم، فقال أحدهم: أترون أن الله يسمع ما نقول؟ قال الآخر: يسمع إن جهرنا، ولا يسمع إن أخفينا. وقال الآخر: إن كان يسمع إذا جهرنا فإنه يسمع إذا أخفينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾»^(١).

قوله: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾، أي: وما كنتم تستخفون عند ارتكابكم المعاصي، ﴿أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ «أن» والفعل «يشهد» في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله بحذف مضاف، أي: مخافة أن يشهد، أو في محل جر بحرف جر محذوف، أي: من أن يشهد، و«لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي في الموضعين.

أي: وما كنتم تستخفون عند ارتكابكم المعاصي خوفاً من أن يشهد عليكم بذلك سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم؛ لأن هذه الجوارح لا انفكاك لكم عنها، ولأنكم لم توقنوا بالبعث، ولم يطرأ على بالكم أن هذه الجوارح ستشهد عليكم يوماً من الأيام.

﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ «لكن»: حرف استدراك لا عمل له، والمصدر المؤول: «أن الله لا يعلم» في محل نصب سد مسد مفعولي «ظننتم»، أي: ولكن

(١) أخرجه البخاري في التفسير، قوله: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ ٤٨١٧، ومسلم في صفات

المنافقين ٢٧٧٥، والترمذي في تفسير سورة حم السجدة ٣٢٤٨، وأحمد ١ / ٣٨١، ٤٠٨.

ظننتم بارتكابكم الكفر والمعاصي، واستتاركم عن الخلق.

﴿أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾، «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: أن الله لا يعلم كثيرا من الذي تعملونه، أو من عملكم، وأنكم تستطيعون الاستتار عنه كما استترتم عن الخلق.

وهذا من أعظم سوء الظن بالله؛ ولهذا قال:

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ السَّيِّئِ الْفَاسِدِ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ﴾ مما لا يليق بجلاله، وهو

اعتقادكم الباطل أنه لا يعلم كثيرا مما تعلمون، ﴿أَرَدَنْتُمْ﴾، أي: أهلككم.

﴿فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي: فصرتم بسبب هذا الظن السيئ من الخاسرين،

الذين خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهلبيهم؛ كما قال تعالى:

﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر:

١٥].

﴿فَإِنْ يَصْبِرُوا﴾ على العذاب ﴿فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾، أي: مأوى ومسكن لهم، لا

مفر لهم منها، ولا محيد لهم عنها، أي: فليس لهم إلا النار صبروا أو لم يصبروا، وهذا من

باب التيسيس لهم؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [هود: ١٦]،

وقال تعالى: ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الطور: ١٦].

﴿وَإِنْ يَسْتَعْتَبُوا﴾، أي: وإن يطلبوا ويسألوا العتبي، وقبول عذرهم، والرضا

عنهم، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾، أي: فما هم من المجابين إلى ما طلبوا من قبول عذرهم،

وإزالة عتبا عليهم والرضا عنهم؛ لفوات الأوان؛ كما قال تعالى: ﴿فِيَوْمٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ

ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُؤَدُّ لِلَّذِينَ

كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ

يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥].

قال ابن القيم: «أي: وإن يطلبوا إعتابنا، وهو إزالة عتبا عليهم، فما هم من المزال

عنهم؛ لأن الآخرة لا تقال فيها عثراتهم، ولا يقبل فيها توبتهم»^(١).

قوله تعالى: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ فَرَزِنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أَمْرِ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾^(٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا سَمْعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ^(٥٦) فَلَنذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ^(٥٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا دَارٌ أَلْخَلَدُ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَمْحَدُونَ^(٥٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ آمَنَّا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ^(٥٩).

قوله: ﴿وَقِيضْنَا لَهُمْ﴾، أي: وهيأنا وقدرنا لهؤلاء المشركين المكذبين، وسلطنا عليهم ﴿قُرْنَاءَ﴾، أي: أصحاب سوء ملازمين لهم من شياطين الإنس والجن، فشياطين الإنس من دعاة الكفر والضلال يتولونهم في الظاهر، وشياطين الجن يتولونهم في الباطن بالوسوسة ونحو ذلك؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾^(٦١) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ^(٦٢) [الزخرف: ٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفَوْا بِعَهْدِكُمْ وَلَا يَرْجِعُوا إِلَى الْعُقَابِ أُولَٰئِكَ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَأَنبَسُوا لَهُمْ كَلِمَاتٍ سَلَامًا مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَأَمْسَقَتِ أَعْيُنُهُمْ كَأَن لَّمْ يَرَوْا شَيْئًا وَيَسْمَعُونَ صَوْتًا وَهَاهُنَا مُجْزَاءُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَهْدِهِمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا سَيُجْزَوْنَ أَجْرًا بَعِيدًا مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٦٣) [الاحزاب: ٨٣].

أي: تزعجهم إلى المعاصي إزعاجًا. ﴿فَرَزِنُوا لَهُمْ﴾، أي: فحسنوا لهم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: الذي بين أيديهم مما ليس بحسن، مما هم عليه من الكفر والشرك والمعاصي، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، أي: وحسنوا لهم الذي أمامهم، من الاستمرار على ما هم عليه من الكفر والشرك في المستقبل. أو: فحسنوا لهم الذي بين أيديهم من زخارف الدنيا وزينتها ولذاتها وشهواتها الفانية، فانشغلوا بها عما خلقوا له، وحسنوا لهم الذي أمامهم من أمر الآخرة بأن قالوا لهم: لا بعث ولا حساب، أو: أنه إن كان ثمة بعث فسيكون حالهم أحسن من غيرهم؛ كقول بعضهم: ﴿هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، وكقول صاحب الجنتين: ﴿وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٩٧.

[الكهف: ٣٦].

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾، أي: وجب عليهم القول بالكفر وعدم الإيمان، ووجبت عليهم كلمة العذاب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٧﴾﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾﴾ [الزمر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٦﴾﴾ [غافر: ٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الزمر: ٧١].

وقال الظالمون وهم في دركات الجحيم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الصفات: ٣١].

﴿فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾، أي: في جملة أمم قد مضت من قبلهم، من الجن والإنس، ممن زينت لهم الشياطين أعمالهم، فحق عليهم القول بالكفر وعدم الإيمان، وحققت عليهم كلمة العذاب فأهلكوا؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ آذِخُوا فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ ﴿٣٨﴾﴾ [الأعراف: ٣٨].

وقال تعالى مخاطبًا الشيطان: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [ص: ٨٤، ٨٥].

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾، أي: استووا هم وإياهم في الخسران؛ حيث خسروا دينهم ودنياهم وأخراهم، وخسروا أنفسهم وأهلبيهم، وذلك هو الخسران المبين. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾، أي: لا تصغوا إليه، ولا تنصتوا له، ولا تنقادوا له.

﴿وَالْقَوَا فِيهِ﴾، أي: تكلموا بالكلام الذي لا فائدة فيه عند قراءته؛ من اللغظ والصياح والجلبة وغير ذلك؛ لتحولوا بين الناس وبين سماعه، ولتخلطوا على القارئ قراءته سواء كان النبي ﷺ أو غيره.

﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾، أي: لأجل أن تكون لكم الغلبة بالحيلولة دون سماع القرآن،

والتشويش على من يقرؤه.

﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ الفاء: استثنائية، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، أي: فوالله لنذيقن الذين كفروا. وأظهر في مقام الإضمار، فلم يقل: ولنذيقنهم، لذكر علة إذاقتهم العذاب وهو الكفر، ولتسجيله عليهم، وليعمهم هذا الوعيد وغيرهم من الكفار، أي: ولنعذبن الذين كفروا عذابًا شديدًا، أي: قويًا عظيمًا، كيفًا وكثًا ونوعًا، يذوقون ألمه في الدنيا كما حصل في بدر وغيرها.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾، أي: والله لنجزينهم في الآخرة.

﴿أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، أي: جزاء أسوأ وأقبح وأشر الذي كانوا يعملونه، من الكفر والشرك، أي: شر الجزاء وأسوأه؛ لأن الجزاء من جنس العمل. ﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة إلى إذاقتهم العذاب الشديد، ومجازاتهم بأسوأ أعمالهم، أي: ذلك العذاب والجزاء.

﴿جَزَاءَ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، أي: جزاء الذين عادوا الله وحاربوه بالكفر والمعاصي، وحاربوا دينه وأولياءه.

﴿النَّارُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي النار، أو مبتدأ وخبره ﴿هُنَّ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾. ﴿هُنَّ فِيهَا﴾، أي: في النار ﴿دَارُ الْخُلْدِ﴾ من إضافة الموصوف إلى صفته، أي: دار الخلود الدائم الأبدى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

﴿جَزَاءٌ﴾ مفعول مطلق ﴿بِمَا كَانُوا يَأْتِينَنَا يَمْحُدُونَ﴾ الباء: للسببية، و«ما»: مصدرية، أي: بسبب كونهم بآياتنا يمحدون، أي: يكفرون بها، ويكذبونها، وينكرونها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْغَيْبِ وَالْإِنْسِ﴾ قرأ ابن عامر والسوسي عن أبي عمرو، وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بسكون الراء: «أَرْنَا»، وقرأ الباقون بكسرها: ﴿أَرْنَا﴾.

أي: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهم الأتباع: ﴿رَبَّنَا﴾، أي: يا ربنا، ﴿أَرْنَا﴾، أي:

اجعلنا نرى ﴿الَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾، أي: اللذين كانا سبب ضلالنا ﴿مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ﴾، أي: من شياطين الجن وشياطين الإنس.

﴿فَجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾: جواب الأمر، أي: إن أريتنا إياهما ﴿فَجَعَلَهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ في النار؛ إهانة لهما، وليكونا أشد عذاباً منا.

﴿لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾، أي: لأجل أن يكونا من الأذلين المهانين في الدرك الأسفل من النار.

الفوائد والأحكام:

١- التذكير بحشر أعداء الله من الكفار والمكذبين، وسوقهم إلى النار، وتهديدهم بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾.

٢- أن الكفار أعداء الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ﴾، وهو تعالى عدو لهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَاِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

٣- إثبات المعاد والقيامة والحشر والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾، وقوله: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٧).

٤- إثبات وجود النار، وأنها أعدت للكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَى النَّارِ﴾، وقوله: ﴿جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارِ﴾.

٥- رد أول الكفار على آخرهم، وجمعهم وسوقهم إلى النار؛ لقوله تعالى: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾.

٦- شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم بأعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا مَا جَاءَهُمْ شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٠).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فضحك، فقال: «هل تدرون مم أضحك؟» قال: قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مخاطبة العبد ربه،

يقول: يا رب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى. قال: فيقول، فإني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني. قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً. قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، فتنطق بأعماله. قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام. قال: فيقول: بعداً لَكُنَّ وسحقاً؛ فعنكن كنت أناضل»^(١).

٧- في عطف الجلود على السمع والأبصار- وهو من عطف العام على الخاص- دلالة على أن جميع الأعضاء والجوارح تشهد بما عملت، وإنما خص السمع والبصر إشارة إلى أن أكثر الذنوب تقع بسببهما.

٨- معاتبتهم لجلودهم وأعضائهم، ولومهم لها: لم شهدت عليهم وهم يدافعون عنها؟ لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾.

٩- قدرة الله التامة على إنطاق هذه الجوارح؛ كما أنطق كل شيء، وبدأ الخلق أول مرة، وإليه مرجعهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١٠- إثبات البعث والمعاد إلى الله تعالى، وأن من خلق الخلق أول مرة فهو على إعادتهم أقدر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

١١- توبيخهم على مجاهرتهم بالكفر والمعاصي، وعدم استتارهم خوفاً من شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم؛ حيث لا انفكاك لهم عنها، وذلك؛ لعدم إيمانهم بالبعث، وبشهادة الأعضاء عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾.

١٢- ظنهم السيئ الفاسد: أن الله لا يعلم كثيراً من أعمالهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾^(٢٢).

١٣- تبيخهم وتوبيخهم على هذا الظن بربهم، وأنه سبب هلاكهم وخسرانهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٢٣).

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦٩.

١٤- إثبات علم الله التام بجميع أعمال العباد وبكل شيء، ووجوب الإيثار بذلك؛ لأن الله أنكر عليهم هذا الظن وعاقبهم بسببه.

١٥- وجوب حسن الظن بالله تعالى، عن جابر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يمتون أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله؛ فإن قوماً قد أراهم سوء ظنهم بالله، فقال تعالى: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَأَيْتُمْ أَنزِلْنَا عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً مَّوْءًا فَاصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (١٣)» (١).

١٦- الحذر من سوء الظن بالله، وأنه سبب للهلاك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ظَنَّكَ لِسَوَاءٍ وَكُنْتَ قَوْمًا بُرًّا﴾ [الفتح: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَطَّئُونَ بِاللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

١٧- أن النار مثوى الكافرين سواء صبروا أو لم يصبروا؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِن يَصَّبِرُوا فَلَنَارٍ مَّثْوًى هُمْ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].

١٨- الإشارة إلى أن النار لا تفتنى؛ كما دل على ذلك القرآن صراحة في عدة مواضع.

١٩- أن الكافرين لو استعتبوا فلن يجابوا ولن يقبل عتبهم، ولا ينفعهم اعتذارهم؛ لفوات الأوان؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَعْتَبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾.

٢٠- تقدير الله وتسليطه على الكافرين والمكذبين قراء من شياطين الإنس والجن، يزينون لهم الكفر والمعاصي، والانغماس في الدنيا وشهواتها، والتكذيب بالآخرة والإعراض عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾.

٢١- إثبات القدر السابق، وأن الله عز وجل قدر مقادير كل شيء من الكفر والإيثار وغير ذلك.

٢٢- وجوب الحذر من قراء السوء من شياطين الجن والإنس؛ لأنهم يزينون

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٣٩٠-٣٩١، وأخرجه بدون ذكر قوله: «فإن قوماً» إلى آخره مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٧٧، وأبو داود في الجنائز ٣١١٣، وابن ماجه في الزهد ٤١٦٧.

للناس الباطل، ويزهدونهم في الحق.

٢٣- تحقق قول الله تعالى وكلمته في عدم إيمان الكافرين، وفي عذابهم وخسرانهم

في جملة أمم قد مضت من قبلهم من الكافرين، من الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾.

٢٤- كثرة الضالين والهالكين الخاسرين؛ لقوله تعالى: ﴿فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ

قَبْلِهِمْ﴾، أي: في أمم كثيرة.

٢٥- إثبات وجود الجن وتكليفهم، وتعلق الثواب والعقاب بهم؛ لقوله تعالى:

﴿مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾.

٢٦- تواصي الكفار فيما بينهم بعدم الإصغاء للقرآن، وعدم الانقياد له واتباعه،

وباللغو والتخليط والتشويش عند قراءته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

٢٧- حرص الكفار على إطفاء نور الله بأفواههم، والحيلولة دون سماع الناس

للقرآن، والتشويش على من يقرؤه؛ لتكون الغلبة لهم، ولهذا يجب على المؤمنين الاستماع

والإنصات عند قراءة القرآن، والبعد عن التشبه بالكفار؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

٢٨- الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد للكفار المكذبين بالقرآن المعرضين عنه؛

بالعذاب الشديد في الدنيا، ومجازاتهم في الآخرة بأسوأ عملهم؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُذِيقَنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

٢٩- أن الجزاء من جنس العمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا

يَعْمَلُونَ﴾، أي: جزاء أسوأ أعمالهم، فيجازون بأسوأ العذاب لعملهم أسوأ الأعمال.

٣٠- أن عذاب الآخرة أسوأ وأشد من عذاب الدنيا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ

الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣].

وأخبر ﷺ المتلاعنين: «أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»^(١).

٣١- تهويل وتعظيم ما أعد الله لأعدائه المكذبين الكافرين من العذاب الشديد في النار؛ بسبب جحودهم آيات الله، وكفرهم بها، وتكذيبهم لها؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٣٢- إثبات خلود أهل النار فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾.

٣٣- إثبات عدل الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٣٤- إثبات الأسباب وتأثيرها في مسيبتها بإذن الله؛ لقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا

بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾.

٣٥- شدة حنق الأتباع على الذين أضلوهم من شياطين الجن والإنس، وسؤالهم ربهم أن يريهم إياهما؛ لينتقموا منهما بجعلها تحت أقدامهم؛ ليكونا من الأسفلين في النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرْنَا الَّذِينَ ضَلَّوْنَا مِنَ الْإِنْسِ جَعَلَهُمَا مَحْتًا أقدامًا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾^(٢).

٣٦- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ

كَفَرُوا رَبَّنَا﴾.

٣٧- إقرار الكفار بربوبية الله تعالى لهم، لكن ذلك لا ينفعهم؛ لإنكارهم ألوهيته.

٣٨- أن الإضلال يكون من الجن والإنس؛ كما يكون من النفس الأمارة بالسوء.

* * *

(١) سبق تحريجه.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ تَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا سَتْوَى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّمَا يَزْنَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ تَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ عَفْوِرٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾، أي: آمنوا بربوبية الله تعالى لهم بقلوبهم، وأقروا واعترفوا ونطقوا بذلك بالستهم.

﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ على صراط الله المستقيم، بإخلاص العبادة لله تعالى، واتباع شرعه، فجمعوا بين الإخلاص والعمل، وثبتوا على ذلك علماً وعملاً حتى الممات.
عن سفيان الثقيفي، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك. قال: «قل: آمنت بالله، ثم استقم»^(١).

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ «تنزل»: تدل على تكرار التنزل، أي: تنزل عليهم الملائكة عند الموت وفي القبر، وعند اللقاء والخوف، وفي عرصات القيامة، وكلما اقتضى الحال تنزلهم.

﴿أَلَّا تَخَافُوا﴾، أي: بالآ تخافوا مما يستقبلكم، ﴿وَلَا تَحْزَنُوا﴾، أي: ولا تحزنوا على ما مضى. وقد قدم الخوف من المستقبل على الحزن على ما مضى؛ لأن المستقبل أهم.

(١) سبق تخرجه.

وبهذا تتبدد أمامهم المخاوف والأحزان، فلا يخافون مما أمامهم، ولا يجزنون على من خلفهم.

كما قال عمر بن عبدالعزيز رحمه الله لما قيل له: أفغرت أفواه بنيك من هذا المال، وتركتهم فقراء لا شيء لهم - وكان في مرض موته - فقال: أدخلوهم علي. فأدخلوهم، وهم بضعة عشر ذكراً ليس فيهم بالغ، فلما رآهم ذرفت عيناه، ثم قال: «يا بني، والله ما منعتكم حقاً هو لكم، ولم أكن بالذي آخذ أموال الناس فأدفعها إليكم، وإنما أنتم أحد رجلين: إما صالح، فالله يتولى الصالحين، وإما غير صالح، فلا أخلف له ما يستعين به على معصية الله»^(١).

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه».

قالت عائشة أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت. قال: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله وأحب لقاءه، وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه، كره لقاء الله وكره الله لقاءه»^(٢).

﴿وَابَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾، أي: التي وعدكم الله بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿نَحْنُ أَوْلِيَاكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، أي: نحن أنصاركم وأعوانكم، نثبتكم عند اللقاء، ونقاتل معكم، ونثبتكم عند الشدائد والمصائب، ونسددكم للخير، ونحذركم من الشر، وندعو ونستغفر لكم، ونحفظكم ونحفظ أعمالكم.

قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:

(١) انظر تفسير قوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضَعِيفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ﴾ [الآية: ٩].

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، من أحب لقاء الله أحب لقاءه ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر، من أحب لقاء الله ٢٦٨٦، وأحمد ٣/ ١٠٧.

[٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْلُونَ عَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾ [غافر: ٧-٩].

وقال ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل والنهار» الحديث (١).

﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾، أي: ونحن أولياؤكم في الآخرة، تثبتكم عند الموت وشدته، وفي القبر وظلمته، وفي القيامة وأهوالها، وعلى الصراط، وعند تطاير الصحف، وعند الإتيان بالنار تقاد بسبعين ألف زمام، بكل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، ومرورها على أهل الموقف، وغير ذلك.

كما نشركم بالجنة وما فيها من النعيم والخلود، ونحييكم ونهتكم بكرامة الله تعالى لكم، وإدخالكم جنته.

كما قال تعالى: ﴿وَنُنَلِّقَهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمَئِذٍ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾، أي: ولكم في الآخرة في الجنة: ﴿مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ﴾.

أي: الذي تشتهي أنفسكم، من أنواع المشتيات والملذات؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهُه الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾، أي: كل الذي تطلبون من أنواع اللذات، وأصناف

النعيم؛ كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ [ق: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٥، ومسلم في المساجد ٦٣٢، والنسائي في الصلاة ٤٨٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، ثم قال: «اقروا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾» (١).

﴿نَزُلًا﴾ حال، أي: ضيافة وإنعامًا وكرامة.

﴿مِّنْ عَفْوَِرٍ رَّحِيمٍ﴾، أي: من رب ذي مغفرة لذنوب عباده، بسترها والتجاوز عنها.

﴿رَّحِيمٍ﴾ رحمة عامة بجميع الخلق، ورحمة خاصة بالمؤمنين، وفي هذا امتنان عليهم بتوفيقهم للإيمان والاستقامة، وما أعد لهم في الجنة من ألوان النعيم، وكريم الضيافة، بمغفرته التي بها أزال عنهم المهوب، وبرحمته التي أنالهم فيها المطلوب. نسأل الله من فضله.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٣) وَلَا سَتْوَى الْحَسَنَةَ وَلَا السَّيِّئَةَ أَدْفَعُ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلقَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلقَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦).

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أحسن قولاً.

﴿مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥].

أي: لا أحد أحسن ولا أفضل قولاً من الذي دعا إلى الله وعمل صالحًا وقال: إنني من المسلمين.

وقوله: ﴿دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾، أي: دعا عباد الله إلى الله، أي: إلى الإيمان بالله وتوحيده، والاستقامة على دينه، والإخلاص له وطاعته؛ ولهذا قال النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» (٢).

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، مناقب علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٣٧٠١، ومسلم في الفضائل، من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ٢٤٠٦، وأبو داود في العلم ٣٦٦١، من حديث =

وأول من يدخل تحت هذه الآية: إمام المتقين، وقدوة الداعين، نبينا محمد ﷺ،
وبعده سائر المرسلين، وغيرهم من الدعاة إلى الله، ومن المؤذنين وغيرهم.

قال ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقاً يوم القيامة»^(١).

وقال: «اللهم أرشد الأئمة، واغفر للمؤذنين»^(٢).

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾، أي: وعمل عملاً صالحاً، اجتمع فيه الإخلاص لله تعالى،
ومتابعة الرسول ﷺ.

﴿وَقَالَ﴾ معتزاً بدينه مفتخراً به، بلسانه وقلبه: ﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾، أي: من
المستسلمين لله بالتوحيد، المتقادين لطاعته، المخلصين له، المتبعين دين الإسلام.

وهذا عمل صالح، وخص لغيب الكفار؛ كما قال ﷺ لما قال أبو سفيان: اعلُ
هبل. قال ﷺ: «ألا تجيبوه؟» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله أعلى وأجل». فقال أبو
سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال ﷺ: «قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم»^(٣).

وحق لكل مسلم أن يعتز بدين الإسلام ويفتخر به، وقد أحسن القائل:

سأعيش رغم الداء والأعداء كالنسر فوق القمة الشماء

النور في جنبي وبين جوانحي فعلام أخشى السير في الظلماء؟^(٤)

وقال الآخر:

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم^(٥)

سهل بن سعد رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الصلاة، فضل الأذان ٣٨٧، وابن ماجه في فضل الأذان ٧٢٥، وأحمد ٤ / ٩٥، من
حديث معاوية رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ٥١٧، والترمذي في الصلاة ٢٠٧، وأحمد ٢ / ٢٣٢، ٢٨٤، من حديث أبي
هريرة رضي الله عنه، ومن حديث أبي أمامة رضي الله عنه ٥ / ٢٦٠، ومن حديث عائشة رضي الله عنها
٦ / ٦٥.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٣٩، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٤) البيتان لأبي القاسم الشابي. انظر: «ديوانه» ص ١١.

(٥) البيت لنهار بن توسعة. انظر: «الكامل في اللغة» ٣ / ١٣٣.

وفي قوله: ﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: «إني مسلم» احتراز من التزكية للنفس، أي: أنا واحد من المسلمين.

﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ الحسنة: ما يحسن ذكره وأثره، وهي: اسم جنس يعم جميع أفراد جنسه، فالحسنة تعم جميع أفراد الحسنات، من الدعوة إلى الله تعالى، والأعمال الصالحة والطاعات، وفعل المأمولات وترك المحظورات، والإحسان في عبادة الله تعالى، وإلى عباد الله.

﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ الواو: عاطفة، و«لا»: زائدة؛ لتأكيد النفي، والسيئة: ما يسوء ذكره وعاقبته، وهي أيضا اسم جنس يعم جميع أفراد السيئات؛ من ترك المأمورات، وارتكاب المحظورات، والتقصير في حق الله، والإساءة إلى عباد الله.

فلا تستوي الحسنة ولا السيئة بوجه من الوجوه، لا في ذاتها، ولا في صفاتها، ولا في جزائها؛ كما أنه لا يستوي المحسن ولا المسيء؛ ولهذا قال:

﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: ادفع السيئة ﴿بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: بالحسنة؛ كما قال تعالى: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُوهُنَّ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ [الرعد: ٢٢].

وذلك بمقابلة الأذى بالصبر، والجهل بالحلم، والإساءة بالعفو، ونحو ذلك. والأمر في قوله: ﴿أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ للندب، لا للوجوب؛ لأنه يجوز دفع السيئة بمثلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةٍ سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]. ولكن الأولى دفع السيئة بالحسنة، وأفضل من ذلك وأكمل دفعها بالتي هي أحسن.

فالمعنى: قابل إساءة من أساء إليك بما هو أحسن ما استطعت إلى ذلك سبيلاً؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ صَبَرْتُمْ لَهَوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وقد جاء في صفة ﷺ: «أنه لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويغفر»^(١).
«وما انتقم ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها الله»^(٢).
﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ الفاء: تعليلية، و«إذا»: فجائية
للدلالة على سرعة ظهور أثر الدفع بالتّي هي أحسن في انقلاب العدو صديقاً.
أي: فإذا دفعت السيئة بالحسنة تفاجأت بأن الذي بينك وبينه عداوة ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، أي: كأنه قريب صديق.

﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾، أي: وما يوفق لهذه الخصلة الحميدة، وهي دفع السيئة بالتّي هي أحسن، ومقابلة الإساءة بها هو أحسن.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ «إلا» في الموضعين: أداة حصر، أي: إلا الذين حبسوا أنفسهم وألزموها تحمل هذا الأمر ابتغاء مرضاة الله، مع شدة كراهية النفوس لذلك؛ لأنها مجبولة على حب الانتقام ممن أساء إليها، وعدم العفو عنه، فكيف بالإحسان إليه؟!
﴿وَمَا يُلْقِيهَا﴾ أعاد هذا للاهتمام، أي: وما يوفق لهذه الخصلة الكريمة.

﴿إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾، أي: إلا صاحب نصيب عظيم من التوفيق لجميل الأخلاق، وحميد الخصال، من الصبر والأناة والحلم، ومن الفوز بالثواب العظيم.
﴿وَمَا يَزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ﴾.

لما ذكر تعالى ما يدافع به العدو من الإنس، وهو مقابلة إساءته بالإحسان؛ لأن ذلك غالباً يحجزه عن الإساءة، ذكر ما يدفع به العدو من الجن، وهو الاستعاذة بالله تعالى منه؛ لأنه لا يقدر على دفعه والإعاذة منه إلا الله؛ لأنه لا يريد إلا إغواء بني آدم وإهلاكهم، ولا يكفيه إلا ذلك.

وأيضاً ففي هذا تحذير من ترك الدفع بالتّي هي أحسن، ومقابلة السيئة بالسيئة بسبب نزغ الشيطان.

(١) أخرجه البخاري في البيوع ٢١٢٥، من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦١٢٦، ومسلم في الفضائل ٢٣٢٧، وأبو داود في الأدب ٤٧٨٥، من

حديث عائشة رضي الله عنها.

قوله: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ﴾ الواو: عاطفة، و«إن»: حرف شرط جازم، و«ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإما يصيبك من الشيطان نزغ، والنزغ: هو الوسوسة بالنفس، للصرف عن الخير، أو تزوين الشر. أي: وإما يزين لك الشيطان مقابلة السيئة بمثلها، وترك مقابلتها بالإحسان، وغير ذلك من التزهيد في الخير وتحسين الشر.

﴿فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فاعتصم بالله والتجئ إليه، قائلاً: أعود بالله من الشيطان الرجيم، ونحو ذلك. يعيدك ويعصمك منه؛ ولهذا قال ﷺ لعثمان بن أبي العاص رضي الله عنه لما قال: «يا رسول الله، إن الشيطان حال بيني وبين صلاتي، يلبسها علي. فقال رسول الله ﷺ: «ذاك شيطان يقال له: خنزب، فإذا أحسسته فتعوذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثاً». قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله عني» (١). وقال ﷺ: «فمن رأى شيئاً يكرهه فلينفث عن شماله ثلاثاً، وليتعوذ من الشيطان؛ فإنها لا تضره» (٢).

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾: الجملة تعليل لما قبلها، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: إنه هو ذو السمع الذي وسع كل شيء، يسمع دعاء الداعين ويحييهم، ويسمع استعاذة المستعدين ويعيدهم، ويسمع جميع الأقوال والأصوات. ﴿الْعَلِيمُ﴾ ذو العلم الواسع الذي وسع كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨] يعلم جميع أحوال عباده، ويعلم حال المضطرين إلى عصمته وحمايته، فيعصمهم ويحييهم من الشيطان، ومن كل شر.

الفوائد والأحكام:

١- وعد الله تعالى للذين آمنوا به واستقاموا على صراطه بإخلاص العبادة له، واتباع شرعه؛ بتنزل الملائكة عليهم، تثبتهم عند الموت وعند الخوف والشدة وفي

(١) أخرجه مسلم في السلام ٢٢٠٣، من حديث عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٦٩٩٥، ومسلم في الرؤيا ٢٢٦١، وأبو داود في الأدب ٥٠٢١، والترمذي في الرؤيا ٢٢٧٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩، من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.

عرصات القيامة: ألا تخافوا ولا تحزنوا، وتبشروهم بالجنة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا نَتَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

٢- وجوب الإيمان بالله والعمل الصالح، والاستقامة على دين الله وشرعه حتى الممات.

٣- أن الإيمان تصديق واعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾.

٤- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين.

٥- أن الأولى أن يقال لمن آمن بالله واستقام على شرعه: «مستقيم»؛ لأن هذا هو الوصف الذي جاء في الكتاب والسنة، ولا يقال له: «ملتزم» كما درج على الألسنة.

٦- إثبات وجود الملائكة، وأنهم في السماء، وتنزلهم بأمر الله على المؤمنين عند الاحتضار وفي مواقف الشدة والخوف، ونحو ذلك.

٧- أن من أشد ما يقلق الإنسان: الخوف مما يستقبل، والحزن على ما مضى؛ لقول الملائكة: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾، فطمأنوا المؤمنين بسلامتهم من الخوف والحزن؛ ولهذا فإن من أعظم نعيم أهل الجنة إذهاب ذلك عنهم؛ كما في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَهْلَنَّا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤-٣٥].

٨- إثبات وجود الجنة، وهي الدار التي أعد الله للمتقين.

٩- إثبات صدق وعده عز وجل للمؤمنين بالجنة، وتحقيق ذلك لهم.

١٠- تسخير الله تعالى الملائكة للمؤمنين يوالونهم وينصرونهم ويحفظونهم، ويسدونهم للخير، ويحذرونهم من الشر، ويستغفرون لهم، ويدعون لهم ويثبتونهم عند اللقاء، وفي مواقف الشدة في الدنيا والآخرة، ويبشرونهم بالجنة، ويحيونهم، ويهتئونهم بكرامة ربهم؛ لقولهم: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

١١- إثبات الدار الآخرة، وما فيها من الحساب والجزاء، والثواب والعقاب.

١٢- بشارة الملائكة للمؤمنين بما أعد لهم في الجنة من كل ما تشتهيهم أنفسهم، ومن

كل ما يطلبون؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهُ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾.*
 ١٣- عظم ما أعد للمؤمنين من الضيافة والكرامة؛ لأنها ضيافة من غفور رحيم،
 جواد كريم؛ لقوله تعالى: ﴿تُزَلَّاتُ مِنَ الْغُفُورِ رَحِيمٍ﴾، فأكرم بهذا من نزل، وأعظم بها من
 ضيافة!

١٤- أن الضيافة تعظم على قدر المضيف؛ كما قيل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم (١)

١٥- إثبات صفتي: المغفرة والرحمة الواسعتين لله عز وجل؛ لقوله: ﴿يَنَّ غُفُورٍ

رَحِيمٍ﴾.*

١٦- أن التخلية بإزالة المكروه، قبل التحلية بإعطاء المطلوب؛ لتقديم المغفرة على

الرحمة.

١٧- أنه لا أحد أحسن وأفضل قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال: إنني من

المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ

الْمُسْلِمِينَ﴾.*

وفي المقابل فإن من أسوأ الناس وأشهرهم قولاً من كان بضد ذلك، وهم دعاة

الكفر والضلال، الذين ذمهم الله وتوعدهم بقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا

الْقُرْآنِ وَالْعَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا

يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾﴾.*

١٨- إثبات تفاضل الأعمال، وأن بعضها أفضل وأحب إلى الله من بعض،

وحسب تفاضل الأعمال يتفاضل العمال.

١٩- فضيلة الدعوة إلى الله تعالى، وأنها من أفضل الأعمال؛ ولهذا بدأ بها، كيف

وهي طريقة الرسل عليهم السلام؟

٢٠- فضيلة العمل الصالح، الخالص لله تعالى، الموافق لشرعه وسنة رسوله ﷺ؛

(١) البيت للمتنبى. انظر: «ديوانه» ٢/ ٢٧٢.

لقوله تعالى: ﴿وَعَمِلْ صَالِحًا﴾.

٢١- وجوب اعتزاز المسلم بدينه، وإعلانه وإظهاره؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٢- الاحتراز من التزكية لذات النفس؛ لقوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ دون أن يقول: «إني مسلم»، أي: أنا واحد من المسلمين.

٢٣- إثبات الأخوة بين المسلمين؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

٢٤- عموم مسؤولية الدعوة إلى الله تعالى، والاهتمام بأمر المسلمين، وفي الحديث: «من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، ومن لم يصبح ويمس ناصحًا لله ورسوله ولكتابه ولإمامه ولعامته المسلمين فليس منهم»^(١).

٢٥- شتان بين الحسنة والسيئة، فالحسنة يسعد بها فاعلها في الدنيا والآخرة، والسيئة تشقي مرتكبها في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾.

٢٦- الترغيب في فعل الحسنات، والتحذير من ارتكاب السيئات.

٢٧- الحث على دفع السيئة بالتي هي أحسن؛ لقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، والحذر من أن تأخذ المرء العزّة بالإثم فيحرم خيرًا كثيرًا.

٢٨- أن من دفع الإساءة بما هو أحسن، انقلب فجأة من كان بينه وبينه عداوة كأنه ولي حميم؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾، ف سبحان مقلب القلوب!

٢٩- قدرة الله تعالى التامة على تقليب القلوب؛ كما قال ﷻ: «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء»^(٢).

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» ٧/ ٢٧٠ (٧٤٧٣)، وأخرجه في «تاريخ أصبهان» ٢/ ٢٢٢- من حديث حذيفة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في القدر ٢١٤٠، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٣٤، من حديث أنس رضي الله عنه.

٣٠- أن الدنيا دار كدر وكبد لا تستقيم على حال، بل هي مليئة بالعداوات والأكدار.

٣١- عظم أثر الإحسان وسرعته في إزالة العداوة ومحوها بتوفيق الله.

٣٢- أن المدافعة بالتي هي أحسن شاقة على النفس، عزيزة المنال، لا يوفق لها إلا الذين صبروا أنفسهم على ما تكره، ابتغاء مرضاة الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾.

٣٣- فضيلة الصبر، والترغيب فيه، وأن عاقبته إلى خير؛ فمن صبر فقد امتثل أمر ربه، وفاز بثوابه، وأطفأ عداوة خصمه، ولم يضع ذلك من قدره؛ لأن من تواضع لله رفعه.

٣٤- أنه لا يلقي هذه الخصلة ولا يوفق لها إلا ذو نصيب عظيم من التوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾.

٣٥- إرشاد المسلم إذا نزغه من الشيطان نزع بتزيين ترك الإحسان، أو مقابلة الإساءة بمثلها، أو غير ذلك إلى الاستعاذة بالله منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْزَعَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾.

٣٦- حرص الشيطان على الخيلولة بين المسلم وبين الخير، وعلى إيقاعه في الشر؛ مما يوجب الحذر منه.

٣٧- أن شيطان الإنس قد يندفع بالإحسان إليه، فتنفع فيه المداراة والإحسان، وأما شيطان الجن فلا يندفع إلا بالاستعاذة بالله منه؛ لأنه لا يريد إلا إهلاك الإنسان.

٣٨- إثبات اسم الله: «السميع»، وأنه سبحانه ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، يسمع دعاء الداعين ويحيبهم، واستعاذة المستعيزين ويعيذهم، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

٣٩- إثبات اسم الله: «العليم»، وأنه ذو العلم الذي وسع كل شيء.

٤٠- في اقتران اسميه عز وجل: «السميع» و«العليم»، وصفة السمع والعلم في حقه كمال إلى كمال.

قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
 لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا
 فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ
 خَشِيعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾
 إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَن يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمَحْمِلُوا
 مَاسِيَّتَهُمُ إِنَّهُم بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَاجَاهُ هُمْ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ
 الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن
 قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَدُوٌّ مَغْفِرٌ وَدُوَّ عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ
 أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ
 عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ
 وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا سَجْدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا
 لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا
 فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣٨﴾

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، أي: ومن آيات الله عز
 وجل الكثيرة التي لا تعد ولا تحصى، الدالة على وجوده، ومعرفته، وكمال قدرته،
 ووحدانيته في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، ونفوذ مشيئته، وسعة سلطانه،
 ورحمته بعباده، ووجوب إخلاص العبادة له وحده لا شريك له: ﴿اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ
 وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

فالليل بظلامه وسكون الخلق فيه، والنهار بضياءه وتصرف العباد فيه، فلا أحد
 يستطيع أن يأتي بذلك إلا الله عز وجل؛ كما قال تعالى في سورة القصص: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن
 جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا
 تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ
 اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

﴿وَالشَّمْسُ﴾ بضياؤها وحرارتها، ﴿وَالْقَمَرُ﴾ بنوره، وجريانها بحساب دقيق؛ كما قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [الرحمن: ٥].

وما في ذلك كله من الآيات والعبر والمنافع والمصالح للعباد مما لا يحصى، ولا يعلمه إلا الله.

﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾، أي: لا تعبدوا الشمس والقمر؛ لأنها مخلوقان لله مدبران، وفي هذا تعريض بمن يعبدون الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب والمخلوقات. قال ﷺ: «إن الشمس تطلع بين قرني شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار»^(١).

﴿وَأَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾، أي: واعبدوا الله وحده، والتعبير بالسجود؛ لأنه من أعظم العبادات؛ لما فيه من الذل والخضوع لله.

ولهذا قال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(٢).

﴿الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾، أي: الذي خلق هذه الآيات الأربع وغيرها؛ لأنه هو الرب الخالق العظيم المستحق للعبادة وحده.

﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ قَدَّم المفعول «إياه»؛ لإفادة الحصر، أي: إن كنتم تعبدون الله حقاً فخصوه بالعبادة وحده، ولا تعبدوا معه هذه المخلوقات، فإن عبدتموها معه، فإنكم لم تعبدوه، والله غني عن عبادتكم هذه؛ كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»^(٣).

﴿فَإِنْ أَسْتَكْبَرُوا﴾ عن عبادة الله تعالى والسجود له وحده، فإنهم لن يضروا الله

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٨٣٢، من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٨٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠٢، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

شيئاً، والله غني عنهم؛ ولهذا قال:

﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، أي: من الملائكة الكرام المقربين، وفي وصفهم بأنهم عنده عز وجل تشریف لهم.

﴿يُسَبِّحُونَ لَهُ﴾، أي: ينزهونه عن الشرك، وعن النقائص والعيوب، ويصلون له، ويعبدونه وحده.

﴿بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: في آناء الليل والنهار؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِآءٍ فَفَدَّ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

﴿وَهُمْ لَا يَسْتَمُونَ﴾ الواو: حالية، أو عاطفة، أي: لا يملون ولا يفترون؛ لشدة الداعي منهم إلى ذلك، ولا يتعبون؛ لقوتهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ (١٩) ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٢٠) [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ، وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ (٢١) [الأعراف: ٢٠٦].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ^٤ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُجِي الْمَوْقِعِ^٥ إِنَّهُ، عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢١).

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾: معطوف على قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾، أي: ومن آياته الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، وسعة رحمته، وقدرته على إحياء الموتى: ﴿أَنَّكَ﴾ الخطاب عام لكل من يصلح له.

﴿تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾، أي: تشاهدها وتبصرها ميتة يابسة هامدة، لا نبات فيها ولا حياة.

﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا﴾، أي: المطر، ﴿اهْتَزَّتْ﴾، أي: دبت فيها الحياة، وتحركت بالنبات. ﴿وَرَبَّتْ^٤﴾ قرأ أبو جعفر: «وَرَبَّاتٌ» بهمزة بعد الباء، وقرأ الباقون بدون همز: ﴿وَرَبَّتْ^٤﴾.

والمعنى: زادت وانتفخت وعلت بالنبات، قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا

أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ [الحج: ٥].

﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا﴾، أي: إن الذي أحيا الأرض بقدرته العظيمة بعد خشوعها وموتها، ﴿لَمْحَى الْمَوْتِ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لباعثهم أحياء من قبورهم يوم معادهم ونشورهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَنَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾ [ق: ٩-١١].

﴿إِنَّهُ، عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ الجملة: تعليلية، وقوله: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ﴾ متعلق بالخبر «قدير»، وقد م عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء، وأنه كما أحيا الأرض بعد موتها بالنبات فهو قادر على إحياء الموتى وبعثهم يوم القيامة، وعلى كل شيء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَهَنُّ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرًا مِّنْ يَأْتِي بِنِجْمٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكُنْتُ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدِ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ الإلحاد: الميل عن الاستقامة، والإلحاد في آيات الله: الميل والعدول بها عن الصواب، و«ما دلت عليه من الحق بأي وجه كان. فالإلحاد في آيات الله الكونية بنسبتها إلى غير الله، أو اعتقاد مشارك لله فيها، أو معين له عليها؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [سبأ: ٢٢].

والإلحاد في آيات الله الشرعية يكون بتكذيبها؛ كما في قول المكذبين للرسول: ﴿وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا تُكْذِبُونَ﴾ [يس: ١٥]، وكما زعم المشركون أن الرسول ﷺ افتري القرآن وتقلوه، وإنما يعلمه بشر.

ويكون بتحريفها عن ألفاظها أو معانيها الحقيقية إلى ألفاظ ومعاني باطلة.

ويكون بمخالفتها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُغْلَمِ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابٍ

﴿الْبَعْرِ﴾ [الحج: ٢٥].

﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾، أي: لا يخفى علينا أمرهم، بل نعلمهم ونعلم ظاهريهم وباطنيهم، وسنحاسبهم ونجازيهم. وفي هذا إثبات كمال علمه عز وجل، وتهديد لهم؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]؛ ولهذا قال:

﴿أَفَمَنْ يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ﴾ الاستفهام: للإنكار والنفي، أي: أفمن يطرح في النار من الملحدين في آيات الله الكافرين بها. والتعبير بـ«يلقى» للإهانة والإذلال والتحقير.

﴿أَمْ مَنْ يَأْتِيَ آمَنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ «أم»: عاطفة معادلة للهمزة، و«من»: موصولة. أي: أم الذي يأتي آمناً يوم القيامة؟ أي: لا يستوي هذا وهذا، بل الذي يأتي آمناً يوم القيامة هو خير، وهم الذين آمنوا بآيات الله، ولم يلحدوا فيها؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ هُمُ الْآمَنُونَ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، أي: لهم الأمن في الدنيا والآخرة.

﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ الأمر: للتهديد، أي: اعملوا الذي شئتم من الإلحاد وغيره. كما قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]. ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: بالذي تعملونه، أو بعملكم بصير، أي: مطلع عليه، عالم به، لا تخفى عليه منه خافية، وسيحاسبكم ويجازيكم عليه، وقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ متعلق بالخبر «بصير»، وقدم عليه؛ ليكون أشد تهديداً.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ المراد بـ«الذكر»: القرآن الكريم؛ كما قال تعالى: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ إِن ذِيَ الذِّكْرِ﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠].

﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ اللام: للتوكيد، أي: إن الذين كذبوا بالقرآن حين جاءهم، وأنكروه، وزعموا أنه سحر أو شعر أو قول كاهن، وأساطير الأولين.

وسمي القرآن بـ«الذكر»؛ لما فيه من التذكير والموعظة، وذكر الأحكام والأوامر والنواهي والأخبار، وذكر صفات المؤمنين وثوابهم، وصفات الكافرين وعقابهم، والبعث والحساب، والجنة والنار، وغير ذلك.

كما أنه ذكر وشرف لمن أنزل عليه ولقومه؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].

ولم يذكر خبر «إن» في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ﴾؛ ليذهب فيه الذهن كل مذهب. والمعنى: سيجازون، أو سيعذبون، أو لهم نار جهنم، ونحو ذلك.

﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ الواو: حالية، أو استثنائية، والضمير يعود إلى «الذكر»، أي: القرآن، واللام: للتوكيد، ﴿عَزِيزٌ﴾ صفة لـ«كتاب»، أي: قوي الحجة، غالب على غيره؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩].

منيع الجانب محفوظ من التحريف والتبديل والتغيير، والزيادة والنقصان؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ الجملة في محل رفع صفة ثانية لـ«كتاب»، أي: أنه حق، لا يتطرق إليه الباطل من أي سبيل، لا في أخباره، ولا في أحكامه، فأخباره كلها صدق، وأحكامه كلها عدل؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ۗ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.

﴿تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ الجملة: تعليلية، أو صفة ثالثة لـ«كتاب»، أي: تنزيل من رب حكيم في أقواله وأفعاله، وفي شرعه وقدره، ذي الحكم التام، والحكمة البالغة، ﴿مُمِدٌّ﴾، أي: محمود في تنزيله، وفي حكمه وحكمته، وفي جميع أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وعلى ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وما له من العدل والإفضال.

﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾، أي: ما يقال لك يا محمد من التكذيب والاستهزاء والسخرية من قومك؛ كقولهم: ساحر، ومجنون، وشاعر، وغير ذلك.

﴿إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ «إلا»: أداة حصر، أي: إلا كما قيل للرسول من قبلك، فقد كذبوا، واستهزئ بهم، وسُخر منهم، ورُموا بالسحر والجنون وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ ﴿٥٢﴾ [الذاريات: ٥٢].

وفي هذا تسلية له ﷺ، وإرشاد له إلى الصبر كما صبر الرسول من قبله؛ كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ ﴿١٧﴾ [ص: ١٧].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ اللام: للتوكيد، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: إن ربك يا محمد لصاحب مغفرة لمن تاب وأناب إليه؛ يستر ذنبه، ويتجاوز عن عقوبته، وفي هذا ترغيب بالتوبة والإنابة إلى الله تعالى.

﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، أي: مؤلم موجع شديد لمن أصر على كفره وطغيانه وعناده، وشقاؤه واستكباره، وفي هذا تحذير من الاستمرار على الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ ﴿٤٤﴾ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفي شك منه مريب ﴿٤٥﴾.

قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَجْمِيًّا﴾، أي: ولو صيرنا هذا القرآن ﴿قُرْءَانًا عَجْمِيًّا﴾، أي: بلغة العجم.

﴿لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ﴾ اللام: واقعة في جواب «لو»، و«لولا»: حرف تحضيض، أي: لقال المكذبون للرسول ﷺ: هلا فصلت آيات هذا القرآن، وبينت ووضحت، وجعلت عربية نفهمها.

ولا حجة لهم في هذا؛ لأن الله جعل القرآن عربياً؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾ [الزخرف: ٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾ [يوسف: ٢].

﴿ءَأَعْجَبِيَّ وَعَرَبِيَّ﴾ الاستفهام: للإنكار، والجملة استثنائية في حيز القول، بمعنى: ولقالوا: ﴿ءَأَعْجَبِيَّ وَعَرَبِيَّ﴾، أي: أقرآن أعجمي ونبي عربي؟ أي: كيف يكون القرآن أعجمياً، وقد أنزل على نبي عربي؟ وهذا لم يكن، فالقرآن عربي، والمنزل عليه عربي، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]. وفي هذا امتنان بإنزال القرآن بأفصح اللغات وأظهرها وأبينها وأوسعها لغة العرب، وكونه في أعلى درجات البلاغة والفصاحة والإعجاز، بألفاظه ومعانيه وأحكامه وأخباره.

كما أن فيه بيان أن كفر المشركين به، وعدم إيمانهم، إنما هو كفر تعنت وعناد؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿٣١٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٣١٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٣٢٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٢١﴾﴾ [الشعراء: ١٩٨-٢٠١].

﴿قُلْ﴾، أي: قل يا محمد في جوابهم: ﴿هُوَ﴾، أي: هذا القرآن. ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ خاصة، ﴿هُدًى﴾ من الجهل والضلالة، يهدي إلى الرشد والحق، وإلى طريق مستقيم؛ كما قال الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [الجن: ٢، ١]، وقالوا في الآية الأخرى: ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩]، أي: بالعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿وَشِفَاءٍ﴾، أي: من أمراض القلوب والصدور، من الشكوك والريب والنفاق وغير ذلك، ومن أمراض الأبدان؛ كما قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [يونس: ٥٧].

وكما ثبت من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في قصة اللديغ الذي قرأ عليه أحد الصحابة رضي الله عنهم سورة الفاتحة، فقام كأنها نشط من عقال، وفيه قول

النبي ﷺ: «وما يدريك أنها رقية؟! خذوها واضربوا لي معكم بسهم»^(١).

﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾، أي: صمم و ثقيل، فلا يسمعون سماع تفهم وانتفاع.

﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ فلا يفقهونه؛ لعمى قلوبهم وإعراضهم، ولا يهتدون إلى ما فيه من الهدى والبيان؛ لصمم آذانهم وعمى قلوبهم وأبصارهم، بل لا يزيدهم إلا ضلالاً وخساراً؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (٨٢) [الإسراء: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً فَخَسِرْتُمْ مِنْهَا أَتَقُولُونَ إِنَّا سَأَلْنَا رَبَّنَا فَمَا آتَانَا مِنَ الْقُرْآنِ إِلَّا نَجْمٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (١٢٤) [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ (٤١) [الإسراء: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكٰفِرِينَ﴾ (٥٠) [الحاقة: ٥٠].

وفي الحديث: «القرآن حجة لك أو عليك»^(٢).

﴿أُولَٰئِكَ﴾ أشار إليهم بإشارة البعيد تحقيراً لهم.

﴿يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ فلا يسمعون داعياً، ولا يجيبون منادياً، ولا يفهمون، كالذي ينادى من مكان بعيد، وكالبهيمة لا تفهم إلا دعاءً ونداءً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمًى فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٧١) [البقرة: ١٧١].

والمراد: أنهم لا يتفهمون بالقرآن ولا يهتدون بهداه؛ لأنهم سدوا على أنفسهم أبواب الهدى، بإعراضهم وكفرهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، أي: ولقد أعطينا موسى: ﴿الْكِتَابَ﴾، أي: التوراة، أنزلها الله عليه مكتوبة بألواح، وهي أعظم كتب الله تعالى بعد القرآن الكريم، وموسى

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البيهقي في «دلائل النبوة» ٧ / ٩٢ - ٩٣.

عليه السلام ثالث أولي العزم بعد نبينا وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام، وهو أفضل أنبياء بني إسرائيل، وأكثر الرسل أتباعاً بعد نبينا ﷺ؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما، أنه ﷺ رأى سواداً قد سد الأفق، فقال: «من هذا؟ فقيل: هذا موسى وقومه»^(١).

﴿فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾، أي: فاختلف فيه بنو إسرائيل، فمنهم من آمن به واهتدى، ومنهم من كفر به وكذبه وضل، وهذا قبل نسخ التوراة وغيرها بالقرآن. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، أي: ولقد آتينا موسى الكتاب من قبلك، فاختلف قومه فيه بين مصدق به ومكذب، ومؤمن به وكافر، فليس ما حصل من قومك من اختلاف في القرآن ببدع من فعل الأمم؛ ولهذا قال:

﴿وَلَوْلَا﴾ الواو: عاطفة، و«لولا»: حرف شرط غير جازم، ﴿كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ يا محمد في قضائه الكوني القدري الأزلي، بتأجيل العذاب إلى أجل مسمى، وتأخير الحساب إلى يوم المعاد.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لقضي بينهم بتعجيل العذاب وإهلاك المكذبين لك؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [١٣] ﴿طه: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [العنكبوت: ٥٣].

﴿وَإِنَّهُمْ﴾، أي: المشركين، ﴿لِنِي سَأَكِ مِنْهُ﴾، أي: من القرآن أو البعث، ﴿مُرِيبٍ﴾: موقع في الريبة والقلق.

الفوائد والأحكام:

١- أن من أعظم آيات الله الكونية التي لا حصر لها، الدالة على وجود الله ومعرفته، وتعام قدرته، وكمال وحدانيته في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ورحمته

(١) أخرجه البخاري في في الطب ٥٧٠٥، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦.

بعباده: الليل والنهار، والشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾.

٢- وجوب إخلاص العبادة لله تعالى وحده، والنهي عن عبادة الشمس والقمر؛ لقوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٣- التعريض بالذين يعبدون الشمس والقمر والكواكب من دون الله.

٤- أن السجود من أعظم أنواع العبادة؛ لهذا خص بالذكر.

٥- أن الذي يستحق العبادة هو الخالق؛ لقوله تعالى: ﴿وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وفي هذا استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية.

٦- أن من يعبد الله حقاً لا يسجد لغيره من المخلوقات؛ لقوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

٧- غنى الله تعالى عن المستكبرين عن عبادته، وأنهم لن يضروا الله شيئاً؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا﴾ الآية.

٨- إثبات وجود الملائكة، وتشريفهم بكونهم عند الله عز وجل، والثناء عليهم بتسييحهم له على الدوام، بلا سأم ولا ملل؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْئَمُونَ﴾.

٩- تحدي هؤلاء المستكبرين عن عبادة الله بأنهم إن استكبروا عن عبادته، فهناك من يعبده.

١٠- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷻ، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾، وقوله: ﴿مِنَ رَبِّكَ﴾.

١١- أن من آيات الله الدالة على كمال قدرته، ووحدانيته، ورحمته، وقدرته على إحياء الموتى: إحياءه الأرض بعد موتها بالنبات بانزال المطر عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ﴾.

١٢- إثبات الأسباب وتأثيرها بمسبباتها بإذن الله، فحياة الأرض بسبب إنزال المطر عليها.

١٣- إثبات القياس؛ لأن الله قاس إحياء الموتى على إحياء الأرض بعد موتها.

١٤- عموم قدرة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فيوجد المعدوم، ويعدم الموجود، ويغيّر الثابت، ويثبت المتغير، وغير ذلك.

١٥- تهديد الملحدّين بآيات الله بعلمه تعالى بهم وبإلحادهم، وأنه سيجازيهم على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخَفُونَ عَلَيْنَا﴾.

١٦- إثبات كمال وسعة علمه عز وجل، وإحاطته بكل شيء.

١٧- شتان بين من يطرح في النار بسبب الإلحاد في آيات الله ونحو ذلك، وبين من يأتي آمناً يوم القيامة من العذاب لإيمانه بآيات الله؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرًا مِّن يَأْتِيهِ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾.

١٨- التحذير من الإلحاد في آيات الله، وأنه سبب للإلقاء في النار.

١٩- أن المفاضلة قد ترد بين شيئين ليس في أحدهما شيء من الفضل.

٢٠- إثبات النار، وأن الله أعدها للكافرين.

٢١- إثبات القيامة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال.

٢٢- تهديد المكذّبين والكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٣- إثبات المشيئة للعبد والاختيار، والرد على الجبرية.

٢٤- علم الله تعالى التام وإحاطته بأعمال العباد وغيرها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

٢٥- التنديد بالذين كفروا بالقرآن لما جاءهم، وذمهم، وتهديدهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ الآية.

٢٦- أن من أساء القرآن الكريم: «الذكر»؛ لما فيه من التذكير والعبر والعظات، وكونه شرفاً له ﷺ ولقومه.

٢٧- تعظيم الله تعالى للقرآن؛ لما فيه من التذكير، وقوة الحجة، والإعجاز، وكونه منبع الجانب محفوظاً من التبديل والتغيير والتحريف؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِنْدٌ عَزِيزٌ﴾ (٤١).

٢٨- حفظ الله تعالى التام للقرآن الكريم من تطرق الباطل إليه بأي وجه من الوجوه، وتكفله عز وجل بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾.

٢٩- إثبات نزول القرآن من عند الله عز وجل، وأنه كلامه منزل غير مخلوق؛ لقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، وفي هذا الرد على القائلين بخلق القرآن من أهل البدع والضلال.

٣٠- إثبات علو الله تعالى على خلقه، فله عز وجل الذات وعلو الصفات.

٣١- إثبات صفتي الحكم والحكمة لله تعالى، وأنه سبحانه ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ حَكِيمٍ﴾.

٣٢- إثبات أنه عز وجل حميد، أي: محمود في أقواله وأفعاله، في شرعه وقدره، وعلى ما له من صفات الكمال، ونعوت الجلال، وما له من العدل والإفضال؛ لقوله تعالى: ﴿حَمِيدٍ﴾.

٣٣- تسلية النبي ﷺ تجاه ما يلقاه من قومه من التكذيب والسخرية والاستهزاء، بأن ذلك لقيه الرسل قبله من أقوامهم؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَقِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

٣٤- أن المصائب إذا عمّت هانت وخفت.

٣٥- إثبات أنه ﷺ خاتم المرسلين؛ لقوله تعالى: ﴿الرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

٣٦- توافق الأمم واجتماعهم على تكذيب الرسل والسخرية والاستهزاء بهم؛ كما

قال تعالى: ﴿أَتَوْسُوأَبَهُمْ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ (٥٣) [الذاريات: ٥٣].

٣٧- إثبات أنه عز وجل ذو مغفرة واسعة للتائبين، وذو عقاب أليم للكافرين؛

لقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾، وفي هذا ترغيب بالتوبة، وتحذير من

الإصرار على الكفر.

٣٨- جمع القرآن الكريم بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله تعالى بين الخوف والرجاء على حد سواء، ويكون له كجناحي الطائر.

قيل: ويغلب في حال الصحة جانب الخوف، وفي حال المرض، وعند الموت يغلب جانب الرجاء. قال ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه»^(١).
ودخل ﷺ على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك؟». قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو، وآمنه مما يخاف»^(٢).

وقيل: يغلب عند فعل المعصية جانب الخوف ليرتدع، وعند فعل الطاعة جانب الرجاء؛ ليقبل عليها، وتعظم رغبته فيها، قال ﷺ: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»^(٣).

٣٩- الامتنان على العباد بكون القرآن عربياً بأشرف اللغات وأوسعها وأفصحها، وتفصيله وتبيينه، وبيان أن كفر المشركين وعدم إيمانهم عن عتو وعناد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَجَبِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ۖ أَءَعْجَبِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ﴾.

٤٠- حكمة الله تعالى في أنه ما أرسل رسولاً إلا بلسان قومه، فلا يصح أن يكون الكتاب أعجمياً مع أن المرسل إليه عربي.

٤١- أن القرآن هدى للذين آمنوا خاصة من الجهل والضلالة، وشفاء لأمراض القلوب والأبدان؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي آَمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً ۗ﴾.

٤٢- عدم انتفاع غير المؤمنين من القرآن؛ لما في آذانهم من الصمم، ولما في قلوبهم من العمى فلا يفهمونه، ولا يفقهونه بسبب إعراضهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٧٧- من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الجنازات ٩٨٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦١؛ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٧٩، وأحمد ١٧٧/٢- من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنها.

يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرُّ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّى ﴿٤٣﴾.

٤٣- إثبات القدر؛ لأن من كتبت له الهداية انتفع بالقرآن، ومن كتب عليه

الضلال عمي عنه؛ ولقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ ﴿٤٣﴾ الآية.

٤٤- تحقير شأن الذين لم ينتفعوا بالقرآن، وأنهم أشبه بالذي ينادى من مكان بعيد،

لا يسمعون داعياً، ولا يجيبون منادياً، ولا يفهمون؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُنَادُونَكَ مِنْ

مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾.

٤٥- تذكير النبي ﷺ تسلياً له، وتثبيتاً لقلبه، بإيتائه عز وجل موسى الكتاب،

واختلاف قومه فيه؛ كحال المشركين من قومه ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى

الْكِتَابَ فَأَخْتَلَفَ فِيهِ ﴿٤٥﴾.

٤٦- إثبات رسالة موسى عليه السلام، وإنزال الكتاب عليه.

٤٧- تهديد المشركين وتوعدهم بالعذاب، وأن لذلك أجلاً مسمى عند الله في

الدنيا والآخرة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴿٤٧﴾.

٤٨- شك المشركين وتكذيبهم بالقرآن، وبالرسول ﷺ، وبالوعيد والبعث؛ لقوله

تعالى: ﴿وَأِنَّهُمْ لَفِي شَكِّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٨﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٦١﴾
 ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ ۖ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنُ شُرَكَاءِ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ ۝٦٢﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ۝٦٣ لَا يَسْمَعُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَتَوْسَّلُ بِقُتُوبٍ ۝٦٤ وَلَئِنْ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۝٦٥ وَإِذَا انْتَمَعْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ عَرْضًا وَنَا بَجَائِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ۝٦٦ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ ۖ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ۝٦٧ سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۖ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٦٨ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ۝٦٩﴾ .

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ۝٦١﴾
 ﴿إِلَيْهِ يَرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ ۖ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيُنُ شُرَكَاءِ قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ ۝٦٢﴾ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ۝٦٣﴾ .

قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ﴾، أي: من عمل عملاً صالحاً، وهو ما جمع الإخلاص لله تعالى، ومتابعة شرعه.

﴿فَلِنَفْسِهِ ۖ﴾ الفاء في الموضوعين رابطة لجواب الشرط، أي: فلنفسه عمل، أي: فتنفع عمله لنفسه، والله غني عن عمله.

﴿وَمَنْ أَسَاءَ﴾، أي: ومن أساء العمل، أي: عمل عملاً سيئاً، من الشرك والبدع وغير ذلك من السيئات.

﴿فَعَلَيْهَا﴾، أي: فإساءته على نفسه، أي: فضرر إساءته على نفسه، ولن يضر الله شيئاً، فهو عز وجل لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصين.

﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: وما ربك يا محمد بذي ظلم لأحد من عبده وخلق؛ لأن كل الخلق عبيد له عز وجل؛ كما قال:

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿١٣﴾﴾ [مريم: ٩٣].

فلا يمنع عز وجل أحدًا ثواب عمل استحققه، ولا يعاقب أحدًا إلا بذنب، ولا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه؛ كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء: ١٥].

وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

قال ابن القيم: «ولا يُحْمَلُ المسيء عقاب ما لم يعمله، ولا يمنع المحسن من ثواب عمله» (١).

﴿إِلَيْهِ﴾ وحده لا إلى غيره ﴿يُرْدُّ عِلْمَ السَّاعَةِ﴾، أي: يرجع ويفوض علم الساعة، لا يعلمه إلا هو؛ كما قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْثَةٌ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٦٣﴾﴾ [الأحزاب: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٨٥﴾﴾ [الزخرف: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِهَا ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَنًا ﴿٤٤﴾﴾ [النازعات: ٤٢-٤٤].

ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام النبي ﷺ: «متى الساعة؟» قال ﷺ: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل» (٢).

﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وحمزة والكسائي وخلف وأبو بكر عن عاصم: «ثَمَرَةٍ» من غير ألف على الإفراد، وقرأ الباقون بالألف على

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ١٠٥.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الجمع: ﴿ثَمَرَاتٍ﴾.

الواو: استئنافية، أو عاطفة، و«ما»: نافية، و«من» في الموضعين زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: وما يخرج أي ثمرات.

﴿مِنْ أَكْمَامِهَا﴾، أي: من أوعيتها، فيعلم جميع ما تخرجه أكمام الأشجار من نخل وغيره من الثمر؛ قدره وكيفه وجودته، وغير ذلك؛ لأنه الخالق له، وقد قال عز وجل:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (١٤) [الملك: ١٤].

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى﴾ معطوف على ما قبله، أي: وما تحمل أي أنثى؛ من بني آدم

ومن الحيوان، ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ معطوف على ﴿تَحْمِلُ﴾، أي: ولا تضع حملها ﴿إِلَّا يَعْلَمُهُ﴾

«إلا»: أداة حصر، أي: إلا بعلمه السابق، فيعلم متى تحمل، وما هو حملها، ويعلم متى

تضع، وكيف تضع؛ لأن علمه عز وجل محيط بكل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا

تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨) [الرعد: ٨]،

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ

مَآذًا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣٤) [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْفَرُ

مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٣) [سبأ: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا

تَسْقُطُ مِنَ رَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

﴿٥٩﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿وَيَوْمَ يَنَادِيهِمْ أَئِن شُرَكَاءِي﴾ الواو: عاطفة، و«يوم»: متعلق بمحذوف، أي:

اذكر يوم يناديهم، أي: اذكر يوم القيامة يوم ينادي ربك المشركين ويفضحهم على رؤوس الخلائق، فيقول:

﴿أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾ الاستفهام للتعجيز والتوبيخ، أي: أين شركائي الذين

عبدتموهم معي؟ وفي هذا تهديد للمشركين، وتسلية له ﷺ.

﴿قَالُوا﴾ مقرين ببطلان شركهم: ﴿ءَاذَنَّاكَ﴾، أي: أعلمناك.

﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي: ما منا أيّ شهيد يشهد أن معك شريكاً، فأبطلوا إلهية شركائهم، وتبرؤوا منهم، حين لا ينفعهم ذلك.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾، أي: ذهب وغاب عنهم الذين كانوا يدعونهم من دون الله ويعبدونهم من قبل، من الشركاء من الأصنام والأنداد، فلم ينفعوهم.

﴿وَوَضُّوا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لهم أيّ محيص، أي: أيقنوا ما لهم أيّ مهرب ولا مفر ولا حيد من عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاعِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَعْوُسُ فَيَمْنُوتُ﴾ (٤١) وَلَئِن أَدْقَنَتْهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا نَعَّمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَتَعْرَضُ وَتَنَابَجَانِيهِ، وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١).

قوله: ﴿لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ﴾، أي: لا يمل الإنسان ﴿مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ﴾، أي: من طلب الخير، من المال والغنى، والولد، والصحة، والجاه والشرف، وغير ذلك، ولا يكتفي ولا يقتنع؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب» (١).
﴿وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ﴾، أي: وإن أصابه المكروه كالفقر والمرض والخوف، وغير ذلك

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٢٦، وأخرجه بمعناه مسلم في الزكاة ١٠٤٩، والترمذي في المناقب

من أنواع الابتلاء والمصائب، ﴿فَيَوُّسُ قَنُوطٌ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط.
 واليأس: انقطاع الرجاء، والقنوط: أشد اليأس، أي: فهو يؤوس قنوط من رحمة
 الله، يظن أن ما أصابه من هذا الشر وهذا الابتلاء هو القاضي عليه، وأنه لا خير بعده،
 وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ (٥٦) [الحجر: ٥٦].
 وقال ﷺ لابن عباس: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن
 مع العسر يسراً»^(١).

﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾ الواو: عاطفة في المواضع الأربعة، واللام: موطئة للقسم
 في الموضوعين.

أي: ولئن أذقنا الإنسان الكافر، أي: أعطيناه ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ من خير ورزق، وغنى
 وولد، وأمن وصحة، ونحو ذلك.

والتعبير بالإذاقة دون الإيتاء؛ لأن الإذاقة أبلغ؛ لدلالاتها على الانتفاع بالشيء.
 ﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتُهُ﴾، أي: من بعد شدة أصابته من فقر وخوف ومرض، وغير
 ذلك من أنواع الابتلاء.

﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾ اللام: واقعة في جواب القسم، أي: هذا من عندي وبعملي، وأنا
 أستحقه؛ كما قال قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا
 حَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الزمر: ٤٩].

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾، أي: وما أعتقد أن الساعة قائمة، فكفر نعمة الله عليه،
 ونسبها إلى نفسه، وأنكر قيام الساعة والبعث والحساب والجزاء، وظن أنه سيخلد؛ كما
 قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ (٣) [الهمزة: ٣].

﴿وَلَيْنَ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي﴾، أي: وعلى فرض أن تقوم الساعة، وسأرد إلى ربي.
 ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ﴾ اللام في قوله: ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾ واقعة في جواب القسم، أي:
 إن لي عند ربي ﴿لَلْحُسْنَىٰ﴾، أي: الجنة، وما هو أحسن؛ كما قال ﷺ في تفسير قوله تعالى

(١) سبق تحريجه.

في سورة يونس: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] قال: «الحسنى الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الله» (١).

وهذا من أعظم الغرور، والجرأة على الله، والقول عليه بلا علم؛ ولهذا توعدده الله بقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾، الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، واللام في الموضعين: لام القسم لقسم مقدر، والنون: للتوكيد، و«ما»: مصدرية، أو موصولة، أي: فوالله لننبئن الذين كفروا بعملهم أو بالذي عملوه؛ لفضيحتهم على رؤوس الأشهاد، ومحاسبتهم ومجازاتهم على ذلك؛ ولهذا قال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ الواو: عاطفة، أي: ولنذيقنهم من عذاب شديد.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَانِ﴾ بحصول المطلوب من الخير والرزق والصحة ونحو ذلك، أو بالنجاة من المهوب من مرض أو عدو، ونحو ذلك.

﴿أَعْرَضَ﴾، أي: انصرف عن طاعة ربه وشكره، غير متفكر في نعمته عليه.

﴿وَنَآبِجَاتِهِ﴾، أي: وتباعد وثنى عطفه متبخرًا ومتعاطفًا ومستكبرًا عن اتباع الحق،

وعلى الخلق؛ كما قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴿٦﴾ أَن رَّاهُ اسْتَفْتَى ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾، أي: وإذا أصابه الشر، من فقر أو مرض أو خوف، ونحو ذلك.

﴿فَدُودُ عَاوِيَ عَرِيضٍ﴾، أي: صاحب دعاء كثير؛ لكشف الضر عنه؛ لعدم صبره.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ

ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِّن

ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ نَدْعُونَهُ نَضْرَعًا وَخَفِيَةً لِّئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ اللَّهُ

يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

وقال تعالى: ﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِن أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

﴿فَلَمَّا أَجَبْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

(١) سبق تخرجه.

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَتْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنَ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ءَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ ﴿٥٤﴾﴾.

ختمت السورة بمثل ما بُدئت به من تعظيم القرآن الكريم، وبيان صدقه، وصدق من جاء به، وذم وتحذير المعرضين عنه، الكافرين به.

قوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بالقرآن: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾، أي: أخبروني ﴿إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، أي: إن كان هذا القرآن من عند الله، أي: كلامه ووحيه من غير شك ولا ارتياب؛ كما قال عز وجل: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَأرَبِّ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [السجدة: ٢].

أي: أرايتم إن كان من عند الله وتبين واتضح لكم ذلك ﴿ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾، أي: كذبتم به وأنكرتموه وجحدتموه.

﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾ الاستفهام للنفي، أي: لا أحد أضل من الذي هو ﴿فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾، أي: في شقاق وخلاف بعيد عن الحق، ومعاندة ومخالفة له. والمراد: لا أحد أضل منكم. وإنما أظهر في مقام الإضمار؛ لتسجيل هذا الوصف عليهم، وأنهم في شقاق بعيد عن الحق، ويشمل هذا الوصف غيرهم ممن كفر بالقرآن وكذبه.

﴿سَتْرِيهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ السين: للتنفيس، وهي تفيد تحقق وقوع الشيء مع القرب، أي: سنظهر لهم قريباً آياتنا الكونية الدالة على أن القرآن الكريم حق، منزل من عند الله عز وجل على رسوله ﷺ.

﴿فِي الْأَفَاقِ﴾، أي: في آفاق السموات والأرض وأقطارهما، حتى يروها بأبصارهم وبصائرهم، وذلك بما جعل الله في السماء من الكواكب كالشمس والقمر والنجوم، وما فيها من السحاب والرعد والبرق وغير ذلك، وما في الأرض من الجبال والبحار والأنهار والنباتات والمعادن وغير ذلك.

ومن ذلك: ظهور إعجازه بما أخبر به من الغيب، فوقع كما أخبر، من النصر له ﷺ.

ولدينه، وتمكينه، وإقبال الناس عليه، وانتشار الفتوحات الإسلامية، واتساع رقعة الإسلام، وظهوره على الأديان كلها، وخذلان الشرك وأهله، إلى غير ذلك مما يحصل في الآفاق من الحوادث والوقائع والمصائب والشدة والرخاء، وغير ذلك.

﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: ونزيمهم آياتنا في أنفسهم في تركيب خلقهم العجيب، وما أودع الله فيهم من القوى العقلية والبدنية والحواس وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وأيضا: فيما يقع عليهم من المصائب والعقوبات؛ كمصرع كبرائهم في بدر وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال الشاعر:

وإذا نظرت تريد معتبرا	فانظر إليك ففيك معتبر
أنت الذي يمسي ويصبح في الد	دنيا وكل أموره عبر
أنت المصرف كان في صفر	ثم استقل بشخصه الكبر
أنت الذي تنعاه خلقتة	ينعاه منه الشعر والبشر
أنت الذي تعطى وتسلب لا	ينجيته من أن يسلب الحذر
أنت الذي لا شيء منه له	وأحق منه بهاله القدر ^(١)

﴿حَقٌّ يَبَيِّنُ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾، أي: إلى غاية أن يتبين لهم أن القرآن هو الحق، وأنه ﷺ جاء بالصدق، وأن ما أخبر به من النصر والتمكين له ﷺ، والبعث والحساب، وغير ذلك، كله حق.

وقد أرى عز وجل عباده من الآيات ما به تبين أن القرآن حق، وأن ما جاء به من الهدى والدين هو الحق؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

(١) ذكر هذه الآيات ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ١٧٥ - ١٧٦، نقلاً عن كتاب «التفكير والاعتبار» لابن أبي الدنيا عن شيخه أبي جعفر القرشي.

﴿أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿٥٢﴾ الاستفهام: للتقرير، والباء: زائدة لتحسين اللفظ، أي: أولم يكفهم دلالة على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق: شهادة ربك يا محمد لها بذلك؟ كما قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ﴾ وكفى بالله شهيداً ﴿٥٣﴾ [النساء: ١٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

فكفى به عز وجل شهيداً على أن القرآن حق؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وكفى به سبحانه شهيداً على صدق الرسول ﷺ، وأن ما جاء به حق، بتأييده عز وجل، ونصره له، وذلك أعظم شهادة منه عز وجل على صدقه ﷺ، وصحة ما جاء به. وكفى به عز وجل شهيداً على كل شيء من أفعال العباد وأقوالهم، وغير ذلك، فلا يعزب عنه شيء ولا يغيب.

﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾ ﴿٥٤﴾ «ألا» في الموضعين: أداة تنبيه، وكررت للتوكيد، أي: ألا إن هؤلاء المشركين في شك عظيم من لقاء الله تعالى، وقيام الساعة، ومحاسبته عز وجل لهم، ومجازاته إياهم.

﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ ﴿٥٥﴾، أي: ألا إنه عز وجل بكل شيء محيط علماً وقدرة، فلا يفوته شيء، ولا يعجزه أحد، وسيجازيهم بكفرهم.

الفوائد والأحكام:

١- أن من عمل صالحاً فثواب عمله لنفسه، ومن أساء فعقوبة إساءته على نفسه، والله غني عن العباد وأعمالهم، فلا تنفعه طاعة المطيع؛ كما لا تضره معصية العاصي؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ. وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ ﴿٥٦﴾.

٢- لا بد من كون العمل صالحاً، خالصاً لوجه الله، تبعاً لشرعه.

٣- الترغيب في الأعمال الصالحة، والتحذير من الأعمال السيئة.

٤- كمال عدل الله عز وجل بمجازاة كلِّ بعمله، المحسن بإحسانه، والمسيء

بإساءته.

٥- انتفاء الظلم عنه عز وجل لعباده بالكلية، فلا ينقص من حسناتهم، ولا يزداد في سيئاتهم، ولا يُجازى أحد بغير ما عمل أو بعمل غيره؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٤٦)، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠].

٦- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالنبي ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿أَوْلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾.

٧- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِلْعَبِيدِ﴾، أي: لعبيده.

٨- اختصاص الله عز وجل، وتفرد به بعلم الساعة، ومتى تقوم؛ لقوله عز وجل: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.

٩- إثبات القيامة، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، وقوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا﴾.

١٠- عموم علمه وإحاطته بجميع الذي تحرجه الأشجار من ثمرات من أوعيتها؛ قدره وجودته، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا﴾.

١١- علمه عز وجل الواسع بكل ما تحمله من أنثى من بني آدم، ومن سائر الحيوانات، ومتى تضع؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾.

١٢- مناداته عز وجل المشركين يوم القيامة، وفضيحتهم على رؤوس الخلائق؛ أين شركائي؟ توبيخاً لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِي﴾.

١٣- إثبات النداء والكلام لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾.

١٤- إقرارهم ببطلان إلهية شركائهم، وتبرؤهم منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأُذَنَّاكَ

مَا مَنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾.

١٥- ذهاب ما كانوا يدعون من قبل من الشركاء من الأصنام والأنداد، وغيابهم

عنهم، وعدم نفعهم لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ﴾. وهكذا فكل ما عبد من دون الله فهو هلاك وضلال.

١٦- تيقنهم أنه لا محيص لهم ولا مهرب، ولا مفر ولا محيد من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحْيٍ﴾.

١٧- أن من طبيعة الإنسان أنه لا يمل من طلب الخير، وإن أصابه الشر يئس وقنط من حصول الخير، إلا من رحمه الله؛ لقوله تعالى: ﴿لَا يَسْأَلُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾.

١٨- إنكار الكافر فضل الله تعالى عليه بإعطائه النعمة بعد الضراء، ونسبته ذلك إلى حذقه وجهده، واستحقاقه لذلك؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي﴾.

١٩- إثبات رحمة الله تعالى العامة لجميع الخلق بها في ذلك الكفار.

٢٠- إنكار الكافر قيام الساعة، والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾.

٢١- اغتراره بما أوتي من نعمة الله وإحسانه إليه في الدنيا، وأنه سيحصل له مثل ذلك في الآخرة إن كان ثمة رجوع إلى ربه كما يزعم؛ لقوله: ﴿وَلَيْنَ تُرْجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾.

٢٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿إِلَى رَبِّي﴾، وقوله: ﴿مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ﴾.

٢٣- التهديد الشديد، والوعيد الأكيد للكفار بإخبارهم بأعمالهم الباطلة، وتعذيبهم العذاب الشديد عليها؛ لقوله تعالى: ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

٢٤- إثبات علم الله التام بجميع أعمال العباد، وكتابتها عليهم في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

٢٥- إعراض الإنسان وانصرافه عن طاعة ربه وشكره حال النعمة، وتباعده

بجانبه، واستكباره عن الحق وعلى الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَىٰ بِنِعْمَتِنَا﴾.

٢٦- إقباله على دعاء ربه، والتضرع إليه، وعدم صبره إذا مسه الشر والضر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَدُوَّ دُعَاءِ عَرِيضٍ﴾، فلا شكر في السراء، ولا صبر في الضراء، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

٢٧- أن النعم كلها من الله تعالى، والخير بيديه، والشر ليس إليه؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ﴾ الآية.

٢٨- الإنكار على المكذبين كفرهم بالقرآن بعد معرفتهم أنه من عند الله، وتهويل عاقبتهم وسوء منقلبهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ﴾.

٢٩- إثبات أن القرآن الكريم من عند الله، وكلامه أنزله على رسوله ﷺ.
٣٠- أنه لا أحد أضل ممن كفر بالقرآن، وكان في شقاق بعيد عن الحق، ومعاودة ومخالفة له مع وضوحه وظهوره؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾.
٣١- وعده عز وجل بإظهار آياته للعباد، الدالة على أن القرآن حق، وأنه ﷺ جاء بالحق من الآيات الكونية في آفاق السموات والأرض، ومن النصر والتمكين له ﷺ ولأصحابه، وظهور الإسلام على الأديان كلها وغير ذلك.

ومن الآيات في أنفسهم مما يصيبهم في ذواتهم من المصائب والعقوبات المتتابعة؛ كمصارع كبرائهم وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿سَتُرِيهِمْ عَيْنَتَنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

٣٢- أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق؛ لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

٣٣- كفاية الله تعالى بشهادته على أن القرآن حق، وأن الرسول ﷺ حق،

وبشهادته عز وجل على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الرعد: ٤٣، الإسراء: ٩٦].

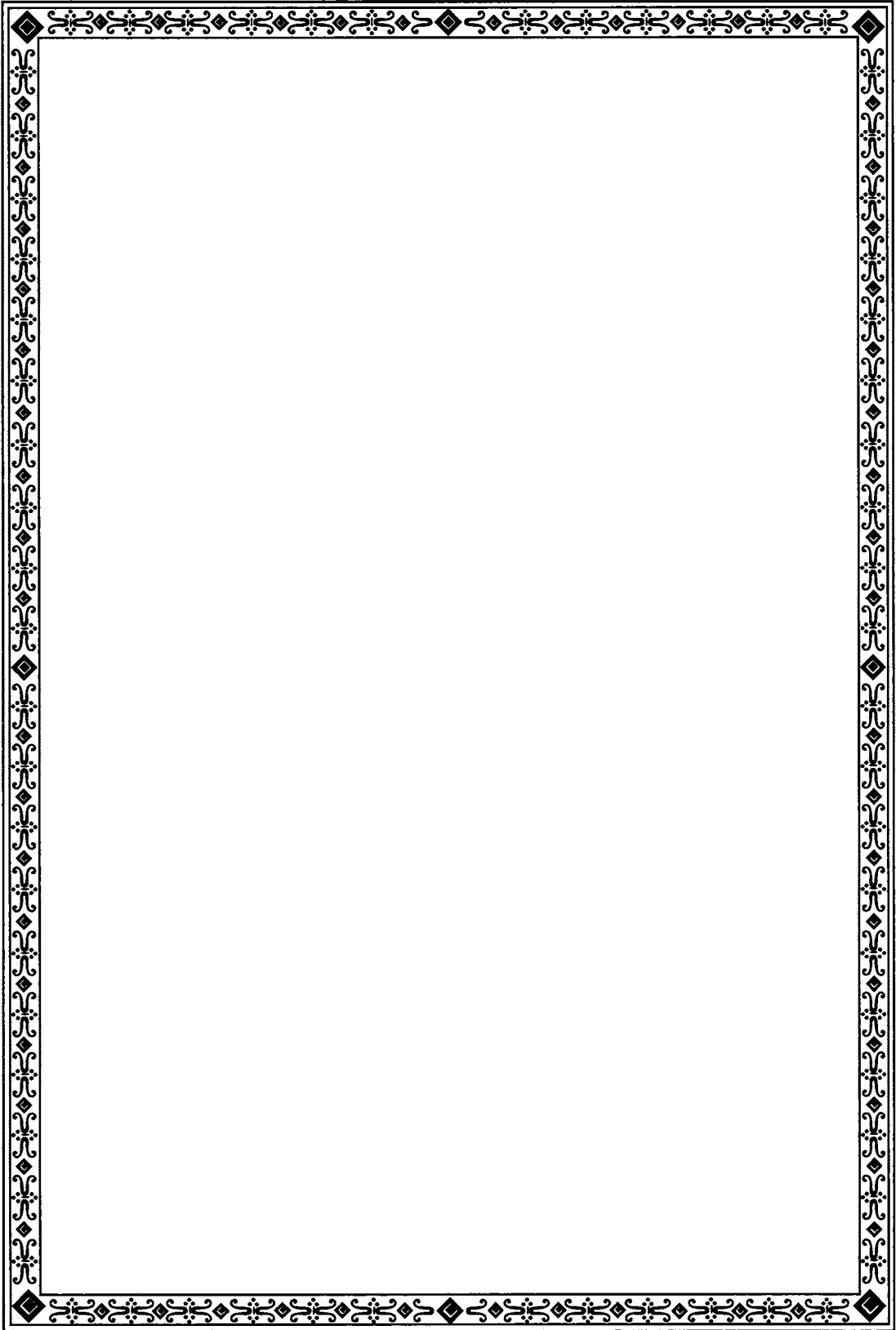
٣٤- وجوب مراقبة الله تعالى، والحذر من مخالفته؛ لأنه على كل شيء شهيد، وبكل شيء محيط.

٣٥- شك المشركين وتكذيبهم بلقاء ربهم، والبعث والحساب والجزاء على الأعمال؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيعَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ﴾.

٣٦- إحاطته عز وجل بكل شيء: خلقًا وملكًا وتدبيرًا وعلما؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾.

* * *

تَفْسِيرُ سُورَةِ الشُّورَى



المقدمة

أ- اسم السورة:

سميت هذه السورة: «سورة الشورى»؛ لقوله تعالى فيها: ﴿وَأْمُرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية: ٣٨].

وتسمى أيضًا: «سورة حم عسق»؛ لافتتاحها بذلك وتسمى: «سورة عسق».

ب- مكان نزولها:

مكية.

ج - موضوعاتها:

١ - افتتحت «سورة الشورى» بقوله تعالى في مطلعها: ﴿حَمْدٌ ۝١ عَسَقٌ ۝٢﴾ خمسة حروف من حروف الهجاء، وهي أقص ما جاءت عليه الحروف المقطعة أوائل السور، كقوله: (كهيعص)، والحكمة من ذكر هذه الحروف الدلالة على إعجاز القرآن والتحدي به - كما سبق بيانه.

٢ - تعظيم الله عز وجل لوحيه، وبيانه سعة ملكه عز وجل وعلوه وعظمته ومغفرته ورحمته: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥﴾.

٣ - تهديد المشركين الذين اتخذوا من دون الله أولياء، والانكار عليهم، وتسليته ﷺ، وبيان أنه ليس وكيلاً عليهم، وأن مهمته الإنذار فمن أطاع فله الجنة ومن عصا فله السعير، وفق مشيئة الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَن حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَأَرْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ۝٧ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُم أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَأَلَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٩﴾.

٤ - وجوب رد المختلف فيه إلى الله عز وجل، المتفرد بالألوهية، والربوبية، فاطر

السموات والأرض جعل للعباد من أنفسهم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً، ذو الكمال والملك والتدبير: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (١٠) فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ .

٥- الامتنان على هذه الأمة بأنه عز وجل شرع لهم من الدين ما وصى به الأنبياء السابقين وهو إقامة الدين وإخلاص العبادة لله تعالى وحده لا شريك له، والحذر من التفرق في الدين: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ (١٣) وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ ﴿١٤﴾ .

٦ - عنايته عز وجل بنبيه ﷺ وتأنيده له وتقويته لقلبه: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُ وَاَسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حِجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ (١٥) .

٧ - بيان بطلان حجة الذين يحاجون في الله، ووحدانيتها، وغضب الله عليهم، وتوعدهم بعذاب شديد.

٨ - الامتنان على العباد بإنزاله عز وجل الكتاب بالحق والعدل، والتحذير من قرب الساعة: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧) يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ إِلَّا أَنْ الَّذِينَ يُمَارُونَكَ فِي السَّاعَةِ لِئِي ضَلَّلِي بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ .

٩ - بيان الطفه عز وجل بعباده وتكفله بأرزاقهم، ومجازاته كلاً بعمله: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ (١٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي

حَرْبِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢٠﴾ .

١٠- ذم المشركين وتهديدهم بالعذاب الأليم، ووعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات وبشارتهم بالثواب العظيم: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَنْ يَقْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ .

١١- إبطال دعوى المشركين أن الرسول ﷺ افترى على الله كذباً فيما جاء به ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّضُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾ .

١٢- بيان سعة رحمة الله تعالى وعفوه وعلمه وفضله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ .

١٣- حكمة الله تعالى في إنزاله الرزق بقدر ما يشاء: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشورى: ٢٧].

١٤- امتنانه عز وجل بإنزال الغيث، ونشر رحمته على العباد: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ ۗ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾﴾ .

١٥- أن من آياته عز وجل الدالة على عظمته ووحدانيته وقدرته على البعث: خلق السموات والأرض وما بث فيها من دابة.

١٦- بيان أن ما يصيب العباد من مصائب بسبب كسبهم، ويعفو عز وجل عن كثير.

١٧- إثبات تمام قدرة الله تعالى، وأن الخلق لا يعجزونه، وما لهم من دونه من ولي ولا نصير.

١٨- بيان أن من آياته عز وجل الدالة على تمام قدرته وسابغ نعمته جريان السفن في البحر كالأعلام: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ٣٢﴾ إِنَّ يَسَاءَ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٣٣﴾ أَوْ يُوقِنَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِيصٍ ٣٥﴾ فَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَمَنَّعُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦﴾.

١٩- امتداح المؤمنين والثناء عليهم باجتناب الكبائر والفواحش، والمغفرة عند الغضب، والاستجابة (بهم) وإقام الصلاة، وكون أمرهم شوري بينهم، والانفاق مما رزقهم الله إلى غير ذلك: ﴿وَالَّذِينَ يُحْتَابُونَ كَثِيرًا إِلَّا إِيَّامَهُمْ وَعَلَىٰ الْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ٣٩﴾.

٢٠- مشروعية الانتصار ممن بغى وظلم والإغراء والحث على العفو والصلح والصبر والمغفرة: ﴿وَحَزَّوْا سَنِيَّةً سَنِيَّةً مِّثْلَهَا مِمَّنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ٤٣﴾.

٢١- من يضلل الله كونًا وقدرًا فلا ولي له من بعده، والوعيد الشديد للظالمين: ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَدِيِّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍ مِنْ سَبِيلٍ ٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعَاتٍ مِنَ الدَّرِّ يُنظَرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ٤٦﴾.

٢٢- الأمر بالاستجابة لله عز وجل قبل يوم القيامة، وتهديد المعرضين وتسلية النبي ﷺ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ٤٨﴾.

٢٣- أن من طبيعة الإنسان الفرح بالرحمة، والكفر عند حصول النعمة: ﴿وَإِنَّا إِذَا
أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾.

٢٤- اختصاصه عز وجل بملك السموات والأرض والخلق وبمنح الذرية
ومنعها: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ
الذَّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثَاءً وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَاقِبَةً إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

٢٥- بيان أنواع تكليمه عز وجل لرسله ووحيه إليهم: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِمَهُ اللَّهُ
إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾﴾.

٢٦- الامتنان على الرسول ﷺ بما أوحاه الله تعالى إليه من القرآن الكريم، والنور
المبين، والشهادة له ﷺ بأنه يهدي إلى صراط الله المستقيم: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ
أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي
إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٢٧- بيان أن مرد الأمور كلها في الدنيا والآخرة إلى الله عز وجل: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ
الْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ حَمَّ ١ عَسَقَ ٢ ﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾.

قوله تعالى: ﴿ حَمَّ ١ عَسَقَ ٢ ﴾ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾.

قوله: ﴿ حَمَّ ١ عَسَقَ ٢ ﴾ سبق الكلام على الحروف المقطعة في أوائل بعض السور في مطلع سورة البقرة، وبيان أن الحكمة منها التحدي بالقرآن الكريم، وبيان إعجازه.

وهذه الحروف في أوائل السور منها ما جاء على حرف واحد، ومنها ما جاء على حرفين، ومنها ما جاء على ثلاثة أحرف، ومنها ما جاء على أربعة أحرف، ومنها ما جاء على خمسة أحرف، وهو الحد الأعلى لها، وهما: ﴿ كَهَيَّصَ ١ ﴾ مطلع سورة مريم، و﴿ حَمَّ ١ عَسَقَ ٢ ﴾ مطلع هذه السورة.

﴿ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ قرأ ابن كثير: «يُوحَى» بفتح الحاء، وألف بعدها، وقرأ الباقون بكسرها، وياء بعدها: ﴿يُوحَى﴾.

والكاف: للتشبيه بمعنى: «مثل»، والإشارة إلى الإيحاء المأخوذ من الفعل

«يوحى»، أي: مثل هذا الإيحاء، يوحى إليك بإنزال هذا القرآن العظيم عليك، ويوحى إلى الذين من قبلك من الأنبياء والمرسلين؛ كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ [النساء: ١٦٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول»، قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً^(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هل تحس بالوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم، أسمع صلاصل، ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تفيض»^(٢).

والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء. وفي الشرع: إعلام الله تعالى بالشرع لأنبيائه ورسله.

﴿اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، «الله»: فاعل لـ«يوحى»، و«العزیز» و«الحكيم»: نعتان له، أي: ذو العزة والقوة والغلبة والقهر والامتناع، وذو الحكم والحكمة في قدره وشرعه وجزائه، وفي أقواله وأفعاله.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: له خاصة، خلقاً وملكاً وتدبيراً، جميع الذي في السموات والذي في الأرض من المخلوقات.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾، أي: ذو العلو المطلق على خلقه، له علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

﴿الْعَظِيمُ﴾، أي: ذو العظمة في علوه وكبريائه، وسلطانه وعلمه، وقوته وقدرته،

(١) أخرجه البخاري في بدء الوحي ٢، والنسائي في الافتتاح ٩٣٤، والترمذي في المناقب ٣٦٣٤، وأحمد ٦/

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٢٢٢.

وفي كل شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩].

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ قرأ نافع والكسائي بالياء: «يَكَادُ». وقرأ الباقون بالتاء: «تَكَادُ».

أي: تكاد السموات على كبرها وعلوها وكونها جمادات.

﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ﴾ قرأ أبو عمرو وأبو بكر عن عاصم ويعقوب بنون ساكنة بين الياء والفاء، وكسر الطاء وتخفيفها: «يَتَفَطِّرْنَ»، وقرأ الباقون بتاء مفتوحة، وفتح الطاء وتشديدتها: «يَتَفَطَّرْنَ».

أي: يتشققن من فوقهن؛ فرقا من عظمتها عز وجل، قال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١]، أي: انشقت، وقال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾: معطوف على «تكاد»، أي: والملائكة الكرام المقربون ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، الباء: للملابسة، أي: يقربون بين تسيحه بتعظيمه بعبادته والخضوع له، وتنزيهه عن النقائص والعيوب، وعن مماثلة المخلوقين، وبين حمده بوصفه بصفات الكمال.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: يطلبون من ربهم المغفرة للذين في الأرض من المؤمنين؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَجِيمِ﴾ [غافر: ٧].

﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، و«هو»: ضمير فصل؛ للتوكيد، «الغفور»: ذو المغفرة الواسعة للتائبين من عباده، يستر ذنوبهم، ويتجاوز عنها، فلا يعاقبهم عليها؛ ولهذا طلبت الملائكة منه المغفرة للمؤمنين؛ لأنه أهل لذلك؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: ٥٦].

﴿الرَّحِيمِ﴾ ذو الرحمة الواسعة العامة لجميع خلقه، التي وسعت كل شيء وعمت كل حي، وذو الرحمة الخاصة بعباده المؤمنين.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ (٦) ﴿٦﴾
لما بين عظمته عز وجل ومغفرته ورحمته، أتبع ذلك بدم المشركين الذين لم يقدرُوا عظمته، ولم يتعرضوا لمغفرته ورحمته، وتوعدهم مبيناً للنبي ﷺ أنه ليس وكيلاً عليهم.
قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾، أي: جعلوا من دون الله شركاء من الأصنام يتولونهم ويعبدونهم.

﴿اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي: رقيب وشهيد عليهم، يحفظ أعمالهم ويحصيها، ويحاسبهم ويجازيهم عليها.

﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾، أي: وما أنت يا محمد على هؤلاء المشركين بوكيل، تلزمهم الهداية والإيمان، أو تحفظ أعمالهم وتحصيها عليهم؛ كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [هود: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام: ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجُمُعِ لَا رَبَّ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (٧) ﴿٧﴾ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْخُلُ مِنَ الشَّاءِ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ (٨) ﴿٨﴾.

قوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾، أي: مثل هذا الإيجاء، ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، ﴿قُرْآنًا﴾ مفعول لـ «أوحينا»، وهو بيان لمفعول «يوحى» في قوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾، ونكّر «قرآنًا» للتعظيم، ﴿عَرَبِيًّا﴾ نعت لـ «قرآنًا»، أي: بلسان العرب ولغتهم، أفصح اللغات وأبينها؛ كما قال تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (١١٥) ﴿١١٥﴾ [الشعراء: ١٩٥].

﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ اللام: للتعليل، أي: لأجل أن تنذر، أي: تخوف

وتحذر ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾ مكة شرفها الله، والمراد: لتنذر أهلها؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَسَكَّلِ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]، أي: أهل القرية.

و«تنذر» ينصب مفعولين، الأول قوله: ﴿أُمَّ الْقُرَى﴾، والثاني: محذوف، أي: العذاب العظيم ونحو ذلك، وقد يقدر بـ«يوم الجمع»؛ لقوله بعد هذا: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾. وسميت «مكة»: أم القرى؛ لأن جميع القرى تأوي إليها، والمسلمون في كل مكان يتجهون في الصلاة إليها، ويحجون إليها، ولأنها من أقدم القرى، وهي أشرف القرى والمدن، وأعظم البلاد والبقاع، فعن عبدالله بن عدي بن حمراء الزهري، أنه سمع رسول الله ﷺ يقول وهو واقف بالحزورة^(١) في سوق مكة: «والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت»^(٢).

﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، أي: ومن حول مكة من القرى شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٥٩].

﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾: معطوف على الجملة التعليلية، والمفعول الأول محذوف، أي: ولتنذر وتخوف وتحذر الناس: ﴿يَوْمَ الْجَمْعِ﴾، وهو يوم القيامة، سمي يوم الجمع؛ لجمع الخلائق كلهم فيه، الأولين والآخرين، في صعيد واحد؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَمَجَّعْنَهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩].

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ «لا»: نافية، والجملة خبرية، أي: لا شك في وقوعه، وأنه كائن لا محالة.

﴿فَرِيقٌ﴾، أي: قسم من الناس، وهم المؤمنون، ﴿فِي الْجَنَّةِ﴾ دار النعيم والتكريم. ﴿وَفَرِيقٌ﴾، أي: وقسم منهم، وهم الكافرون الأكثرون، ﴿فِي السَّعِيرِ﴾، أي: في

(١) الحزورة: موضع في مكة، والحزورة في الأصل: التل الصغير، سميت بذلك لوجود تل صغير فيها.

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، فضل مكة ٣٩٢٥، وابن ماجه في المناسك، فضل مكة ٣١٠٨، وأحمد ٤/

٣٠٥، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب صحيح».

النار المسعورة المتوقدة والجحيم.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي: ولو شاء الله لجعل الناس فرقة واحدة، مجتمعة على الهدى والإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

ويحتمل أن المعنى: ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة، إما على الهدى، وإما على الضلال، ولكنه عز وجل لم يشأ أن يجعل الناس أمة واحدة على دين واحد، بل شاء أن يجعلهم متفرقين؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [١٨] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿[هود: ١١٨، ١١٩].

ولهذا قال هنا: ﴿وَلَكِنْ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الواو: عاطفة، و«لكن»: حرف استدراك، أي: ولكن يدخل الذي يشاء منهم في رحمته بهدايته إياهم في الدنيا وتوفيقهم للإيمان، وهدايتهم في الآخرة إلى الجنة دار السلام.

﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ بالكفر والشرك ﴿مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ﴾ «من»: لتوكيد النفي، أي: ما لهم أي ولي يتولاهم، فيجلب لهم الخير، ولا نصير ينصرهم فيدفع عنهم الشر والضير.

الفوائد والأحكام:

- ١- إثبات إعجاز القرآن الكريم والتحدي به؛ لقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقَ ﴿٢﴾﴾.
- ٢- أن إجماعه عز وجل إلى نبينا محمد ﷺ مثل إجماعه إلى الذين من قبله من الرسل؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ﴾.
- ٣- إثبات رسالته ﷺ؛ وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات نبوة الرسل من قبله، ووحى الله إليهم.
- ٤- إثبات اسم الله: «العزیز»، وأنه سبحانه ذو القوة والقهر والغلبة والامتناع؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾.
- ٥- إثبات اسم الله: «الحكيم»، وأنه عز وجل ذو الحكم والحكمة في شرعه وقدره وجزائه، في أقواله وأفعاله؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَكِيمُ﴾.

٦- في اقتران اسميه عز وجل: «العزیز» و«الحکیم» کمال إلى کمال، فکم من إنسان عنده شيء من العزة لكنه يفقد الحکمة، وکم من آخر عنده شيء من الحکمة، لكنه يفقد العزة والقوة، وصدق الله العظیم: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

٧- إثبات سعة ملكه عز وجل، وأن له وحده خاصةً جميع الذي في السموات والذي في الأرض، خلقًا وملكًا وتدبيرًا؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٨- إثبات اسمه عز وجل: «العلي»، وأن له عز وجل العلو المطلق على خلقه، علو الذات، وعلو الصفات، علو القدر، وعلو القهر؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ﴾، وقوله: ﴿تَقَطَّرْتُم مِّن فَوْقِهِنَّ﴾.

٩- إثبات اسمه تعالى: ﴿الْعَظِيمُ﴾، وأنه سبحانه ذو العظمة التامة في جميع صفاته؛ لقوله تعالى: ﴿الْعَظِيمُ﴾.

١٠- إثبات عظمة الله تعالى، وخضوع جميع المخلوقات وفرقها من شدة عظمته، بما في ذلك السموات التي هي من أعظم المخلوقات وأعلاها، والملائكة المقربون؛ لقوله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمٰوٰتُ يَتَقَطَّرْنَ مِّن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ﴾.

١١- إثبات وجود الملائكة، وتسبيحهم بحمد ربهم، واستغفارهم للمؤمنين.

١٢- استحباب قرن التسبيح بالتحميد؛ لما في التسبيح من تنزيه الله وتعظيمه، ولما في الحمد من وصفه عز وجل بصفات الكمال، ففي التسبيح نفي النقص عنه، وفي الحمد إثبات الكمال له سبحانه وتعالى.

١٣- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالملائكة؛ لقوله تعالى: ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾.

١٤- منة الله تعالى على المؤمنين بتسخيره الملائكة يستغفرون لهم.

١٥- فضيلة الإيذان وأهله؛ لتسخير الله عز وجل لهم الملائكة تستغفرون لهم.

١٦- إثبات اسم الله عز وجل: «الغفور»، وأنه سبحانه ذو المغفرة الواسعة لذنوب عباده، يغفر ذنوب التائبين كلها، ويغفر لمن يشاء ما دون الشرك؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ﴾.

١٧- إثبات اسم الله: «الرحيم»، وإثبات رحمته العامة لجميع الخلق، ورحمته الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿الرَّحِيمُ﴾.

١٨- أن التخلية قبل التحلية؛ لهذا قدّم «الغفور» على «الرحيم»، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

١٩- ذم المشركين الذين لم يقدرُوا عظمة الله تعالى، ولم يتعرضوا لمغفرته ونفحات رحمته، وتهديدهم بحفظه عز وجل لأعمالهم ومجازاتهم عليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيفٌ عَلَيْهِمْ﴾.

٢٠- سعة علم الله، وأنه عز وجل حفيظ على العباد وعلى أعمالهم؛ مما يوجب عليهم مراقبته في السر والعلن.

٢١- تسليته عز وجل للنبي ﷺ وطمأننته له، ببيان أنه عز وجل حفيظ على المشركين وتهديده إياهم، وبيان أنه ﷺ ليس بوكيل عليهم يلزمهم الهداية، أو يحفظ أعمالهم ويحصيها عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِوَكِيلٍ﴾، وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله تعالى.

٢٢- أنه ﷺ ليس عليه بالنسبة للناس إلا إبلاغهم رسالة ربه، وأما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب سبحانه وتعالى.

٢٣- امتنانه عز وجل عليه ﷺ بوحيه إليه هذا القرآن، وكونه عربياً بأفصح اللغات وأبينها؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

٢٤- أن القرآن كلام الله تعالى؛ لأن الله أضافه إلى نفسه، فقال: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا﴾، والقرآن كلام، فهو كلام الله منزل غير مخلوق.

٢٥- تعظيم الله عز وجل لكتابه «القرآن»، والتنويه بكونه بلسان العرب ولغتهم أفصح اللغات؛ لقوله تعالى: ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾.

٢٦- شرف وفخر للعرب أن يكون القرآن بلغتهم، فعليهم شكر الله تعالى على هذه النعمة الكبرى، والمنة العظمى، والقيام بمسؤوليتهم، ونشر رسالته في العالم أجمع، والحفاظ على لغتهم، لغة القرآن الخالدة بإذن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ

وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾ [الزخرف: ٤٤].

٢٧- حكمة الله تعالى في إرساله الرسل، وإنزاله عليهم الكتب بلغتهم ولغة أقوامهم؛ كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِبَلْسَانَ قَوْمِهِ، لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].
٢٨- وجوب الحفاظ على اللغة العربية لغة القرآن، والتأكيد على تعلمها بقدر ما يفهم الإنسان به القرآن وأمر دينه.

٢٩- أن الحكمة من إنزال القرآن إنذار الناس وتحذيرهم من عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وفي طي هذا الإنذار لا بد من بيان التكاليف التي بامتثالها تحصل السلامة مما أُنذر وحُذّر منه، بل وتحصل به البشارة.
٣٠- فضل مكة وشرفها على سائر القرى والبلدان، بتشريفه عز وجل لها، وجعلها أم القرى.

٣١- إثبات الحكمة والعلة في أفعال الله تعالى وأحكامه الشرعية والقدرية؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ الآية، وفي هذا رد على نفاة الحكمة في أفعاله، وزعمهم أنه يفعل لمجرد المشيئة، تعالى الله عن ذلك.

٣٢- إثبات يوم القيامة، وجمع الخلائق فيه، وأن من حكمة إنزال القرآن: الإنذار والتحذير من ذلك اليوم وأهواله وعذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ﴾.
٣٣- أن يوم جمع الخلائق كائن لا شك فيه، وواقع لا محالة؛ لقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾.

٣٤- انقسام الناس في ذلك اليوم إلى فريقين: فريق في الجنة وهم المؤمنون، وفريق في النار وهم الكافرون الأكثرون؛ لقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.
٣٥- إثبات تمام قدرته تعالى على جعل الناس - لو شاء - أمة واحدة كلهم على الإيمان، أو على الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، وفي هذا تسلية له ﷺ، فلا يحزن على ضلال من ضل.

٣٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

٣٧- الرد على القدرية الذين يقولون: إن العباد يخلقون أفعالهم، وإن الله لا يشاؤها ولا يخلقها، ولا يعلم بها إلا إذا صدرت منهم. تعالى الله عن ذلك.

٣٨- أنه عز وجل شاء ألا يكون الناس أمة واحدة، بل شاء بحكمته أن يكونوا فريقين، مؤمنين يدخلهم في رحمته الفعلية فضلاً منه، وظالمين ما لهم من ولي ولا نصير، عدلاً منه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يَدْخُلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

٣٩- إثبات رحمة الله تعالى الخاصة، وجنته.

٤٠- إثبات القدر، وأن الله قدر مقادير الخلق في الأزل، وكل ميسر لما خلق له.

٤١- التحذير من الظلم بالكفر والشرك؛ لأنه لا ولي للظالمين يجلب لهم الخير

والرحمة، ولا نصير لهم يدفع عنهم العذاب والنقمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ

وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾.

ومفهوم هذا: أنه سبحانه ولي المؤمنين العادلين؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧].

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ * شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعِدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُسْفِهُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَإِنَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطْرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾.

قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى: «بل» التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل اتَّخذوا من دونه، أي: جعل هؤلاء المشركون غير الله ﴿أَوْلِيَاءَ﴾، أي: آلهة يوالونهم ويعبدونهم، ويستغيثون بهم ويستنصرون.

﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ الفاء: تعليلية، وضمير الفصل «هو»: للتوكيد، أي: فالله وحده هو الولي الحق، ولاية عامة لجميع الخلق، يدبرهم ويتولى شؤونهم؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ولاية خاصة للمؤمنين؛ يوفقهم، وينصرهم، ويؤيدهم، ويسددهم، والذي لا تنبغي العبادة إلا له وحده، ولا الاستغاثة إلا به.

﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾: معطوفة على جملة: «الله هو الولي»، وضمير الفصل «هو» يفيد الحصر والتوكيد، أي: هو وحده القادر على إحياء الموتى.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: معطوفة على جملة: «هو يحيي الموتى».

وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾: متعلق بالخبر «قدير»، وقدم عليه؛ لتأكيد عموم قدرته على كل شيء، فلا يعجزه شيء، ولا يمتنع عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَّهُ لِيُعْجِزَهُ. مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فأنكر عز وجل على المشركين اتخاذهم آلهة يوالونهم ويعبدونهم من دونه، وهو سبحانه المستحق للعبادة وحده؛ لأنه الولي الذي لا تنبغي العبادة إلا له، ذو القدرة التامة على إحياء الموتى، وذو القدرة على كل شيء.

﴿وَمَا أَخْلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ «من»: بيان لإبهام «ما»، أي: وما اختلفتم فيه من أي شيء من الدين وغيره.

﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، أي: فحكمه مردود إلى الله وحده في الدنيا والآخرة، أي: إلى كتابه، وسنة رسوله ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَزُدُّوهٗ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿ذَلِكُمْ﴾، أي: ذلكم الله الذي أمرتكم برد ما اختلفتم فيه من شيء إليه.
 ﴿اللَّهُ﴾ وحده ﴿رَبِّي﴾ لا رب لي غيره، ولا معبود بحق سواه.
 وأشار إليه بإشارة البعيد للتعظيم، أي: ذلكم الله العظيم ربي.
 ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾، أي: عليه وحده اعتمدت، وفوضت أمري كله عليه، تفويضًا تامًّا، مع صدق الاعتماد عليه، والثقة به في جلب النفع، ودفع الضر.
 ﴿وَالَيْهِ أُنِيبُ﴾، أي: وإليه وحده أتوجه بقلبي وبدني؛ إخلاصًا وطاعة له، وأرجع إليه في جميع أموري وأحوالي، فلا أعبد سواه، ولا أتوكل إلا عليه، ولا أُنِيب إلا إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: هو فاطر السموات والأرض، أي: خالقهما ومبدعهما بقدرته ومشيبته وحكمته، وما بينهما على غير مثال سبق؛ كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧، الأنعام: ١٠١].

﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾، أي: خلق لكم من جنسكم أزواجًا، فجعلكم ذكراً وأنثى؛ ليحصل بينكم التزاوج، ويسكن بعضكم إلى بعض، ويحصل بينكم التناسل، منة منه تعالى عليكم، ودلالة على كمال قدرته؛ كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ﴾، أي: وخلق لكم من الأنعام ﴿أَزْوَاجًا﴾، أي: ثمانية أواج، ذكر وأنثى؛ كما قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ثُمَّ نَبَّيْنَا أَزْوَاجَهُمْ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [الأنعام: ١٤٤] وذلك لكي تبقى وتتناسل وتنمو وتتكاثر؛ لمنافعكم ومصالحكم.

﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ الضمير في «يذروكم» يعود إلى الأناسي والأنعام بتغليب العقلاء. والهاء في قوله: «فيه» ضمير يعود إلى «الجعل»، المفهوم من قوله: «جعل لكم». ومعنى الذرة: الخلق والبث والنشر الكثير، أي: يخلقكم ويبتكم وينشركم فيه؛ كما

قال تعالى: ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنَسَاءً﴾ [النساء: ١]، أي: خلق وذراً ونشر منهما، وقال تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ [البقرة: ١٦٤]، أي: خلق وبث ونشر. والمعنى: يذروكم بسبب جعله لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً، أي: يخلقكم ويبتكم ويكثركم بسبب ذلك.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ الكاف: زائدة للتوكيد، أي: ليس مثله عز وجل شيء، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لتفرده بصفات الكمال، ونعوت الجلال؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١-٤].

قال السعدي^(١): «أي: ليس يشبهه تعالى ولا يماثله شيء من مخلوقاته، لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته، ولا في أفعاله؛ لأن أسمائه كلها حسنى، وصفاته صفات كمال وعظمة، وأفعاله تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك، فليس كمثلته شيء؛ لانفراده وتوحده بالكمال من كل وجه».

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ لما نفى أن يكون كمثلته شيء من أي وجه رداً على المثلة، أتبع ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رداً على المعطلة.

و«السميع»: اسم من أسمائه عز وجل، يدل على أنه ذو السمع الواسع الذي يدرك جميع المسموعات، ويسمع جميع الأقوال والأصوات؛ كما قالت عائشة رضي الله عنها: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ تكلمه، وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١] إلى آخر الآية»^(٢).

و«السميع»: الذي يستجيب الدعاء؛ كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، أي: مستجيب الدعاء، واستجابته تستلزم سماعه بلا شك، وكما

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٥٩٧.

(٢) سبق تحريجه.

في قول المصلي: «سمع الله لمن حمده»، أي: استجاب، فهو عز وجل السميع الذي يسمع جميع الأصوات، ويحيب الدعوات.

﴿الْبَصِيرُ﴾ من أسماؤه عز وجل، أي: الذي يرى ويدرك ببصره جميع المخلوقات؛ كما قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أي: يحيط بها ويراها.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١)، أي: لأحرقت سبحات وجهه - يعني: بهاءه وعظمته - كل شيء؛ لأن بصره ينتهي إلى كل شيء.

ومن معاني «البصير»: «العليم»؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، أي: عليم بهم، مطلع عليهم، وقوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحجرات: ١٨]، أي: بصير بجميع الذي تعملونه مما يرى، ومما لا يرى، بل يعلم كل أعمال القلوب.

﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: له وحده أزمة الأمور في السموات والأرض، ويده تديرهما ومفاتيح خزائنها؛ كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

﴿يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، أي: يوسع العطاء للذي يشاءه من عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾، أي: ويضيقه على من يشاء بحكمته وعدله؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٦٢].

فيعلم سبحانه أحوال عباده، فيعطي كلًّا منهم ما يليق بحكمته وما تقتضيه مشيئته؛ ليظهر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن لا يصبر؛ كما جاء في الأثر: «من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى، فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا

(١) سبق تخريجه.

يصلحه إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه»^(١).

﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾: تعليل لبسطه الرزق لمن يشاء، وتضييقه على من يشاء، وذلك لعلمه بكل شيء، وبأحوال عباده، واللائق بكل منهم من بسط الرزق أو تضييقه، وهو سبحانه الحكيم العليم.

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾﴾.

قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ الخطاب للنبي ﷺ وأمه.
أي: شرع لكم من الدين الذي وصى به نوحًا عليه السلام، أول الرسل عليهم السلام.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالتَّيِّبِينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] من الدين والشرع. والوصية: العهد بأمر هام.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ الواو: عاطفة، والموصول في محل نصب عطفًا على «ما»، أي: وشرع لكم الذي أوحينا إليك، وهو القرآن الكريم والسنة، وما اشتملا عليه من الشرع.

﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ «ما» في محل نصب عطفًا على «ما» في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾، أي: وشرع لكم الذي وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى.

وهؤلاء الرسل الخمسة هم أولو العزم من الرسل، فذكر أولهم وهو نوح عليه السلام، ثم ذكر آخرهم وهو محمد ﷺ، ثم ذكر ما بين ذلك وهم: إبراهيم وموسى

(١) سبق تخرجه.

وعيسى عليهم السلام؛ كما ذكرهم في سورة الأحزاب في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].
وأفضلهم محمد ﷺ، ثم إبراهيم، ثم موسى عليهما السلام، واختلف في نوح وعيسى عليهما السلام: أيهما أفضل؟

﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ «أن» والفعل «أقيموا» في تأويل مصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هو، أي: هو إقامة الدين، أو في محل جر بحرف محذوف، أي: بإقامة الدين، أو في محل نصب بدل من الموصول في قوله: ﴿مَا وَصَّيْنَا﴾ وما عطف عليه. ويجوز كون «أن» تفسيرية.

ومعنى «أقيموا الدين»: اتتوا به مستقيماً كما شرعه الله بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وطاعته بفعل ما أمركم الله به، واجتناب ما نهاكم عنه؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء أولاد علات، ديننا واحد»^(١)، أي: ديننا واحد وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له وطاعته، وإن اختلفت الشرائع والمناهج؛ كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

قال السعدي^(٢): «هذه أكبر منة أنعم الله بها على عباده: أن شرع لهم من الدين خير الأديان وأفضلها وأزكاها وأطهرها دين الإسلام، الذي شرعه الله للمصطفين المختارين من عباده، فلولا الدين الإسلامي ما ارتفع أحد من الخلق، فهو روح السعادة، وقطب رحى الكمال، وهو ما تضمنه هذا الكتاب الكريم، ودعا إليه من التوحيد والأعمال والأخلاق والآداب».

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٦ / ٥٩٩.

﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾، أي: ولا تنفروا في الدين، فتكونوا شيعاً وأحزاباً؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾، أي: عظم واشتد عليهم غاية الشدة الذي تدعوهم إليه من عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، والإيمان بالبعث، والإيمان بالغيب، وأنكروا ذلك أشد الإنكار؛ كما قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [٥] وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا وَأَصْبَرُوا عَلَى الْهَيْكَةِ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا خَيْلَانٌ ﴿٧﴾ [ص: ٥، ٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَى رَجُلٍ يَبْتَغِيكُمْ إِذَا مَرَّكُمْ كُلُّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَعِىَ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [٧] أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ﴿٨﴾ [سبأ: ٧، ٨]، وقال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾ [ق: ٢، ٣].

﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾، أي: يختار ويصطفى إلى نفسه، وإلى توحيده ودينه؛ كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَحَبُّكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: الذي يشاؤه عز وجل من عباده؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يُجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾، أي: ويوفق إليه عز وجل، وإلى دينه ﴿مَنْ يُنِيبُ﴾، أي: الذي ينيب ويرجع إليه، ويستقيم على طاعته؛ كما قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة: ١٦].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها» الحديث (١).

وقال عز وجل أيضًا في الحديث القدسي: «من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إلي ذراعًا تقربت إليه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة» (٢).

﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ «إلا»: أداة حصر، و«ما» في قوله: ﴿بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ﴾: مصدرية، أي: من بعد مجيء العلم إليهم، أي: وما تفرق أهل الكتاب وغيرهم من الأمم، فأمن بعضهم بوحداية الله، وكفر بعضهم، إلا من بعد مجيء العلم إليهم على السنة الرسل، وقيام الحجة عليهم، الموجبة للاجتماع والاتلاف، لا التفرق والاختلاف؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ٤].

﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ «بغيًا»: مفعول لأجله، أي: بسبب البغي بينهم، والعدوان من بعضهم على بعض، والتباغض والتحاسد والمشاحنة، والعناد والمشاقة. وفي هذا تحذير للمسلمين من أن يختلفوا كما اختلف أهل الكتاب وكتاب الله وسنة رسوله ﷺ بين أظهرهم؛ بسبب اختلاف المذاهب والآراء واتباع الأهواء، وعدم التحاكم إلى الكتاب والسنة، كما هو حالهم اليوم، وصدق المصطفى ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه». قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن» (٣).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الواو: عاطفة في الموضوعين،

(١) سبق تخرجه.

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ ٧٤٠٥، ومسلم في الذكر والدعاء، الحث على ذكر الله تعالى ٢٦٧٥، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٤٥٦، ومسلم في العلم ٢٦٦٩، من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

و«لولا»: شرطية غير عاملة، والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له، أي: ولولا كلمة سبقت من ربك بإنظار الخلائق، وتأخير الحساب والجزاء ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معين وهو يوم القيامة.

﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ اللام: واقعة في جواب «لولا»، أي: لفصل وحكم بينهم في الدنيا، بإهلاك المشركين المكذبين، وإنجاء المؤمنين الموحدين.

﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾، أي: القرآن، ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد الذين تفرقوا من أهل الكتاب وغيرهم، ﴿لَفِي شَكٍّ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لفي شك شديد ﴿مِنْهُ﴾، أي: من القرآن ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة والقلق؛ لشدته.

وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، أي: ﴿وَلِإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾، أي: التوراة والإنجيل من اليهود والنصارى ﴿مِنْ بَعْدِهِمْ﴾، أي: من بعد أسلافهم، أي: الذين خلفوهم في الكتاب.

﴿لَفِي شَكٍّ مِنْهُ﴾، أي: من كتابهم، ﴿مُرِيبٍ﴾ موقع في الريبة الشديدة والاختلاف، فكما اختلف سلفهم فيه بغياً وعدواناً، اختلف خلفهم فيه شكاً وارتياباً.

وقيل: لفي شك من الرسول ﷺ، أو القرآن.

والأظهر أن المراد بالكتاب: القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادَعُٓ وَاَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ وَلَا تَبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾.

قوله: ﴿فَلِذَلِكَ﴾ الإشارة إلى المفهوم من قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ﴾، أي: إلى إقامة الدين وعدم التفرق فيه، والخطاب للنبي ﷺ.

أي: فلا إقامة الدين، وعدم التفرق فيه، يا محمد ﴿فَادَعُٓ﴾ أمتك.

﴿وَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتُ﴾، أي: واستقم بنفسك على ذلك الدين؛ كما أمرناك، أي: استقم استقامة موافقة لأمر الله لك أنت ومن اتبعك؛ كما قال تعالى في سورة هود: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢] فأمره أن يستقيم بنفسه، وأن يدعو

غيره للاستقامة على ذلك.

﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾، أي: ولا تتبع أهواء المكذبين والكفار، فيما يطلبون منك من الميل عن طريق الاستقامة؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

﴿وَقُلْ﴾ لأهل الكتاب وغيرهم: ﴿ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ﴾، أي: صدقت بجميع الذي أنزل الله من الكتب على الأنبياء؛ كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَكَاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران: ٨٤].

وقال تعالى: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [البقرة: ١٣٦].

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾، أي: وأمرت بما أمرت به من الشرع والحق؛ لأجل أن أعدل بينكم، أو: وأمرت بأن أعدل بينكم في الحكم فيما اختلفتم فيه.

﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، أي: الله ربنا جميعاً، نحن وإياكم، ورب الخلائق كلهم، وذلك يوجب علينا وعليكم عبادته وحده، لا شريك له.

﴿لَنَا أَعْمَلُنَا﴾ نحاسب ونجازى عليها، ﴿وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾ تحاسبون وتجازون عليها، وكل منا بريء من عمل الآخر؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [يونس: ٤١].

﴿لَا حِجَةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾، أي: لا خصومة ولا جدال بيننا بعد أن تبين الحق من

الباطل، والهدى من الضلال، وكابرتهم وعاندتم، أي: أن الجدال معكم ليس بذي جدوى، ولا فائدة، بعد ردكم الحق بعد ظهوره.

﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾، أي: يوم القيامة، يفصل بيننا ويجازي كلًّا بعمله؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿٣٦﴾ [سبأ: ٢٦].

﴿وَالِيَهُ الْمَصِيرُ﴾، أي: وإليه وحده المرجع والمآل في جميع الأمور والأحوال، وإليه الإياب، وعليه الحساب؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٣٦﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحَابُّونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ، مَجْنُومٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ ﴿١٦﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَحَابُّونَ فِي اللَّهِ﴾، أي: يجادلون ويخاصمون في الله، في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، وفي دينه وشرعه، وقدره، وغير ذلك.

﴿مِنْ بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ﴾ «ما»: مصدرية، أي: من بعد استجابة المؤمنين له، ودخولهم في دين الله، لما تبين لهم بالآيات البينات أنه الحق.

﴿مَجْنُومٌ دَاحِضَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: باطلة أشد البطلان، زاهقة زائلة ذاهبة عند ربهم؛ لأن الحق أبلج، وهو أبين من الشمس في رابعة النهار، والباطل لجلج، حالك كالليل؛ ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

وكما قال المتنبي لما عاتبه صديق له قد وُشي إليه أنه قد هجاه، قال (١):

وهبني قلت: هذا الصبح ليل أعمى العالمون عن الضياء؟

﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ من الله، ومن أوليائه؛ من رسله وأنبيائه، وعباده المؤمنين. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، أي: قوي في الدنيا والآخرة، بسبب محاجتهم بالباطل،

(١) انظر: «ديوان المتنبي» ص ٢.

و غضب الله عليهم؛ كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ اَجْمَعِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٥].

﴿ اللهُ الَّذِي اَنْزَلَ الْكِتَابَ ﴾ «ال»: للجنس، أي: الذي نزل الكتب السماوية ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ الباء: للملابسة والمصاحبة، أي: أنها نزلت ملابسة ومصاحبة للحق، أي: نزلت حقاً من عند الله، وجاءت مشتملة على الحق.

﴿ وَالْمِيزَانَ ﴾، أي: العدل؛ كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ اَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَاَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ اَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَاَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ [الرحمن: ٧-٩].

﴿ وَمَا يَدْرِيكَ ﴾، أي: وما يعلمك أيها المخاطب، ﴿ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾، أي: قريبة، قال بعض أهل العلم: ولم يقل: «قريبة»؛ لأن «قريب» يستوي فيه المذكر والمؤنث، قال تعالى: ﴿ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ اِنْ رَحِمْتَ اللهُ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٦].

ويحتمل أن التقدير: لعل إتيان الساعة وقيامها قريب. وفي هذا تحذير للمستعجلين بقيام الساعة المنكرين لها. وهي قريبة حقاً؛ لأن كل آت قريب، وكل من مات قامت ساعته وقيامته، والدنيا قليل بالنسبة للأخرة؛ كما قال تعالى: ﴿ فَمَا مَتَّعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فِي الْاٰخِرَةِ اِلَّا قَلِيْلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا فِي الْاٰخِرَةِ اِلَّا مَتَّعٌ ﴾ [الرعد: ٢٦].

ولهذا قال تعالى: ﴿ كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرُوْنَهَا لَوْبَتُوْا اِلَّا عَشِيَّةً اَوْ صُحْحًا ﴾ [النازعات: ٤٦].

﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ﴾، أي: يطلب تعجيل قيامها، قائلين: متى الساعة؟ أيان مرساها؟ استبطاءً وإنكاراً لها؛ كما قال تعالى: ﴿ يَسْئَلُوْنَكَ عَنِ السَّاعَةِ اَيَّانَ مَرْسِنَهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، [النازعات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ اِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٦٣].

﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾، أي: الذين لا يصدقون بها، بل يكذبون بها وينكرونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٤٨﴾ [يونس: ٤٨، الأنبياء: ٣٨، النمل: ٧١، سبأ: ٢٩، يس: ٤٨، الملك: ٢٥].

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾، أي: الذين آمنوا بالله وبما أوجب الإيمان به، من أركان الإيمان الستة وغيرها؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»^(١).

﴿مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ الإشفاق: أشد الخوف، أي: خائفون منها خوفاً شديداً، وجلون من وقوعها مع استعدادهم لها. فهم بين الخوف والرجاء؛ لمعرفتهم برهم، وأنه لا ينجو في ذلك اليوم أحد بعمله، ولكن برحمة أرحم الراحمين، وفضله. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ الثابت الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه، وأنها كائنة لا محالة؛ ولهذا استعدوا لها.

﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، أي: ألا إن الذين يجادلون ويحاجون في الساعة، في قيامها ووقوعها؛ إنكاراً واستبعاداً لها، وتكذيباً بها.

﴿لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لفي ضلال بعيد كل البعد عن الحق والهدى، وفي جهل مطبق؛ إذ كيف يمارون فيها وقد أخبر الله عز وجل في كتابه عن قيامها ووقوعها، وتمام قدرته عز وجل على ذلك؟ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

الفوائد والأحكام:

١- الإنكار على المشركين الذين جعلوا من دون الله آلهة يوالونهم ويعبدونهم؛

(١) سبق تخريجه.

لقوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾.

- ٢- أن الولي الحق هو الله تعالى وحده، فهو ولي جميع الخلق ولاية عامة، وهو ولي المؤمنين ولاية خاصة، وهو المستحق للعبادة وحده؛ لقوله تعالى: ﴿فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾.
- ٣- إثبات قدرة الله التامة على إحياء الموتى، وعلى كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

٤- وجوب رد ما اختلف فيه من شيء إلى حكم الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾.

- ٥- أن الاختلاف أمر كائن بين الناس قدرًا؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿هود: ١١٨، ١١٩﴾.
- ٦- أن إجماع الأمة حجة قاطعة؛ لأن الله تعالى لم يأمرنا أن نرد إليه إلا ما اختلفنا فيه.

- ٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷻ، وتعظيمه ﷻ لربه، وتوكله عليه، وإنابته إليه، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾.
- ٨- وجوب الإقرار بربوبية الله تعالى، والتوكل عليه، والإنابة إليه وحده، أسوة به ﷻ.

٩- إثبات عظمة الله تعالى، وكمال قدرته، الذي فطر السموات والأرض وأبدعها على غير مثال سبق؛ لقوله تعالى: ﴿فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.

- ١٠- الامتنان على العباد، وبيان تمام قدرته عز وجل، وحكمته بجعله لهم من جنسهم أزواجًا؛ ليسكن بعضهم إلى بعض، ويحصل التناسل بينهم وتكثيرهم؛ لقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ﴾.

١١- نعمة الله تعالى على العباد؛ حيث جعل لهم من الأنعام أزواجًا، تتوالد وتتكاثر، يأكلون لحومها، ويشربون ألبانها، ويركبون ما يركب منها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾.

- ١٢- إثبات كماله عز وجل في ذاته وأسمائه وصفاته، وأنه لا مثل له ولا ند ولا عديل؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.
- وفي هذا دلالة لمذهب أهل السنة والجماعة في نفي مماثلة المخلوقات له عز وجل، ورد على المشبهة.
- ١٣- إثبات اسميه عز وجل: «السميع» و«البصير»، وأنه السميع الذي يجيب الدعاء، ويسمع جميع الأقوال والأصوات، وذو البصر الذي يبصر ويرى ويحيط علماً وبصراً بجميع المخلوقات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.
- وفي هذا دلالة على إثبات الصفات له عز وجل؛ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة، والرد على الجهمية المعطلة.
- ١٤- أن الله عز وجل وحده مقاليد السموات والأرض، وأزمة تدبيرها ومفاتيح خزائنها بيده؛ لقوله تعالى: ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾.
- ١٥- تفرده عز وجل بأرزاق الخلق كلهم، يسط الرزق ويوسعه لمن يشاء من عباده، ويضيقه على من يشاء بعلمه وحكمته وعدله ومشيئته؛ لقوله تعالى: ﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾.
- ١٦- إثبات المشيئة لله تعالى وهي الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾.
- ١٧- أن تقسيم الله عز وجل للأرزاق بين العباد وفق مشيئته وحكمته، وليس مقروناً بمحبته، فييسط الرزق لمن يحب، ولمن لا يحب، ويضيقه على من يحب، وعلى من لا يحب.
- ١٨- سعة علم الله تعالى وإحاطته بكل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.
- ١٩- أن الدين هو ما شرعه الله تعالى وحده؛ لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا أَنْكَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ؛ فَقَالَ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١].
- ٢٠- أن دين الأنبياء عليهم السلام واحد، من أولهم نوح عليه السلام، إلى خاتمهم

محمد ﷺ، ووصية الله لهم جميعاً بإقامة الدين؛ بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وعدم التفرق فيه؛ لقوله تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾.

٢١- أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ووحيه، أوحاه إلى النبي ﷺ.

٢٢- إثبات رسالة نوح عليه السلام أول الرسل، وأحد أولي العزم، ورسالة محمد ﷺ خاتمهم، وأفضل أولي العزم، وتشريفه بخطاب الله تعالى له، وإثبات رسالة إبراهيم عليه السلام ثاني أولي العزم، ورسالة موسى عليه السلام ثالثهم، ورسالة عيسى عليه السلام آخر الرسل قبل محمد ﷺ، وأحد أولي العزم.

٢٣- وجوب إقامة الدين؛ كما شرع الله، والحذر كل الحذر من التفرق فيه.

٢٤- خطر التفرق في الدين؛ لهذا نهى الله عنه الرسل وأممهم، وحذرهم منه، فما هلك كثير من الأمم إلا بسبب تفرقهم في الدين، وعدم إقامتهم له كما شرعه الله تعالى؛ فمنهم من غلا في الدين، وتجاوز ما حده الله، فأهوا الرسل والأولياء، وعبدوهم من دون الله، فاليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، والرافضة غلوا في آل البيت وعبدوهم من دون الله، والمشركون عبدوا أصحاب القبور، وزعموا أنهم يقربونهم إلى الله، والخوارج أخرجوا أصحاب الكبائر من الملة، واستحلوا- هم والرافضة أخزاهم الله- دماء المسلمين، إلى غير ذلك من الفرق التي هي أبعد ما يكون عن الدين، كل ذلك بسبب الغلو والاختلاف.

وقد قال ﷺ: «إياكم والغلو في الدين، فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»^(١).

وقال: «إنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم»^(٢).

وأعظم من هذا كله وأشد: ما وقع من الاختلاف والتفرق بين المنتسبين إلى أهل السنة والجماعة، والذين يُعدُّون هم البقية الباقية، فما أصاب الأمة الإسلامية ما أصابها

(١) أخرجه النسائي في المناسك، باب: التقاط الحصا ٣٠٥٧، وابن ماجه في المناسك، قدر حصا الرمي

٣٠٢٩، وأحمد ١/ ٢١٥؛ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سبق تخريجه.

من الضعف والذل والهوان، وتسلب الأعداء من الرافضة ومن خلفهم، إلا بعد أن تفرق أهل السنة شيعاً وأحزاباً وجماعات، يکید بعضها لبعض على حساب الإسلام، حتى إن منهم من مالاً الرافضة، وهم أشد أعداء الإسلام والمسلمين اليوم، طعنوا في ربوبية الله، فادعوا أن تدبير الكون لآل البيت، واتهموا جبريل عليه السلام بالخيانة لإعطائه الرسالة لمحمد وقد كانت لعلي - كما يزعمون - وكذبوا القرآن، وقالوا: إنه محرّف، واتهموا النبي ﷺ بالتقصير والعجز عن أداء الرسالة، وحكموا على الصحابة بالكفر والردة، وأخذوا يلعنونهم، واتهموا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالفاحشة، وقتلوا وحدهم من المسلمين ما لم يقتله جميع أعداء الإسلام غيرهم، وبأشنع القتلات، فمن والاهم فهو محارب لله ولرسوله وللمؤمنين.

٢٥- إنكار المشركين ما يدعوههم إليه ﷺ من توحيد الله تعالى، ومشقة ذلك عليهم غاية المشقة؛ لقوله تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

٢٦- اصطفاء الله تعالى لنفسه ولدينه وتوحيده من يشاء من عباده، وهدايته وتوفيقه إليه من ينب منهم؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

٢٧- إثبات القدر، وأن من شاء الله هدايته هداه، ومن شاء أضله، وفي هذا رد على القدرية.

٢٨- الترغيب والحث على الإنابة إلى الله تعالى.

٢٩- أن من التمس طريق الهداية، وأتاب إلى الله تعالى، وقصد وجهه، وحسن قصده، واجتهد في ذلك هداه الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾.

كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيَرَهُ لِلْيُسْرَى ﴿٧﴾﴾ [الليل:

. [٧-٥]

وفي هذا رد على الجبرية.

٣٠- ذم المكذبين من أهل الكتاب وغيرهم، وأنهم لم يتفرقوا ويختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم على السنة الرسل، وقامت الحجة عليهم؛ بغياً بينهم، وعدواناً منهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيّاً بَيْنَهُمْ﴾.

- ٣١- أن من حُرِمَ التوفيق لا ينفعه ما أوتيهِ من العلم، فلا يغتر بعلمه، فكم من شخص غير متعلم يفوق كثيرًا ممن ينتسبون إلى العلم في زهده واستقامته ودينه.
- ٣٢- استحقاقهم للعذاب العاجل، وتوعددهم وتهديدهم بالعذاب الآجل يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.
- ٣٣- إثبات القيامة والحساب والجزاء على الأعمال، وأن لذلك أجلًا لا ريب فيه؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالِيهِ الْمَصِيرُ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.
- ٣٤- إثبات كلام الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾.
- ٣٥- إثبات تقدير الآجال، وأن الله جعل لكل أجل كتابًا.
- ٣٦- شك الذين أورثوا الكتاب من بعد الذين تفرقوا من أهل الكتاب وغيرهم في القرآن، شكًا عظيمًا موقعًا في الريبة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾.
- ٣٧- أمر الله عز وجل له ﷺ بالدعوة إلى الدين القويم الذي شرعه له، والاستقامة كما أمره تعالى، وهو أمر له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾.
- ٣٨- نهي الله عز وجل له ﷺ عن اتباع أهواء أهل الكتاب، وهو نهي له ولأمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾.
- ٣٩- أنه ﷺ ليس له من الأمر شيء، وإنما هو مبلغ عن الله تعالى، يؤمر ويُنهى؛ لقوله تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ الآية. وفي هذا رد على من يرفعونه إلى مقام الربوبية والألوهية.
- ٤٠- أمره بإعلان إيمانه بجميع ما أنزل الله من الكتب؛ لأن القرآن مصدق لها جميعًا، ومهيمن عليها، والإيمان بها واجب عليه وعلى أمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾.

- ٤١- إثبات أن الكتب السماوية كلها منزلة من عند الله وكلامه، وغير مخلوقة؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ﴾.
- ٤٢- إثبات علو الله تعالى على خلقه بذاته وصفاته؛ لأن الإنزال لا يكون إلا من أعلى.
- ٤٣- أمره عز وجل له ﷺ بالعدل بين أهل الكتاب وغيرهم، فلا تحمله عداوة من عاداه ومخالفتهم له على ترك العدل بينهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾.
- ٤٤- تقريرهم بربوبية الله تعالى له ولهم ولجميع الخلائق، فلا رب غيره؛ لقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، ومن لازم هذا أن يعبده الجميع وحده، دون سواه.
- ٤٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة به ﷺ وبالمؤمنين، وربوبيته العامة لجميع الخلق؛ لقوله: ﴿اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.
- ٤٦- أن لكل عمل له من خير أو شر، وجزاءه؛ لقوله: ﴿لَنَّا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ﴾.
- ٤٧- لا جدوى ولا فائدة من الجدال مع من تبين له الحق من الباطل، والهدى من الضلال، وكابر وعاند؛ لقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾.
- ٤٨- إثبات جمعه عز وجل بين الخلائق يوم القيامة، والمصير إليه، وفي هذا تهديد للمكذبين له ﷺ؛ لقوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.
- ٤٩- بطلان جميع حجج المجادلين في الله وفي دينه، بعد ظهور الحق، واستجابة الناس له، ودخولهم في دين الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّوكَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا اسْتَجِيبَ لَهُمْ فَاجْهَرُ لَهُمْ فَجَاحِظَةً عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وكما قال عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشْعَرَ نُورُهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].
- ٥٠- غضب الله عليهم، وتهديدهم بالعذاب الشديد؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، وفي هذا تحذير من المجادلة في دين الله بالباطل.
- ٥١- إثبات صفة الغضب لله عز وجل على ما يليق بجلاله، وهي من الصفات الفعلية الاختيارية؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾.

٥٢- أن من غضب الله عليه عذبه؛ كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اُنْقَمْنَا مَنَّهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

٥٣- تعظيمه عز وجل لنفسه، وثناؤه عليها، بإنزاله كتبه بالحق، وشرعه بالعدل؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾.

٥٤- التهديد بقرب قيام الساعة، والتخويف للمستعجلين بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾.

٥٥- أنه ﷺ لا يعلم متى قيام الساعة.

٥٦- استعجال المكذبين بالساعة؛ استبعاداً وإنكاراً لها؛ لقوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾.

٥٧- إشفاق المؤمنين وخوفهم منها؛ لعلمهم أنها الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾.

٥٨- أن المؤمن مهما عمل فهو بين الخوف والرجاء، يرجو ثواب الله، ويخاف عقابه، ويعلم أنه لن يدخل أحد الجنة بعمله، وإنما برحمة أرحم الراحمين وفضله.

٥٩- إغراق المجادلين في الساعة ووقوعها- تكذيباً بها وإنكاراً لها- في الضلال، والبعد عن الحق؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يِمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾.

* * *

قال الله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ١٩ ﴾
 مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا
 نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ٢٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ
 مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ
 الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا
 وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ
 مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٢٢ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ
 عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ
 وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ٢٣ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَىٰ
 اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشِئِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ وَبَدَعَ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ
 عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ٢٤ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ
 وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ٢٥ وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ
 فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٢٦ ﴾

قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ١٩ ﴾ مَنْ كَانَ
 يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ
 مِنْ نَصِيبٍ ٢٠ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذُنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
 الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٢١ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا
 كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ
 مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ٢٢ ﴾

قوله: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ ﴾، أي: ذو لطف عظيم بعباده، يدرك أسرار الأمور
 وحكمها الدقيقة، ويحسن إلى عباده ويسر لهم، ويرفق بهم، ويوصل لهم الخير من حيث
 لا يحتسبون، ولا يخطر ببالهم.

قال ابن القيم:

وهو اللطيف بعبده ولعبده واللطف في أوصافه نوعان

إدراك أسرار الأمور بحكمة واللفظ عند مواقع الإحسان^(١)
﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: يعطي الذي يشاء من عباده الرزق، ويوسع عليهم بحكمته ولطفه.

﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ﴾، أي: شديد القوة؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينِ﴾ [الذاريات: ٥٨]، أي: الشديد القوة، الذي لا حول ولا قوة إلا به.
﴿الْعَزِيزُ﴾، أي: ذو العزة التامة: عزة القهر والغلبة، وعزة الامتناع.
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾، أي: من كان يريد بعمله ﴿حَرْثَ الْآخِرَةِ﴾، أي: أجرها وثوابها، بالسعي لها.

﴿نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ﴾، أي: في عمله وثوابه، فنوفقه لزيادة العمل الصالح، بإتباع الحسنة الحسنة بعدها، ونوته نصيبه من الدنيا وافيًا، ونضاعف له أجر الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أضعافًا كثيرةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصِطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، وإن الله يتقبلها بيمينه، ثم يربها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل»^(٢).

﴿وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا﴾، أي: من كان يريد بسعيه وعمله ﴿حَرْثَ الدُّنْيَا﴾،

(١) النونية ص ١٤٩.

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٠، ومسلم في الزكاة ١٠١٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٥، والترمذي في الزكاة ٦٦١، وابن ماجه في الزكاة ١٨٤٢.

أي: نفعها العاجل، والتنعم فيها، وكانت غاية همه، ومبلغ علمه، وسعى لها وحدها، وليس له أي همة في الآخرة.

﴿تَوْتِيهِ مِنهَا﴾، أي: نعطه من الدنيا ما قُسم له، لا كل ما أراد؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨].

﴿وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى؛ لعموم النفي، أي: وما له في الآخرة أي نصيب - أي: من الأجر والثواب، قد حرم الجنة ونعيمها، واستحق النار وجحيمها؛ كما قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصَلِّيْنَهَا مَدْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الإسراء: ١٨].

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «بشر هذه الأمة بالسنة والرفعة، والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب»^(١).

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ «أم»: هي المنقطعة التي بمعنى «بل»، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل ألهم شركاء من شياطين الجن، ومن شياطين الإنس، من دعاة الكفر والضلال؟

﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ﴾، أي: شرعوا لهم من الشرك والبدع، وتحريم الحلال، وتحليل الحرام.

﴿مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ شرعاً، بل حرمه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا

(١) سبق تخرجه.

﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ [الحج: ٧١].

وقال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَذَّهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله ﷺ، قال: «رأيت عمرو بن عامر بن لحي الخزاعي يجر قُصبه^(١) في النار، وكان أول من سيب السوائب»^(٢).

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ أَفْضَلِ﴾، أي: القضاء السابق بتأجيل الحساب والجزاء والفصل إلى يوم القيامة.

﴿لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ وبين المؤمنين بتعجيل عقابهم في الدنيا؛ لاستحقاقهم لذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ١٩، هود: ١١٠، فصلت: ٤٥].

﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ بالشرك والكفر والمعاصي ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: مؤلم موجع حسيًّا للأبدان، ومعنويًّا للقلوب، في نار جهنم.

﴿تَرَى الظَّالِمِينَ﴾ الخطاب لغير معين، أي: ترى الظالمين في عرصات القيامة ﴿مُشْفِقِينَ﴾، أي: خائفين أشد الخوف.

﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾، أي: من كسبهم، أو من الذي كسبه من الظلم والشرك والكفر، أن يجازوا عليه، ويعذبوا به.

﴿وَهُوَ﴾، أي: والذي يخافون منه وهو مجازاتهم على كسبهم، ﴿وَأَقْعُبُهُمْ﴾ لا محالة في ذلك اليوم؛ لانعقاد أسبابه.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

لما ذكر حال الظالمين، وشدة خوفهم من سوء عملهم، وتوعدهم، ذكر حسن حال المؤمنين وما هم فيه من النعيم؛ جمعًا بين الترغيب والترهيب.

(١) أي: أمعاءه.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٥٢١، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٥٦.

أي: والذين آمنوا بقلوبهم وعملوا الأعمال الصالحة، الخالصة لله تعالى، الموافقة لشرعه بجوارحهم.

﴿فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾، «روضات»: جمع «روضة»، وهي الأراضي والغياض الخصب، التي تندفق إليها السيول من المرتفعات والجبال، وتجتمع فيها، فترتوي، فتنبت أنواع النباتات والأشجار المختلفة المثمرة، ذات الخضرة والألوان الجميلة، والزهور المتفتحة والمناظر، وشتان بين هذا وبين ﴿رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ﴾ التي يكفيها إضافتها إلى الجنات، فلا تسأل عما فيها من بهجة الرياض المونقة، والأنهار المتدفقة، والنبات والأشجار المثمرة، والمناظر الخلابة، والطيور المغردة، والأصوات الشجية المطربة، وغير ذلك.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾، أي: لهم الذي يشاؤون من ألوان النعيم، من المأكول والمشرب والملابس والمسكن والمراكب، والمناجح والمناظر، وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الزخرف: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [فصلت: ٣١، ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»^(١).
﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، أي: من ربهم وعنده، فأعظم بهذا النعيم، وأكرم به. نسأل الله الكريم من فضله.

﴿ذَلِكَ﴾ الإشارة لما أعد للذين آمنوا وعملوا الصالحات من حسن المقام في روضات الجنات، وإعطائهم ما يشاؤون من النعيم عند ربهم.
﴿الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ الذي لا أكبر منه ولا أعظم، ولا أتم ولا أكمل؛ لأن الذي منحه لهم ووصفه بذلك هو ذو الفضل الكبير.

(١) سبق تخرجه.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾﴾ أم يقولون افتري على الله كذبًا فإن يشأ الله يخترم على قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ﴾، قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحزمة والكسائي: «يُبَشِّرُ» بفتح الياء، وسكون الباء، وضم الشين مخففة، وقرأ الباقون بضم الياء، وفتح الباء، وتشديد الشين مكسورة: «يُبَشِّرُ».

والإشارة لقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، أي: ذلك الفضل الكبير الذي يبشر الله به عباده ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، أي: حاصل وكائن لهم لا محالة. ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾، أي: قل يا محمد لمشركي قريش: لا أسألكم على تبليغي إياكم رسالة ربكم ونصحي لكم ﴿أَجْرًا﴾، أي: أجرًا دنيويًا من مال أو غيره.

﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ «إلا»: أداة استثناء بمعنى «لكن»، أي: لكن أسألكم المودة في القربى، أي: ألا تؤذوني، وأن تدعوني أبلغ رسالة ربي؛ لما بيني وبينكم من القرابة، أي: إن لم تنصروني، فلا تؤذوني لقرايتي منكم.

﴿وَمَن يَقَرِّفْ حَسَنَةً نَّزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: ومن يكتسب عملاً صالحًا وطاعة؛ من صلاة وزكاة، وصيام وحج، وبر بالوالدين، وصدقة، وغير ذلك.

﴿نَزَدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، أي: نوقهه لكسب الحسنه بعدها؛ كما قال بعض السلف: «من ثواب الحسنه الحسنه بعدها، ومن عقاب السيئه السيئه بعدها» (١).

وأيضًا: نزل له فيها حُسْنًا بمضاعفة أجرها وثوابها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكَ حَسَنَةً يُّضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [النساء: ٤٠].

﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾، أي: ذو مغفرة واسعة، يغفر ذنوب التائبين كلها بسترها والتجاوز

(١) ذكره ابن تيمية، ونسبه لسعيد بن جبیر. انظر: «مجموع الفتاوى» ١٠/١١. وانظر: «طريق الهجرتين» ص ٢٧٣، «شعب الإیمان» ٩/ ٣٨٤ (٦٨٢٩).

عنها، ويغفر ما دون الشرك لمن شاء من عباده.

﴿شَاكُورٌ﴾ يعطي الأجر الجزيل على العمل القليل.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ «أم»: هي المنقطة بمعنى «بل»، التي للإضراب الانتقالي، وهمزة الاستفهام الإنكاري، أي: بل يقول هؤلاء المشركون المكذبون: افترى محمد، أي: اختلق على الله كذبًا، أي: كذب على الله بقوله: إن القرآن كلام الله؟ أي: فليس القرآن كلام الله، وإنما هو مفترٍ كاذب.

﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ﴾، أي: يطبع على قلبك، وينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي؛ كما قال قتادة: «إن يشأ الله ينسك القرآن، ويقطع عنك الوحي»^(١).

يعني: لو افترت على الله كذبًا، وهذا على سبيل الفرض والتقدير؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَقُولُ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَابِيلِ﴾^(٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ^(٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ^(٤٦) فَمَا يَنْكُرُ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَنِيزِينَ^(٤٧) [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وقال مجاهد: «إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتى لا يشق عليك». ذكر هذا ابن القيم، ورجحه من وجوه^(٢). والأظهر القول الأول.

﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾، أي: يزهقه، ويمحقه، ويزيله، ويذهبه.

﴿وَيُحْيِ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾، أي: ويثبت الحق ويبينه، ويظهره ويوضحه، بكلماته الكونية التي لا تتبدل ولا تتغير؛ كما قال تعالى: ﴿لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥، الكهف: ٢٧]، وبكلماته الشرعية الدينية، الدالة على الحق، التي أوحى الله بها إلى نبيه ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ أَيْدِيَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢].

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ الجملة تعليلية، أي: ذو علم واسع تام بما تكنه الصدور والقلوب والسرائر، من المضمرات والأسرار.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا فَعَلْتُمْ﴾^(٢٥)

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٥٠٤.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ١١٦.

وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٣٦﴾
 قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾، أي: يقبل توبتهم بعد أن وفقهم إليها،
 ويستر ذنوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [التوبة: ١٠٤].
 عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الله أشد فرحًا بتوبة
 عبده حين يتوب من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه
 وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينما هو
 كذلك إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي
 وأنا ربك. أخطأ من شدة الفرح»^(١).

﴿وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾، أي: يمحوها ويتجاوز عنها، فلا يعاقب عليها؛ كما قال
 تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾
 [النساء: ١١٠].

والسيئات: جمع «سيئة»، وهي: كل ما خالف الشرع، من ترك واجب، أو ارتكاب
 محرم.

﴿وَيَعْلَمُ مَا نَفَعَلُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وحفص بالخطاب، على
 الالتفات: ﴿نَفَعَلُونَ﴾، وقرأ الباقون بالغيبة: ﴿يُفَعَلُونَ﴾.
 أي: ويعلم فعلكم، أو: الذي تفعلونه من الأفعال والأقوال الظاهرة والباطنة،
 خيرها وشرها.

﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الواو: عاطفة، والسين والتاء للمبالغة،
 و«يستجيب» أبلغ من «يجيب»؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.
 أي: يستجيب دعاء الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الأعمال الصالحات، الخالصة لله،
 الموافقة لشرعه، بجوارحهم، فيعطيهم ما يسألون؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ
 أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِّنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥].

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٤٧، وأخرجه البخاري مختصرًا في الدعوات ٦٣٠٩.

﴿وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فيعطيهم فوق ما يسألون وأضعافه، الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ مما لم يستحقوه بأعمالهم، وما لم يخطر ببالهم؛ من الأجر الجزيل، والثواب العظيم، فضلاً منه وجوداً وكرماً.

﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لما ذكر ما أعد للمؤمنين من الاستجابة والزيادة والفضل، ذكر ما للكافرين من العذاب الشديد.

أي: لهم عذاب قوي مؤلم موجه حسياً للأبدان، ومعنوياً للقلوب، في الدنيا والآخرة، وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

الفوائد والأحكام:

١- لطف الله عز وجل التام بعباده، ولطفه لهم بالإحسان إليهم، والرفق بهم، والتيسير عليهم، وإدراكه أسرار الأمور وحكمها؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾.

٢- إثبات صفة اللطف لله عز وجل؛ كما أن من أسمائه عز وجل: «اللطف».

٣- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿بِعِبَادِهِ﴾.

٤- تكفله عز وجل بأرزاق الخلائق؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ كما قال

تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي: الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾،

وقوله: ﴿فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾.

٦- أن رزق الله تعالى للخلائق مقرون بمشيئته وحكمته، وليس مقروناً بمحبته،

فيرزق عز وجل بمشيئته وحكمته البر والفاجر، وقد يمنع الرزق عن من يشاء منها.

٧- إثبات اسمي الله عز وجل: «القوي»، و«العزیز»، وصفتي: «القوة» و«العزة»

التامتين له عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾.

٨- كرم الله عز وجل ووعدته الذي لا يُخْلَفُ لمن كان يريد بعمله وسعيه ثواب

الآخرة وجزاءها، بإخلاصه وقصده وجه الله، بالزيادة والمضاعفة لعمله وثوابه؛ لقوله

تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدْنَاهُ فِي حَرْثِهِ﴾.

٩- أن من قصد بعمله وسعيه مجرد الحياة الدنيا ومنفعتاتها العاجلة، ولا هم له في

الآخرة، أعطاه الله ما قسم له منها، وليس له في نعيم الآخرة والجنة أي نصيب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ يَرْيُدُ حَرَّتِ الدُّنْيَا نُؤْتِيهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾.

١٠- أن ما قُسم للإنسان من الدنيا آتية لا محالة، لا يأتي به حرص حريص، ولا يرد كراهية كاره، سواء أراد بعمله الدنيا أو الآخرة.

١١- إثبات الدار الآخرة، والحساب والجزاء على الأعمال.

١٢- الترغيب والحث على أن يريد الإنسان بعمله الآخرة، والتحذير من إرادة الدنيا فقط.

١٣- أن الأعمال بالنيات، ولكل امرئ ما نوى، مما يوجب أن يحسن الإنسان نيته وقصده.

١٤- إثبات الإرادة والمشئمة والاختيار للإنسان، والرد على الجبرية الذين يقولون: إنه مجبور على أفعاله وأقواله؛ لقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ﴾، وقوله: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ﴾.

١٥- الإنكار على المشركين اتخاذهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله؛ من الشرك والتحليل والتحريم، وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾.

١٦- أن ما شرع ووضع من أنظمة دنيوية لا علاقة لها بالدين - كنظام المرور والأحوال الشخصية - فلا بأس به؛ لمفهوم قوله: ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ﴾.

١٧- تهديدهم بالعقوبة العاجلة في الدنيا، وأنهم مستحقون لها عاجلاً، لولا أن الله بحكمته جعل للفصل بينهم أجلاً وهو يوم القيامة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ أَفْضَلَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾.

١٨- إثبات الأسباب، فتأخير عقابهم بسبب كلمته عز وجل بتأخير الجزاء إلى يوم القيامة.

١٩- تهديد ووعيد الظالمين بالكفر والشرك والمعاصي بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٠- إشفاقهم وخوفهم من عقاب كسبهم، وهو واقع بهم لا محالة؛ لانعقاد

أسبابه؛ لقوله تعالى: ﴿ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۞ ﴾ .
 ٢١- التنويه بما أعد للمؤمنين من روضات الجنات لهم فيها ما يشاؤون من ألوان
 النعيم وأنواعه عند ربهم؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي
 رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۞ ﴾ .

٢٢- جمع القرآن بين الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب؛ لقوله تعالى: ﴿ تَرَى
 الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ ۞ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۞ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّنْ
 فَضْلِهِ ۗ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۞ ﴾ .

٢٣- لا بد من الجمع بين إيمان القلب، والعمل والصالح بالجوارح، ولا بد من
 كون العمل صالحًا، أي: خالصًا لله، موافقًا لشرعه؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۞ ﴾ .

٢٤- إثبات الجنات، وأن فيها روضات، وما يشاؤه أهلها من النعيم.
 ٢٥- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۞ ﴾ .
 ٢٦- عظم ما أعد الله للمؤمنين من هذا النعيم من وجوه عدة، وهو أنه من ربهم،
 وعنده، ووصفه عز وجل بالفضل الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿ عِنْدَ رَبِّهِمْ ۞ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ
 الْكَبِيرُ ۞ ﴾ .

٢٧- بشارة المؤمنين بهذا النعيم، والفضل الكبير؛ لقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ
 عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۞ ﴾ .

٢٨- إثبات عبودية المؤمنين لله تعالى عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿ عِبَادَهُ ۞ ﴾ .
 ٢٩- الترغيب في الإيثار والعمل الصالح؛ لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ ۞ ﴾ الآية، وقوله: ﴿ ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۞ ﴾ ، وقوله: ﴿ وَسَتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۞ ﴾ الآية .

٣٠- أنه ﷺ لم يسأل مشركي قريش أجرًا على إبلاغهم رسالة ربه ونصحه لهم؛

إلا أن يُوَدِّه، ولا يؤذوه لقرابته منهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾.

٣١- أن من حقه ﷺ وتعظيمه ومحبته تعظيم حق قرابته ومحبتهم؛ كما قال ﷺ في حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه: «وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، فحث على كتاب الله ورعّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»^(١).

وعن العباس رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال له: «والله لا يدخل قلب امرئ إيماناً حتى يحبكم الله عز وجل ولقرايتي»^(٢).

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: «ارقبوا محمداً ﷺ في أهل بيته»^(٣).
وعن عائشة رضي الله عنها؛ أن أبا بكر قال لعلي رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده، لقراية رسول الله ﷺ أحب إليّ أن أصل من قرايتي»^(٤).

وقال عمر للعباس رضي الله عنهما: «والله، لإسلامك يوم أسلمت كان أحب من إسلام الخطاب لو أسلم؛ لأن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب»^(٥).

قال ابن كثير^(٦): «فحال الشيخين رضي الله عنهما هو الواجب على كل أحد أن يكون كذلك، ولهذا كانا أفضل المؤمنين بعد النبيين والمرسلين، رضي الله عنهما، وعن سائر الصحابة أجمعين».

٣٢- وعد الله تعالى لمن اكتسب حسنة بزيادته له فيها حسناً، والمضاعفة له؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ رُفُفًا حَسَنًا﴾.

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٤٠٨، وأحمد ٤ / ٣٦٦-٣٦٧.

(٢) أخرجه أحمد ١ / ٢٠٧-٢٠٨.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب: مناقب قراية رسول الله ﷺ ٣٧١٣؛ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في المناقب ٣٧١٢، ومسلم في الجهاد ١٧٥٩.

(٥) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ١٩٠.

(٦) في «تفسيره» ٧ / ١٩٠.

- ٣٣- أنه عز وجل ذو المغفرة الواسعة لمن تاب إليه، والشكور بإعطاء الثواب الجزيل على العمل القليل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾.
- ٣٤- الإنكار على المشركين اتهمهم له ﷺ بافتراء القرآن، واختلاقه على الله كذباً؛ لقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.
- ٣٥- إبطال زعم المشركين باتهامهم له ﷺ بافتراء الكذب على الله، ببيان أنه لو فعل - وحاشاه من ذلك؛ لختم الله على قلبه؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ يَشَأْ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾.
- ٣٦- إزالته عز وجل للباطل، وإحقاقه الحق بكلماته الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾.
- ٣٧- إثبات كلمات الله الكونية والشرعية، وإثبات الكلام له؛ كما يليق بجلاله وعظمته.
- ٣٨- إثبات علم الله التام بما في الصدور والقلوب والسرائر من المضمورات والأسرار؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وعلمه بما سوى ذلك من باب أولى.
- ٣٩- التنبيه إلى أن مدار الأعمال على القلوب، مما يوجب مراقبتها وإصلاحها.
- ٤٠- امتنانه عز وجل بقبول توبة عباده، وترغيبهم بالتوبة، وعفوه وتجاوزه عن السيئات؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾.
- ٤١- علم الله تعالى الواسع بجميع أفعال العباد؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فَعَلْتُمْ﴾، وهذا يوجب على العبد مراقبة الله فيما يأتي وما يذر.
- ٤٢- استجابته عز وجل للذين آمنوا وعملوا الصالحات، وإعطاؤهم ما يسألون، وزيادته إياهم من فضله ومضاعفته لهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾، وفي هذا ترغيب في الإيثار والعمل الصالح.
- ٤٣- وعيد الكافرين وتهديدهم بالعذاب الشديد، والتحذير من الكفر؛ لقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

قال الله تعالى: ﴿ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٤١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٤٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٤٣﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُحَدِّثُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٤٥﴾ .

قوله تعالى: ﴿ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ نُنزِلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٣٨﴾ .

قوله: ﴿ * وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ ﴾، «لو»: حرف شرط غير جازم، أي: ولو وسَّع الله الرزق لعباده، وأعطاهم فوق حاجتهم.

﴿لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ اللام: رابطة لجواب «لو»، أي: لبغوا في الأرض فسادًا وطغوا وتجبروا، أشرا وبطرا؛ كما قال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وقال ﷺ: «والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على من كان قبلكم، فتتأفسوها كما تتأفسوها، فتهلككم كما أهلكتهم»^(١).

﴿وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ قرأ نافع وابن عامر وعاصم وأبو جعفر: ﴿يُنَزِّلُ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي، وقرأ الباقون: «يُنزِّل» بإسكان النون، وتخفيف الزاي.

أي: ولكن ينزل من الرزق ﴿بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾، أي: بالقدر الذي يشاءه بحكمته وعلمه مما فيه صلاحهم، فيعطي كلاً منهم ما يناسب حاله من الغنى أو الفقر؛ كما جاء

(١) سبق تحريجه.

في الأثر: «من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه» (١).

﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ الجملة تعليلية، واللام للتوكيد، أي: لذو علم تام وبصر وإحاطة بهم وبأحوالهم، دقيقتها وجليلها، باطنها وظاهرها، خفيها وجليلها، وما يصلحهم، وما يضرهم، فكم من أناس صار الابتلاء بالفقر وغيره سبباً لهدايتهم، وكم من أناس صار الابتلاء بالغنَى ونحوه سبباً لضلالهم، وقد أحسن القائل:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعمة (٢)

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾، أي: وهو وحده الذي ينزل المطر، وسمي المطر بـ«الغيث»؛ لأن الله يغيث به البلاد والعباد، أي: يرفع ما بهم من الشدة.

﴿مَنْ بَعْدَ مَا قَنَطُوا﴾، أي: من بعد ما قنط العباد، أي: من بعد ما اشتد بأسهم من نزوله؛ لتأخره عن وقته، وهذا بيان للواقع، وليس تقريراً للقنوط، فهو محرم، ومن كبائر الذنوب؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ﴾ [الروم: ٤٩].

وإنزال المطر على حين قنوط من نزوله وشفقة له يكون أشد وقعاً في النفوس، وأبين لرحمة الله تعالى وفضله؛ لقوله: ﴿وَلَيْسَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

﴿وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾، أي: ويسط رحمته، وهي المطر، وما يحصل بسببه من نبات الأرض، وسعة الرزق، وحياة العباد والبلاد؛ كما قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

قال قتادة: «ذكر لنا أن رجلاً أتى عمر بن الخطاب، فقال: يا أمير المؤمنين، قحط المطر، وقنط الناس. فقال: مطرتم، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ

(١) سبق تحريجه.

(٢) البيت لأبي تمام. انظر: «ديوانه» ص ٥٧٧.

رَحْمَتَهُ ﴿١﴾.

﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾ وهو وحده الولي حقاً لجميع الخلق ولاية عامة، والولي للمؤمنين ولاية خاصة، وولايته دائرة بين الإحسان والعدل، لا ظلم فيها، فيوفق بفضل من يشاء في أمر دينه ودنياه، ويحرم من يشاء.

﴿الْحَمِيدُ﴾، أي: المحمود في ولايته، وفي جميع أفعاله وأقواله، وأمره ونهيه، وشرعه وقدره وجزائه، وفي كل شيء، وكان ﷺ يقول: «الحمد لله على كل حال» (٢)، وكان ﷺ إذا رأى ما يجب قال: «الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات»، وإذا رأى ما يكره قال: «الحمد لله على كل حال» (٣).

وكم من ولي من الخلق - والله المثل الأعلى - لا يُحمد في ولايته، بل يذم أشد الذم؛ لتفريطه فيها ولاة الله عليه، وظلمه وغشمه، وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾».

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الواو: عاطفة، أي: ومن آياته الدالة على كمال عظمته، وتمام قدرته، وعلى قدرته على إحياء الموتى، وجمعهم يوم القيامة ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، هذه المخلوقات العظيمة.

﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الواو: عاطفة، و«ما» موصولة، تفيد العموم، أي: وخلق جميع الذي نشر وفرق في السموات والأرض.

﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾، أي: من كل ما يدب عليهما من المخلوقات، من الملائكة والإنس والجن، وسائر الحيوانات؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٠ / ٥١١.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٩٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٥١؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه ابن ماجه في الأدب، فضل الحامدين ٣٨٠٣؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ ءَأَيْتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجنائية: ٣، ٤].

فأتى بالماضي، وأتى بالمضارع للدلالة على الاستمرار.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾ الواو: عاطفة، أي: وهو عز وجل على جمع ما بث وما نشر في

السموات والأرض من هذه الدواب الكثيرة والخلائق كلهم.

﴿إِذَا يَشَاءُ﴾، أي: إذا يشاء جمعهم، وذلك يوم القيامة الذي يجمع الله فيه الأولين

والآخرين؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ

﴿٥٠﴾﴾ [الواقعة: ٤٩، ٥٠].

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: لا يعجزه شيء.

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ «ما»: شرطية، أي: وما أصابكم من مصيبة دينية،

أو دنيوية.

﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر: «بها» بغير فاء.

وقرأ الباقون بالفاء: ﴿فبها﴾، والفاء على هذا رابطة لجواب الشرط، والباء:

للسببية، و«ما»: موصولة، أو مصدرية، أي: فهو بسبب الذي كسبته أيديكم، أو بسبب

كسب أيديكم، أي: بسبب كسبكم الذنوب والمعاصي؛ لأن الذنوب والمعاصي سبب

لكل مصيبة وبلية، فهي سبب لفعل المعاصي بعدها؛ كما قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ

وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَٰى مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ

قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]،

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

كما أنها سبب للشدة والقحط ونزع البركات وغير ذلك من المصائب الدنيوية؛ كما

قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

والكسب يضاف للأيدي؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [النبا: ٤٠]،

وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٢] وغير ذلك؛ لأن كثيراً من

الأعمال تزاول بها، وهي الآخذة المعطية؛ كما قال ﷺ: «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»^(١).

﴿وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾، أي: ويتجاوز عز وجل عن كثير مما كسبته أيديكم من السيئات، فلا يؤاخذكم به، ولا يعاقبكم عليه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

فيعفو عز وجل عن كثير من ذنوب عباده ويمحوها عنهم فضلاً منه وإحساناً. أو بما يقدر عليهم من المكفرات؛ كما قال ﷺ: «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن، ولا أذى ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياها»^(٢).

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: وما أنتم بفائتين الله، ولا مفلتين من عذابه. ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ «من»: لتوكيد عموم النفي، أي: وما لكم من دون الله أي ولي يتولاكم ويحلب لكم الخير، ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم، ويدفع عنكم الضر، وعذاب الله.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ (٣٢) ﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَالٍ ظَهْرَهُ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) ﴿أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾ (٣٤) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٥﴾.

قوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾، أي: ومن آياته الدالة على عظمته ونعمته عز وجل، وتمام قدرته وسلطانه: ﴿الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ﴾، أي: السفن الجارية العظيمة الكبيرة التي سخرها الله وسخر البحر لتجري فيه بأمره عز وجل؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ﴾ [الجاثية: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلُكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في المرضى، ما جاء في كفارة المرض ٥٦٤٢، ومسلم في البر، ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض ٢٥٧٣، والترمذي في الجنائز ٩٦٦؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿يَأْمُرُهُ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ [لقمان: ٣١] وأطلق عليها: «الجواري» دون «الفلك» إيحاءً إلى العبرة في جريها على الماء وعدم غرقها مع عظمها وكبرها؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

﴿كَأَلْعُلَّارِ﴾، أي: كالجبال من عظمها وكبرها.

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ﴾ قرأ نافع: «الرِّيَّاحَ» بالجمع، وقرأ الباقون بالإنفراد: ﴿الرِّيحَ﴾، أي: إن يشأ يقطع هبوبها.

﴿فَيَظْلَنَ﴾، أي: فيصرن هذه الجواري وبيقين ﴿رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾، أي: ثوابت على سطح البحر والماء، لا يتحركن، وفي هذا تهديد وتخويف لهم؛ ليشكروا الله على هذه النعمة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾، أي: لدلائل على عظمة الله تعالى، وتمام نعمته، وعظيم سلطانه وقدرته.

﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ﴾ «صبار»: صيغة مبالغة، أي: كثير الصبر في الشدائد، وعلى طاعة الله تعالى، وعن معصيته.

﴿شَكُورٍ﴾ في الرخاء لنعم ربه، بنسبتها إليه عز وجل، والثناء عليه بها، وصرفها في طاعته، والاستعانة بها على مرضاته.

ووجه الجمع بين الشكر والصبر: أن الإنسان وهو على ظهر هذه السفن؛ إن جرت الأقدار بما يجب فالواجب عليه الشكر، وإن جرت الأقدار بما لا يجب فالواجب عليه الصبر.

وهذه هي صفة المؤمن؛ كما قال ﷺ: «إِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»^(١).

أما غير المؤمن فإنه إن صبر في الضراء مكرهاً لم يشكر في السراء.

(١) سبق تخريجه.

﴿أَوْ يُوبِقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ «أو»: عاطفة، والجملة معطوفة على ﴿يُسْكِنَ الرِّيحَ﴾، أي: أو إن يشأ يوبقهن، أي: يهلكهن بالغرق بأهلهن، أو إن يشأ يصرفنهن عن وجهة قصدهن بسبب قوة الريح، فيسرن على غير هدى كالآبق، فيهلكن بمن فيهن.

﴿بِمَا كَسَبُوا﴾، أي: بسبب الذي كسبه، أو بسبب كسبهم، أي: بسبب ذنوبهم ومعاصيهم.

﴿وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ﴾، أي: ويعف عن كثير مما اكتسبه من الذنوب، ولو آخذهم بذنوبهم لأهلك أكثر من ركب البحر.

ولكنه عز وجل من لطفه ورحمته يرسل الريح بحسب الحاجة؛ كما ينزل المطر بقدر الكفاية.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بالرفع: «وَيَعْلَمُ»، على الاستئناف، وقرأ الباقر بالنصب: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ عطفاً على محذوف منصوب للتعليل، أي: يغرقهم؛ لينتقم منهم ويعلم.

والمعنى: ويعلم الذين يحاجون ويخاصمون بآياتنا بغير الحق؛ ليبتلوها، ﴿مَا لَهُمْ مِنْ مَّحِصٍ﴾ «من»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى لعموم النفي، أي: ما لهم أي محيص، أي: أي مفر ولا مهرب من عذاب الله؛ كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مَاؤُنْهَمُ جَهَنَّمُ وَلَا يُجَادُونَ عَنْهَا مَحِصًا﴾ ﴿١٣﴾ [النساء: ١٢١].

الفوائد والأحكام:

١- أن الأرزاق كلها بيد الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية.

٢- حكمة الله تعالى في قسمة الأرزاق بين عباده، فينزل بقدر الذي يشاؤه، مما يصلحهم، ولا يظغيهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَثَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ﴾.

٣- إثبات عبودية جميع الخلق لله تعالى عبودية عامة؛ لقوله تعالى: ﴿لِعِبَادِهِ﴾،

وقوله: ﴿بِعِبَادِهِ﴾.

٤- أن من طبيعة الإنسان أن تُبَطِّرَه النعمة فيطغى ويبغى في الأرض، إلا من رحم الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾، فينبغي الحذر من ذلك.

٥- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي الإرادة الكونية؛ لقوله: ﴿يَشَاءُ﴾.

٦- تمام خبرته عز وجل وعلمه، وبصره واطلاعه على عباده وأحوالهم، وما يناسبهم ويصلحهم وما يضرهم، من بسط الرزق وعدمه وغير ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾.

٧- امتنانه على العباد بإنزال الغيث عليهم من بعد قنوطهم وشدة يأسهم، ونشره رحمته؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُزِيلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾.

٨- أن المطر رحمة من رحمة الله تعالى؛ يحيي به العباد والبلاد.

٩- أن من طبيعة الإنسان الاستعجال في طلب الخير من الغيث وغيره، واليأس والقنوط عند تأخره عن وقته.

١٠- ينبغي على المؤمن تغليب جانب الرجاء وقت الشدة، وأن يكون رجاءه بما عند الله أقوى من رجائه بما في يده، والحذر من القنوط من رحمة الله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْئُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَعْجَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

١١- إثبات اسم الله: «الولي»، وأنه سبحانه ذو الولاية العامة لجميع الخلق، وذو الولاية الخاصة للمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْوَلِيُّ﴾.

١٢- إثبات اسم الله تعالى: «الحميد»، وأنه عز وجل المحمود في ولايته، وفي جميع أفعاله وأقواله، وشرعه وقدره وجزائه، وفي كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿الْحَمِيدُ﴾.

١٣- أن من آيات الله الدالة على عظمته، وتمام قدرته على إحياء الموتى وبعثهم وجمعهم ليوم القيامة إذا شاء: خلق السموات والأرض وما بث فيها من الدواب؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا

بِشَاءِ قَدِيرٍ ﴿٢١﴾.

١٤- إثبات المعاد، وبعث الخلائق، وجمعهم ليوم الحساب؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾.

١٥- تمام قدرة الله تعالى على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾.

١٦- أن ما يصيب العباد من مصائب دينية ودنيوية، فهو بسبب ما اكتسبوه من الذنوب والمعاصي؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

١٧- إثبات الأسباب، وتأثيرها في المسببات.

١٨- عفو الله تعالى عن كثير من ذنوب العباد، وعدم مؤاخذتهم بها؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾، وقوله: ﴿أَوْ يُؤَيِّدَنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفَىٰ عَن كَثِيرٍ﴾ ﴿٢١﴾ لكن ذلك مقيد بمشيئته؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْفُوا مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

١٩- تهديد المكذبين، وأنهم لن يعجزوا الله، ولن يفلتوا من عذابه، وما لهم غيره أي ولي يتولاهم بجلب الخير لهم، ولا أي نصير ينصرهم ويدفع عذاب الله عنهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ﴿٢١﴾.

٢٠- أن من آيات الله الدالة على عظمته ونعمته، وتمام سلطانه وقدرته: تسخير البحر لتجري فيه السفن العظيمة التي تشبه الجبال في كبرها وعظمتها؛ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ ﴿٢٢﴾.

٢١- التهديد بأنه تعالى لو شاء لأسكن الريح، فظلت هذه السفن رواكد على سطح البحر لا تتحرك؛ لقوله تعالى: ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظَلَّ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾.

٢٢- أنه لا يتأمل في هذه الآيات ويتنفع بها إلا من كان عظيم الصبر على الشدائد، وعلى فعل الطاعات، وترك المعاصي، كثير الشكر لله تعالى بنسبة نعمه إليه عز وجل واستعمالها في طاعته، وهذا هو المؤمن حقاً؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾.

٢٣- فضيلة الصبر والشكر، والترغيب فيهما.

٢٤- التهديد بأنه عز وجل لو شاء لأهلك هذه السفن بالغرق بمن فيها، بسبب

ذنوبهم ومعاصيهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ يُؤَيِّتُهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾، وفي هذا تحذير من السيئات، وأنها سبب للعقوبات.

٢٥- الوعيد للمجادلين في آيات الله بالباطل، بأنه لا محيص لهم ولا محيد من

عذاب الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَخْرِصٍ﴾.

٢٦- ذم المجادلة لإبطال الحق، والتحذير منها.

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرَ الْإِنَّمِ وَالْفَوْحِشِ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلَهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مَنْ بَعْدَهُ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشَعِيَتٍ مِنَ الدُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْآخِصِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كَثِيرَ الْإِنَّمِ وَالْفَوْحِشِ وَإِذَا مَا عَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ .

قوله: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ «ما»: شرطية، و«من»: بيانية، أي: فما أعطيتكم من أي شيء، قليلاً كان أو كثيراً، من ملك ورياسة ومال وبنين وصحة وغير ذلك. والخطاب عام لجميع الناس.

﴿فَمَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«متاع»: خبر لمبتدأ محذوف، أي: فهو متاع الحياة الدنيا، الحقيرة الفانية، يُتمتع به، ثم سرعان ما ينقطع ويزول، أو يزول الإنسان عنه، فلا يغير به؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مَنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَّاإِنْ مَتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأنبياء: ٣٤].

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ من الثواب العظيم، والنعيم المقيم، ﴿خَيْرٌ﴾ خيرية مطلقة من متاع

الدنيا، ومن الدنيا كلها، ﴿وَأَبْقَى﴾، أي: وأدوم؛ لأن الدنيا كلها زائلة، وما عند الله لا يحول ولا يزول، بل هو نعيم سرمدي أبدي. نسأل الله من فضله.

﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، أي: للذين آمنوا خاصة، الذين صدقوا بقلوبهم، وانقادوا لطاعة الله تعالى وعبادته بجوارحهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَاتَقَوْا﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ ﴿٤﴾ [الضحى: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ ﴿١٧﴾ [الأعلى: ١٧].

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: وعلى ربهم خاصة يعتمدون اعتمادًا كليًا في جلب النفع ودفع الضرر، مع تمام الثقة بالله، وصدق الاعتماد عليه، والتفويض إليه؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف: «كَبِيرٍ» بالإنفراد.

وقرأ الباقون: «كَبِيرٍ» بالجمع.

والواو: عاطفة في المواضع الثلاثة، و«الذين»: اسم موصول مبني في محل جر عطفاً على الموصول السابق، أي: والذين يجتنبون كبائر الذنوب التي تؤثم مرتكبها، أي: توقعه في الإثم، واستحقاقه العقوبة.

والكبيرة: كل ما نص الشرع على أنها كبيرة، أو رتب عليها عقوبة خاصة دينية، أو دنيوية، أو أخروية، فهي محدودة، لا معدودة^(١).

﴿وَالْفَوَاحِشَ﴾، أي: ويجتنبون الفواحش، وهي: كل ما فحش وقبح في الشرع وعرف المسلمون؛ كالشرك والزنا وقول الزور، وغير ذلك.

والتعبير بـ«يجتنبون»؛ لأنه أبلغ من «يتركون»، أي: يجتنبون الكبائر والفواحش، وكل ما يؤدي إليها، ويتعدون منها؛ لأن من حام حول الحمى يوشك أن يرتع فيه.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ «ما»: زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى، أي: وإذا غضبوا هم يغفرون، أي: يملكون أنفسهم عند الغضب، ويغفرون لمن

(١) انظر تفسير قوله: ﴿إِن يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].

أغضبهم، أي: يسترون عليه ويعفون ويتجاوزون عنه؛ كما قال تعالى في وصف المتقين: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

وقال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة؛ إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها الله»^(٢).

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ لما ذكر صلاح باطنهم بالإيمان والتوكل على ربهم، والعفو والصفح، أتبع ذلك بذكر ظاهرهم.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾: معطوف على الموصول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾.

﴿اسْتَجَابُوا﴾ السين والتاء: للمبالغة، ف«استجابوا» أبلغ من «أجابوا».

أي: والذين استجابوا لربهم، أي: أجابوه باتباع رسله، وفعل أوامره، واجتتاب نواهيه.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ هذا وما بعده معطوف على قوله: ﴿اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: وأقاموا الصلاة إقامة تامة كما شرعها الله تعالى.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، أي: وشأنهم العام الذي يهم الجميع يتشاورون فيه بينهم، فلا يستبد أحد منهم برأيه في الأمور المشتركة بينهم، بل يتشاورون، ويتبادلون الرأي فيها؛ كما كان ﷺ يستشير أصحابه، ويقول: «أشيروا علي أيها الناس»^(٣)، استجابة لقول الله تعالى له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وحضرته الوفاة، جعل الأمر شورى بين ستة من الصحابة رضي الله عنهم، فاجتمعوا على عثمان رضي الله عنه، واجتمع على

(١) سبق تحريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب، قول النبي ﷺ: «يسروا ولا تعسروا» ٦١٢٦، ومسلم في الفضائل، مباحثته ﷺ للأنام ٢٣٢٧، وأبو داود في الأدب ٤٧٨٥.

(٣) سبق تحريجه.

ذلك الصحابة رضوان الله عليهم.

ولهذا فإن الشورى في الإسلام إنما تكون بين أهل الحل والعقد، من أهل العلم والعقل والفضل والحكمة والحنكة والدهاء والسياسة والتجربة، وليست الشورى أن يوكل الأمر في الأمة إلى غوغاء الناس ودهمائهم؛ ليصوتوا ويختاروا من يريدون؛ كما يزعم أدعياء الديمقراطية الكاذبة الزائفة.

﴿وَمِمَّا زَقَّفَهُمْ﴾ «من»: للجنس، أو تبعية، و«ما»: موصولة، أي: ومن الذي رزقناهم ﴿يُفْقُونَ﴾، أي: يخرجون المال في طرقه المشروعة: الواجبة كالزكاة والنفقة على الأهل والأولاد وغير ذلك، والمستحبة كالصدقة والهدية ونحو ذلك.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ﴾ (٣٩): معطوف على الموصول الأول في قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾. والبغي: الظلم والعدوان، أي: والذين إذا بُغِيَ واعتدي عليهم ينتصرون ممن بغى واعتدى عليهم؛ لشجاعتهم وقوتهم وقدرتهم على الانتصار ممن ظلمهم.

وهذا مدح لهم على قوتهم وقدرتهم على الانتصار، وأنهم ليسوا بعاجزين، ولا ضعفاء ولا أذلاء، وليس مدحاً لهم على الانتقام واستيفاء حقهم، وإن كان ذلك جائزاً لهم.

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبرا: حسبي الله ونعم الوكيل. فقال النبي ﷺ: «إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإذا غلبك أمر فقل: حسبي الله ونعم الوكيل» (١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن «لو» تفتح عمل الشيطان» (٢).

قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

(١) أخرجه أبو داود في الأفضية ٣٦٢٧، وأحمد ٢ / ٢٩٨.

(٢) أخرجه مسلم في القدر، لا تعجزن عن مأمور، ولا تجزعن من مقدور ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة

الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمِنَ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴿٤٣﴾

قوله: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِثْلَهَا﴾.

لما مدحهم بالقدرة على الانتصار أمرهم بالعدل والمماثلة في المجازاة، وحرمة الزيادة؛ لأن الانتصار قد لا تقف فيه النفوس عند العدل غالباً، بل لا بد أن تتجاوز. والمعنى: وجزاء سيئة من أساء أن يجازى بسيئة، أي: بعقوبة مثلها، أي: بمقدارها من غير زيادة؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّيْ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦]، أي: بمثل ما عوقبتم به كماً وكيفاً ونوعاً.

وإنما سميت مجازاة المسيء ومعاقبته: سيئة، من باب المشاكلة لما قبلها، ولأنها تسوء الذي عوقب بها.

فأمرهم بالعدل في القصاص إن اختاروا الانتصار، ورجعوا في استيفاء حقهم، سواء كان ذلك بالأنفس أو الجراحات أو الأموال أو غير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالْسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ [المائدة: ٤٥].

ثم نديهم إلى العفو والإصلاح بعد المقدرة، فقال:

﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، أي: فمن عفا عن أساء إليه، و﴿وَأَصْلَحَ﴾، أي: قصد بعفوه الإصلاح، ووضعها فيمن يصلحه العفو.

﴿فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فأجره على الله قد تكفل عز وجل به، وأكرم به من أجر، وأعظم به من جزاء، يعطيه أكرم الأكرمين، وأجود الأجودين، بلا حساب، ولا يضيع عنده شيء؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُمْضِعْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

قال الفضيل بن عياض: «إذا أتاك رجل يشكو إليك رجلاً، فقل: «يا أخي، اعف

عنه؛ فإن العفو أقرب للتقوى، فإن قال: لا يحتمل قلبي العفو، ولكن أنتصر كما أمرني الله عز وجل، فقل له: إن كنت تحسن أن تنتصر، وإلا فارجع إلى باب العفو؛ فإنه باب واسع، فإنه من عفا وأصلح فأجره على الله، وصاحب العفو ينام على فراشه بالليل، وصاحب الانتصار يقلب الأمور»^(١).

وقال ابن القيم: «ولا انتقم أحد لنفسه إلا ذل، ولو لم يكن إلا بفوات عز العفو، ولهذا ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه قط»^(٢).

قال الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحد أرحت نفسي من هم العداوات^(٣)

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾^(٤) الجملة تعليل لما قبلها، أي: لا يجب الظالمين المعتدين، وهم الذين يتدثون بالسيئة، والذين يعاقبون عليها بأشد من مثلها.

﴿وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ﴾ الواو: عاطفة، واللام: للتوكيد في الموضعين، أي: ولن انتصر من ظالمه، واستوفى منه حقه، والضمير في ﴿ظُلْمِهِ﴾ يعود إلى المظلوم، أي: بعد أن ظلم.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ الإشارة لـ«من» في قوله: ﴿وَلَمَنْ﴾ على اعتبار معناها وهو الجمع، أي: فأولئك المنتصرون بعد ظلمهم، أي: بعد أن ظلموا.

﴿مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: ما عليهم أي سبيل، أي: ما عليهم أي حرج ولا مؤاخذه؛ لأنهم إنما أخذوا حقهم.

ولهذا قال ﷺ: «المُستَبان ما قالاً فعلى البادي منهما، ما لم يعتد المظلوم»^(٤).

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠ / ٣٢٨٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧ / ٢٠٠.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ١٢١.

(٣) البيت للشافعي. انظر: «روض الأحيار المنتخب من ربيع الأبرار» ص ١٧٧.

(٤) أخرجه مسلم في البر، النهي عن السباب ٢٥٨٧، وأبو داود في الأدب ٤٨٩٤، والترمذي في البر، ما

جاء في الشتم ١٩٨١، وأحمد ٢ / ٢٥٣؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أحمد ٤ / ١١٦؛

من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾ «إنما» أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: ما السبيل إلا على الذين يظلمون الناس، أي: إنما السبيل أي: الحرج والإثم والمؤاخذه ﴿ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ ﴾، أي: يعتدون عليهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم وغير ذلك. ﴿ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾، أي: ويعتدون في الأرض ويتجاوزون الحد في حق الله بالمعاصي، وفي حقوق الخلق.

﴿ بَغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ بيان للواقع؛ لأن البغي كله بغير الحق.

قال ابن القيم: «فذكر المقامات الثلاثة في الآية: مقام العدل، وأذن فيه، ومقام الفضل، وندب إليه، ومقام الظلم وحرمة»^(١).

﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ ﴾ الإشارة للذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، ﴿ أَلِيمٌ ﴾، أي: مؤلم شديد موجه معنوياً للقلوب، وحسباً للأبدان، بحسب مقدار ظلمهم وبغيهم.

﴿ وَلَمَنْ صَبَرَ ﴾ بعد أن توعد أهل الظلم والبغي ابتداءً، أو في المقاصة، أكد الأمر بالصبر والمغفرة والعفو، أي: ولمن صبر على إساءة من أساء إليه وآذاه، فلم يتتصر.

﴿ وَعَفَرَ ﴾، أي: ستر ما حصل له من إساءة وأذى وتجاوز وعفا بعد القدرة على الانتصار والانتقام، لا عن عجز وذل وضعف.

﴿ إِنَّ ذَلِكَ ﴾، أي: إن ذلك الصبر على إساءة من أساء، وستر إساءته، والتجاوز والعفو عنه بعد القدرة.

﴿ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ ﴾ اللام: للتوكيد، أي: لمن الذي يُعزم عليه من الأمور، ودليل على أن من فعل ذلك، فصبر وستر، وعفا وغفر، فهو من ذوي العزم، ذوي الصفات العظيمة، التي عظمها الله، وأكبر شأن أهلها، وأنه لا يوفق لها إلا أهل الصبر والهمم العالية، والحظ العظيم؛ كما قال تعالى: ﴿ أَدْفَعْ بِأَلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾^(٢٤) وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ ﴿^(٢٥)

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ١٢١.

[فصلت: ٣٤-٣٥].

وذلك لأن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل أو بهما من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه، ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، إلا على من وفقه الله، ولقاه هذه الخصلة العظيمة، فوفقه للصبر، وأعظم حظه، ويسر له ذلك، وأعاناه عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ ۗ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلِ ۗ﴾ ﴿٤٤﴾ وَتَرَنَّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدَّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخَسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾.

قوله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ «من»: شرطية، أي: ومن يصرفه الله عن الهدى كونًا وقدراً بسبب ظلمه.

﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، و«من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: فما له أي ولي يتولى أمره ويهديه ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾، أي: من بعد الله.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣، غافر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣، الزمر: ٢٣، غافر: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْسِدًا﴾ [الكهف: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ فَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الإسراء: ٩٧].

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ﴾ الخطاب في الموضوعين لغير معين، أي: وترى وتبصر الظالمين بالكفر والشرك.

﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾، أي: حين رأوا العذاب يوم القيامة وشاهدوه بأعينهم.

﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾، أي: يظهرون الأسى والندم العظيم على ما سلف منهم، والاستفهام للتمني، أي: هل من طريق أو حيلة إلى مرجع إلى الدنيا لنعمل غير الذي كنا نعمل؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُنكَدِبُ بَيَاتِنَ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٧﴾ [الأنعام: ٢٧] وهم كاذبون، ولهذا رد عز وجل عليهم بقوله: ﴿بَلْ

بَدَأَهُمْ مَا كَانُوا يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ [الأنعام: ٢٨].

﴿وَتَرْنَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، أي: على النار، وهذا تفسير للعذاب في قوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾.

﴿خَشَعِينَ﴾، أي: خاضعين متضائلين ﴿مِنَ الذُّلِّ﴾ «من»: سببية، أي: بسبب الذل والهوان الذي في قلوبهم من شدة الهول.

﴿يَنْظُرُونَ﴾، أي: ينظرون إلى النار ﴿مِنْ طَرَفٍ خَفِيِّ﴾، أي: من بصر ضعيف مسارقة، ولا ينظرون إليها بملء أعينهم؛ لشدة انزعاجهم وخوفهم منها.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ تحدثنا بما أنعم الله به عليهم، واغتباطاً بالسلامة؛ مما لحق الظالمين من العذاب، وذلك حين ظهر مآل كل فريق.

﴿إِنَّ الْخٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾، أي: إن الخاسرين الخسران الميين، الذين خسروا أنفسهم بحرمانها من الجنة وما فيها من النعيم، وأوبقوا أنفسهم في النار والعذاب الأليم، وخسروا أهلهم حيث فرق بينهم وبينهم، فلم يجتمعوا بهم آخر ما عليهم؛ لأنهم إن كانوا كلهم في النار، فأهل النار لا يجتمعون أبداً، وإن كان أهلوه في الجنة؛ فقد حيل بينهم وبينهم.

﴿أَلَا إِنَّ الظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ «ألا»: أداة تنبيه، أي: في عذاب دائم أبدي سرمدي.

﴿وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ ءٰوَالِيَةٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: وما كان لهم أي أولياء ﴿يَنْصُرُونَهُمْ﴾، أي: يدفعون عنهم العذاب ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: غير الله.

﴿وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي، أي: ومن يضلل الله كوناً وقدرًا فما له أي سبيل، أي: أي طريق يهتدي به إلى الحق، ويخلص به من الضلال، وهذا تأكيد لقوله: ﴿وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾، وكقوله تعالى في سورة النساء: ﴿وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [الآية: ٨٨].

الفوائد والأحكام:

- ١- التزهيد في الدنيا وتحقيرها، وأنها متاع زائل، وظل حائل؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾.
- ٢- أن ما عند الله من الثواب العظيم، والنعيم المقيم خير من الدنيا كلها وأبقى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾.
- ٣- أن ما وعد الله به عنده مما هو خير وأبقى، إنما هو للمؤمنين الموصوفين بالصفات المذكورة؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣٩﴾﴾.
- ٤- التحذير من الافتتان بالدنيا والاعتزاز بها، والترغيب بما عند الله؛ مما هو خير وأبقى.
- ٥- أن الجنة لا تنفى، ولا ينقطع نعيمها، ولا يفنى أهلها؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَبْقَى﴾.
- ٦- امتداح المؤمنين والثناء عليهم بالصفات المذكورة، والترغيب فيها من الإيمان، والتوكل على ربهم، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو والمغفرة عند الغضب، والاستجابة لربهم، وإقام الصلاة، وكون أمرهم شورى بينهم، والإنفاق مما رزقهم الله، والانتصار بأنفسهم ممن بغى عليهم.
- ٧- إثبات ربوبية الله تعالى الخاصة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿لِرَبِّهِمْ﴾.
- ٨- وجوب الإيمان والتوكل على الله، واجتناب كبائر الإثم والفواحش.
- ٩- فضيلة العفو بعد المقدرة، والمغفرة عند الغضب، والإصلاح والصبر؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وقال ﷺ: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»^(١).

فالعفو من المخلوق ظاهره: ضيم وذل ومهانة، وباطنه: عز وانتقام ورفعة. وقد كان العفو من أخص صفات الأنبياء عليهم السلام؛ فقد قال يوسف عليه السلام لإخوته لما قالوا له: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِئِينَ﴾، قال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَعْفُرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩١، ٩٢].

وقال ﷺ لأهل مكة بعد أن فتحها، ومكنه الله منهم: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»^(٢). وعفا ﷺ عن عَوْرَثِ بْنِ الْحَارِثِ الَّذِي اخْتَرَطَ سَيْفَهُ، وَهُوَ نَائِمٌ، وَأَرَادَ قَتْلَهُ^(٣). وعفا عن لبيد بن الأعظم الذي سحره^(٤)، وعن المرأة التي سمت له الذراع يوم خيبر^(٥).

١- وجوب الاستجابة لله تعالى، في فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه.
١١- الحث على إقام الصلاة، فرضها، ونفلها، إقامة تامة؛ كما شرعها الله تعالى.
١٢- فضيلة الشورى؛ لأن الله امتدح بها المؤمنين، فقال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾، وهي مفخرة من مفاخر الإسلام، فاق بها جميع النظم والمذاهب والأديان، قال أحمد شوقي:
الدين يسر والخلافة بيعة والأمر شورى والحقوق قضاء^(٦)

(١) أخرجه مسلم في البر، استحباب العفو والتواضع ٢٥٨٨، والترمذي في البر، ما جاء في التواضع ٢٠٢٩؛ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في المغازي- غزوة ذات الرقاع ٤١٣٧، ومسلم في صلاة المسافرين ٨٤٣- من حديث جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٦٨، ومسلم في السلام ٢١٨٩، وابن ماجه في الطب ٣٥٤٥؛ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه أبو داود في الدييات ٤٥١٠؛ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٦) هذا البيت من قصيدة لأحمد شوقي في مدح الرسول ﷺ مطلعها:

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وسناء

انظر: «الشوقيات» ص ٤٤

وقد أحسن حافظ إبراهيم في قوله من قصيدة له في مدح عمر بن الخطاب رضي الله عنه (١):

يا رافعاً راية الشورى وحارسها جزاك ربي خيراً عن محبيها
لم يلهك النزع عن تأييد دولتها وللمنية آلام تعانيتها
لم أنس أمرك للمقصداد يحمله إلى الجماعة إنذاراً وتنبئها
إن ظل بعد ثلاث رأيم شعباً فجرد السيف واضرب في نواحيها
فاعجب بقوة نفس ليس بصرفها طعم المنية مرّاً عن مراميها
درى عميد بني الشورى بموضعها فعاش ما عاش بينها ويعليها
وما استبد برأي في حكومته إن الحكومة تغري مستبديها
رأي الجماعة لا تشقى البلاد به رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها
وقال الآخر:

إذا بلغ الرأي المشورة فاستعن برأي نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافي قوة للقوادم (٢)
وقال الآخر:

شاور سواك إذا نابتك نائبة يوماً وإن كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها ما دنا ونأى ولا ترى نفسها إلا بمرآة (٣)

١٣- الترغيب في الإنفاق من رزق الله في وجوه البر الواجبة والمستحبة؛ لقوله

تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

١٤- أن الرزق كله من الله تعالى؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى

(١) انظر: «ديوان حافظ إبراهيم» ص ٩١.

(٢) البيتان لبشار بن برد. انظر: «ديوانه» ١٧٣/٤.

(٣) البيتان للأرجاني. انظر: «ديوانه» ٢٤٦/١.

اللَّهُ رَزَقَهَا ﴿هود: ٦﴾.

١٥- ينبغي أن يكون المؤمن قوياً بربه، ثم بإيمانه، فلا يقبل الضيم والذل والهوان لنفسه؛ لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْصُرُونَ ﴿٣١﴾﴾؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [آل عمران: ١٣٩].

١٦- وجوب العدل في القصاص واستيفاء الحقوق؛ لقوله تعالى: ﴿وَحَزُوا سَنِيَةً سَنِيَةً مِّثْلَهَا﴾، أي: بمقدارها من غير زيادة؛ كما قال تعالى: ﴿كُنِبَ عَلَيْكُمْ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٧٨].

١٧- الحث على العفو بعد القدرة، والإصلاح، والإغراء في ذلك، ببيان تكفله عز وجل بأجر من فعل ذلك، بلا حد ولا عدا؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.
١٨- شتان بين من عفا عمن ظلمه بعد المقدرة وأصلح، رجاء الأجر من الله، وبين من آثر عدم العفو سواء أخذ حقه في الدنيا، أو في الآخرة، فبينهما مثل ما بين الثرى والثريا، والأرض والسماء، والمشرق والمغرب، فلا يقارن من آثر الورود على الجواد الكريم ليجزيه من فضله بلا حساب، وبين من آثر الورود على الخلق ليققتص منهم سواء في الدنيا أو في الآخرة.

١٩- أن العفو إنما يندب إليه، ويرغب فيه، إذا كان فيه إصلاح للمعفو عنه، أما إذا لم يكن فيه إصلاح له، بل كان فيه ما يزيده جرأة على ارتكاب الإساءة مرة أخرى، أو أكثر، فلا يندب العفو عنه.

٢٠- تحريم الظلم بالاعتداء والإساءة إلى الآخرين، أو بالمعاقبة على السيئة بأشد منها، أو بغير ذلك؛ لأن الله نفى محبته للظالمين، فقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

٢١- إثبات محبة الله تعالى للمؤمنين العادلين؛ لفهوم قوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ﴾.

٢٢- أن من انتصر بعد أن ظلم باستيفاء حقه، فلا حرج عليه ولا مؤاخذه؛ لأنه إنما أخذ بحقه؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾. وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿وَحَزُوا سَنِيَةً سَنِيَةً مِّثْلَهَا﴾.

٢٣- أن المؤاخذة والحرَج والإثم على الذين يظلمون الناس بالاعتداء والإساءة إليهم ابتداءً، أو بالمعاقبة على الإساءة بأشد منها، وعلى الذين يبعثون في الأرض بغير الحق؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

٢٤- التهديد والوعيد للذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق، بالعذاب الأليم؛ لقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

٢٥- الترغيب في الصبر على أذى الخلق، والعفو عنهم، وبيان أن ذلك من عزائم الأمور، ومن أعظم الخصال التي لا يوفق لها إلا أهل الصبر والهمم العالية، والحظوظ العظيمة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤١).

وفي هذا تأكيد لقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾.
وقد أحسن القائل:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم (١)

٢٦- لا تنافي بين إباحة المجازاة بالمثل، واستيفاء الحق بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، وتأكيد ذلك، بقوله: ﴿وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (٤١)، وبين الندب إلى العفو بقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ وتأكيد ذلك بقوله: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَعَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (٤٣)، فاستيفاء الحق جائز، والعفو أولى.

٢٧- أن من أضله الله كوناً وقدرًا فما له من ولي من بعده يهديه إلى الحق؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَليٍّ مِنْ بَعْدِهِ﴾.

٢٨- أن من هداه الله فقد تولاه ولاية خاصة.

٢٩- شدة أسى الظالمين وندمهم على ما سلف منهم من الظلم والشرك، وتمنيهم حين رؤيتهم العذاب أن يكون لهم حيلة للرجوع إلى الدنيا؛ ليعملوا صالحًا كما يزعمون؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَدٌّ مِنْ سَبِيلِ﴾.

(١) البيتان للمنتبى. انظر: «ديوانه» ٢/٢٧٢.

٣٠- شدة خضوعهم حين عرضهم على النار؛ بسبب الذل والخوف والهوان الذي في قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدُّلِّ﴾.

٣١- نظرهم إلى النار مسارقة ومن طَرَفٍ خفي؛ لشدة خوفهم وانزعاجهم منها؛ ليقينهم أنهم صائرون إليها؛ لقوله تعالى: ﴿وَتَرْتَهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَشِيعِينَ مِنَ الدُّلِّ﴾، فاجتمع عليهم ذل الظاهر بهذا النظر الخفي، وذل الباطن بكونهم خاشعين من الذل.

٣٢- اغتباط المؤمنين وتحديثهم بما أنعم الله به عليهم من السلامة مما لحق الظالمين من الخسران؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية.

٣٣- أن الخاسرين الخسران الميين: هم الذين خسروا أنفسهم بحرمانها من الجنة ونعيمها، وإيقاعها في النار وجحيمها، وخسروا أهلهم حيث فُرِّقَ بينهم وبينهم إلى آخر ما عليهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ الْخٰسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾.

٣٤- إثبات يوم القيامة وما فيه من الحساب والجزاء، والريح والخسران.

٣٥- أن عذاب الظالمين بالشرك والكفر عذاب مقيم أبدي سرمدي، لا انقضاء له، ولا نهاية؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾.

٣٦- عدم وجود أولياء لهم ينصرونهم غير الله يدفعون عنهم عذابه؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ ءَوْلِيآءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾.

٣٧- أن من أضله الله كوناً وقدرًا فلا طريق له إلى الهدى؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾.

قال الله تعالى: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنِ اعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلاَّ أَلْبَلَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنِ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَنَثًا وَمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ ﴿٥١﴾ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّا لَنَهْدِيهِ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْإِلَهَ إِلَى اللَّهِ نَصِيرُ الْأُمُورِ ﴿٥٣﴾

قوله تعالى: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مَلَجٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنِ اعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِلاَّ أَلْبَلَغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنِ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

قوله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ﴾ الآية.

لما ذكر حال الظالمين يوم القيامة، وتمنيهم الرجوع إلى الدنيا، وندمهم حين رؤية العذاب، وعظم ما أعد لهم من العذاب، أمر بالاستعداد لذلك اليوم وحذرهم منه. أي: أجبوا لربكم بالإيمان به وتوحيده، وطاعته بفعل ما أمركم به، وترك ما نهاكم عنه. والسين والتاء: للمبالغة.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ «أن» والفعل «يأتي» في تأويل مصدر في

محل جر بالإضافة إلى «قَبْلِ»، أي: من قبل إتيان يوم، أي: من قبل مجيء يوم؛ يعني: يوم القيامة. ونكر للتعظيم.

﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾، أي: لا يمكن لأحد رده ومنعه إذا أتى الله به، وهو

سبحانه لا يرده إذا أتى به؛ كما قال تعالى: ﴿فَأَقْمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَدِيمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمًا لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصْدَعُونَ﴾ (٤٣) [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَمَتِّحٍ بِالْبَصَرِ﴾ (٥٠) [القمر: ٥٠].

﴿مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ﴾ «من»: مؤكدة لعموم النفي في الموضعين، أي: ما لكم أي ملجأ، أي: أي معاذ أو ملاذ تلجؤون إليه، وتلوذون به من عذاب الله ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، أي: يوم إتيان ذلك اليوم؛ كما قال تعالى: ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَئِنَّا لَمَمْرُؤٌ﴾ (١٠) ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ (١١) ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ لَشَفِيفٌ﴾ (١٢) [القيامة: ١٠-١٢].

﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾، أي: وما لكم أي نكير، أي: أي قدرة على إنكار ما وقع منكم من الظلم والتكذيب، أي: لا يسعكم إلا الاعتراف، أو ما لكم أي منكر يُنكر ما نزل بكم ويدافع عنكم.

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا﴾؛ يعني: المشركين والمكذبين له ﷺ، أي: فإن أعرضوا عن الاستجابة لربهم، والإيمان به وتوحيده وطاعته، واستمروا على شركهم وظلمهم، فلا لوم عليك، أو فلا تحزن.

﴿فَمَا أَرْسَلْنَاكَ﴾ الفاء: رابطة لجواب الشرط، أي: فما أرسلناك يا محمد ﴿عَلَيْهِمْ حَفِيفًا﴾ تحفظ أعمالهم، وتُسأل عنها، أو تُلزمهم الاستجابة والإيمان، وفي هذا تسلية له ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ «إن»: نافية، بمعنى: «ما»، أي: ما عليك إلا البلاغ؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠].

وقد بلغ ﷺ البلاغ المبين، وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، وصبر وصابر وجاهد في الله حق جهاده، وناله من الأذى من قومه ما تنوء بحمله الجبال، وهو صابر محتسب، يقول:

هل أنت إلا أصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت (١)

(١) أخرجه البخاري في الجهاد، من ينكب في سبيل الله ٢٨٠٢، ومسلم في الجهاد والسير، ما لقي النبي ﷺ

﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً﴾، أي: إذا أعطيناه منا رحمة وأوصلناها إليه، من صحة في بدنه، ورزق ورخاء، وأهل وولد، وغير ذلك من نعمنا التي لا تحصى.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨].

﴿فَرِحَ بِهَا﴾ فرح بطر وأشر، لا فرح اغتباط بنعمة الله تعالى وشكر.

﴿وَإِن تُصِيبَهُمْ﴾؛ يعني: الناس ﴿سَيِّئَةٌ﴾، أي: ما يسوء من قحط وجدب وفقر وشدة ومرض، ونحو ذلك، وهي ضد الرحمة والنعمة، أي: وإن يصبهم بلاء.

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ الباء: للسببية، أي: بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والمعاصي.

كما قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفُسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

والتعبير بالأيدي؛ لأن أكثر الأفعال تراوَل بها.

﴿فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [١٨]، أي: جحود لنعم الله تعالى، ينسى النعم السابقة، ويتسخط لما أصابه، ويأس ويقنط، ولا يعرف إلا الساعة الراهنة.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «أرأيت النار، فإذا أكثر أهلها النساء، يكفرن». قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «يكفرن العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأيت منك شيئاً، قالت: ما رأيت منك خيراً قط»^(١).

من أذى المشركين ١٧٩٦؛ من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في الإيهان، كفر العشير ٢٩، ومسلم في الكسوف، صلاة الكسوف ٩٠٧، والنسائي في الكسوف ١٤٩٣، وأحمد ١ / ٢٩٨.

قال ابن كثير^(١): «وهذا حال أكثر الناس، إلا من هداه الله وألهمه رشده، وكان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فالؤمن كما قال رسول الله ﷺ: «إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له»^(٢).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: لله وحده ملك السموات والأرض؛ فهو خالقها وما فيها من المخلوقات، ومالكها، والمتصرف فيها.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، أي: يخلق الذي يشاؤه من المخلوقات، أي: يوجد من العدم.
 ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا﴾، أي: يعطي فضلًا منه للذي يشاؤه من عباده ﴿إِنثًا﴾، أي: بنات.

﴿وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، أي: ويعطي فضلًا منه للذي يشاؤه من عباده الذكور. وبدأ سبحانه بذكر الإناث جبرًا لهن، وتقديرًا لما كانت تؤخره الجاهلية، وتقديرًا لما يشاؤه على ما يشاؤه الأبوان غالبًا، قال ابن القيم: «وتأمل كيف نكّر سبحانه الإناث، وعرف الذكور، فجبر نقص الأنوثة بالتقديم، وجبر نقص التأخير بالتعريف»^(٣).
 ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنثًا﴾، أي: يعطي فضلًا منه من يشاء الزوجين: الذكور والإناث.

﴿وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾، أي: ويجعل بعدله الذي يشاؤه من عباده ﴿عَقِيمًا﴾، أي: فلا يلد ولا يولد له.

فجعل عز وجل الناس أربعة أقسام: منهم من يعطيه البنات، ومنهم من يعطيه الذكور، ومنهم من يعطيه النوعين، ومنهم من يحرمه هذا وهذا فيجعله عقيمًا لا يولد له.

(١) في «تفسيره» ٧ / ٢٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد، المؤمن أمره كله خير ٢٩٩٩، وأحمد ٤ / ٣٣٢؛ من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ١٢٣.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾، أي: ذو علم واسع محيط بكل شيء.

﴿قَدِيرٌ﴾، أي: ذو قدرة تامة على كل شيء.

ولسعة علمه عز وجل، وتمام قدرته على كل شيء، يخلق ما يشاء من المخلوقات، ويعطي من يشاء الإناث، ويعطي من يشاء الذكور، ويعطي من يشاء النوعين: ذكوراً وإناثاً، ويجعل من يشاء عقيماً، لا يولد له، وله في ذلك الحكمة البالغة.

قال ابن كثير^(١): «وهذا المقام شبيه بقوله تعالى عن عيسى: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً

لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]، أي: دلالة لهم على قدرته تعالى وتقدس؛ حيث خلق الخلق على أربعة أقسام: فآدم عليه السلام مخلوق من تراب، لا من ذكر ولا أنثى، وحواء عليها السلام من ذكر بلا أنثى، وسائر الخلق سوى عيسى من ذكر وأنثى، وعيسى عليه السلام من أنثى بلا ذكر، فتمت الدلالة بخلق عيسى بن مريم عليهما السلام؛ ولهذا قال: ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾، فهذا المقام في الآباء، والمقام الأول في الأبناء، وكل منهما أربعة أقسام، فسبحان العليم القدير».

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ مُّبِينٍ﴾^(٥١) وكذلك أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ. مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ^(٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ. مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ^(٥٣).

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع اسم «كان»، أي: ما كان لبشر تكليم الله له إلا وحيًّا، «إلا»: أداة حصر، أو استثناء، ﴿وَحِيًّا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف نائب عن المصدر، أي: إلا أن يوحى إليه وحيًّا. والوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء.

ومعنى قوله: ﴿إِلَّا وَحِيًّا﴾، أي: أن يلقي الوحي في قلب الرسول ويلهمه من غير إرسال ملك أو مخاطبة منه شفاهًا.

(١) في «تفسيره» ٧ / ٢٠٣.

قال ابن كثير^(١): «وهو أنه تعالى يقذف في روع النبي ﷺ شيئاً، لا يتبارى فيه أنه من الله عز وجل؛ كما جاء في «صحيح ابن حبان» عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن روح القدس نفث في روعي؛ أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب»^(٢).

﴿أَوْ مِنْ وَرَائِي حِجَابٍ﴾، أي: أو يكلمه منه شفاهاً، لكن من وراء حجاب؛ كما كلم موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

وقد سأله موسى عليه السلام الرؤية بعد التكليم، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، فقال عز وجل: ﴿لَنْ تَرِنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وكما حصل للنبي ﷺ ليلة المعراج، فإن الله تعالى كلمه من وراء حجاب وفرض عليه الصلاة،

وحجابه النور؛ كما قال ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٣).

وقال ﷺ لما قيل له: هل رأيت ربك؟ قال: «رأيت نوراً»^(٣)، وفي رواية: «نور؛ أنى أراه؟»^(٣).

وعن جابر رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له: «ما كلم الله أحداً إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحاً»^(٤).

قال ابن كثير^(٥) بعد سوقه هذا الحديث: «قد قُتل يوم أحد - يعني: والد جابر - ولكن هذا في عالم البرزخ، والآية إنما هي في الدار الدنيا».

(١) في «تفسيره» ٧ / ٢٠٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم» ٨ / ١٦٦ - «٧٦٩٤»، وأبو نعيم في «الحلية» ١٠ / ٢٦؛ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الترمذي في تفسير سورة آل عمران ٣٠١٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٠، وفي الجهاد، فضل الشهادة في سبيل الله ٢٨٠٠، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٥) في «تفسيره» ٧ / ٢٠٤.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ قرأ نافع برفع اللام: «أَوْ يُرْسِلُ»، وقرأ الباقون بنصبها: ﴿أَوْ يُرْسِلَ﴾.

أي: أو يكلمه بأن يرسل رسولاً من الملائكة؛ وهو جبريل عليه السلام الموكل بالوحي.

﴿فَيُوحِي﴾ قرأ نافع بإسكان الياء: «فَيُوحِي»، وقرأ الباقون بنصبها: ﴿فَيُوحِي﴾، أي: فيوحي إلى الرسول ﴿بِإِذْنِهِ﴾، أي: بإذن الله عز وجل الكوني.

﴿مَا يَشَاءُ﴾، أي: الذي يشاؤه الله عز وجل من الوحي.

﴿إِنَّهُ عَلِيُّ﴾، أي: إنه عز وجل ذو العلو المطلق على خلقه: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القدر، وعلو القهر.

﴿حَكِيمٌ﴾، أي: ذو الحكم التام، والحكمة البالغة؛ في خلقه وقدره وشرعه.

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: مثل إحيائنا إلى غيرك من الرسل ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا

محمد، ﴿رُوحًا﴾، أي: قرآنًا تحيا به القلوب، ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾، أي: من أمرنا الشرعي.

فالقرآن به حياة القلوب؛ كما أن بـ«الروح» حياة الأبدان، قال تعالى: ﴿أَوْمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وفي هذا امتنان منه عز وجل في ختام السورة على النبي ﷺ بالوحي إليه وتعظيمه؛

كما ابتدأها عز وجل بذلك في قوله: ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ٣].

﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي﴾، أي: ما كنت تعلم وتعرف قبل وحينما إليك ﴿مَا أَلَكُنْتُ﴾، أي:

ما القرآن؟

ويحتمل أن المعنى: ما كنت تدري ما الكتابة؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا رَتَابَ الْمُبْطُلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فلم يكن ﷺ قبل الوحي إليه يعرف الكتابة، ولا الوحي والكتب السابقة.

﴿وَلَا الْإِيمَانُ﴾ «لا»: لتأكيد النفي، أي: وما كنت تدري ما الإيمان؟ أي: ما شرائع

الإيمان؟ كما قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ﴾، أي: ولكن صيرنا شرعاً هذا الكتاب والروح ﴿نُورًا يَهْدِي﴾، أي: نرشد ونوفق ﴿بِهِ﴾ الباء: للسببية، أي: بسببه ﴿مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾، أي: الذي نشاء ونريد هدايته من عبادنا؛ كما قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿٧٤﴾﴾ [النساء: ١٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ [التغابن: ٨].

قال ابن القيم: «فجمع بين الروح الذي يحصل به الحياة، والنور الذي يحصل به الإضاءة والإشراق، وأخبر أن كتابه الذي أنزله على رسوله ﷺ متضمن للأمرين معاً؛ فهو روح تحيا به القلوب، ونور تستضيء وتشرق به»^(١).

﴿وَإِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ اللام: للتوكيد، أي: تدل وترشد إلى طريق عدل مستقيم، لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام.

﴿صِرَاطُ اللَّهِ﴾ بدل من قوله: ﴿صِرَاطُ مُسْتَقِيمٍ﴾، أي: صراط الله وطريقه وشرعه. وأضافه الله تعالى إليه؛ لأنه هو الذي شرعه ووضعه، وهو موصل إليه؛ كما قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [الحجر: ٤١].

﴿الَّذِي لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، أي: الذي له وحده جميع الذي في السموات والذي في الأرض؛ خلقاً وملكاً وتدبيراً.

﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾، «ألا»: أداة تنبيه، أي: ألا إلى الله وحده ترجع الأمور كلها، فيفصلها ويحكم فيها؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠، آل عمران: ١٠٩، الأنفال: ٤٤، الحج: ٧٦، فاطر: ٤، الحديد: ٥]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

وإليه يرجع الخلائق كلهم يوم القيامة، فيفصل بينهم، ويجازيهم بأعمالهم؛ كما قال

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٢٦-١٢٧.

تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿١٦﴾﴾ [الغاشية: ٢٥، ٢٦].

الفوائد والأحكام:

- ١- وجوب الاستجابة لله تعالى فوراً، بامثال أمره، واجتناب نهيه، وطاعته؛ لقوله تعالى: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾. وفي هذا ترغيب بالمبادرة بالعمل، وذم للأمل؛ فإن للتأخير آفات.
- ٢- إثبات ربوبية الله تعالى العامة لجميع الخلق؛ لقوله تعالى: ﴿لِرَبِّكُمْ﴾.
- ٣- التحذير من يوم القيامة وأهواله وعذابه، والحث على الاستعداد له؛ لقوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٤- أنه لا راد ولا دافع ولا مانع لذلك اليوم إذا أمر الله بإتيانه؛ لقوله تعالى: ﴿لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾.
- ٥- وعيد المكذبين وتهديدهم، وأنه ليس لهم أي ملجأ ولا مفر في ذلك اليوم، ولا يستطيعون أي نكير لما ارتكبوه من الظلم والكفر؛ لقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ مِّن مَّلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِّن نَّكِيرٍ﴾.
- ٦- تسليته ﷺ، وبيان أنه ليس حفيظاً على من أعرض واستمر على تكذيبه وكفره، يحفظ أعمالهم أو يلزمهم الهداية؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ حَفِيظًا﴾، وفي هذا تسلية للدعاة إلى الله تعالى من بعده.
- ٧- أنه ليس عليه ﷺ بالنسبة للناس إلا إبلاغهم رسالة ربه، وكذا الدعاة بعده، أما هداية القلوب فبيد علام الغيوب؛ لقوله تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾. وقد بلغ صلوات الله وسلامه عليه البلاغ المبين.
- ٨- أن من طبيعة الإنسان - إلا من هداه الله ووفقه - أنه إذا آتاه الله رحمة منه من نعمة ورخاء، فرح بذلك فرح بطر وأشر، ونسي شكر المنعم عليه، وإن أصابته سيئة، من شدة وابتلاء، كفر نعمة الله السابقة وجحدها وتسخط مما أصابه وأيس وقنط؛ لقوله تعالى: ﴿وإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَمَاقَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾.

- ٩- أن الرحمة، وآثارها من جلب النعم ودفع النقم، كلها من الله تعالى.
- ١٠- أن ما يصيب الناس من المصائب إنما هو بسبب ذنوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ نَصَبْنَاهُمْ سَبِيلَةً يَمُوتُوا بِمَا قَدَّمْتِ أَيْدِيهِمْ﴾.
- ١١- إضافة الكسب والعمل إلى اليد؛ لأنها هي الآخذة والمعطية، وأكثر الأعمال تزاول بها.
- ١٢- اختصاص الله عز وجل بجميع ملك السموات والأرض، وما فيها من المخلوقات، وتدبيره ذلك كله وتصريفه على ما يشاء؛ لقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.
- ١٣- قدرة الله التامة على خلق ما يشاء من المخلوقات؛ لسعة علمه، وقدرته على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.
- ١٤- إثبات المشيئة لله تعالى، وهي: الإرادة الكونية؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾، وقوله: ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾.
- ١٥- حكمة الله تعالى في هبته لمن يشاء من عباده إناثًا، وهبته لمن يشاء الذكور، وهبته لمن يشاء الذكور والإناث، وجعله من يشاء عقيماً؛ لقوله تعالى: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يَزُوجُهُمْ ذُكْرًاوإِنثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا﴾.
- ١٦- يجب ألا يياس من كان عقيماً أن يرزقه الله الولد، ولا من كان نسله إناثاً ويريد الذكور، أو من كان نسله ذكوراً ويريد الإناث؛ أن يهبه الله ما يريد؛ لأن الله يخلق ما يشاء.
- ١٧- يجب على الإنسان أن يرضى بما قسم الله له وقدر من الذرية أو عدمها، فلا يسخط لكونه عقيماً، ولا لكون نسله إناثاً، فله الحكمة في ذلك، وليعلم علماً يقينياً أن الخيرة فيما اختاره الله له.
- كما ينبغي ألا يغتر من رزقه الله الذكور، أو الذكور والإناث، وليحذر أن يكون ذلك استدراجاً له، وتكليفاً لا تشريعاً.
- ١٨- في تقديم الإناث في الآية جبر لهن، ومخالفة لنظرة الجاهلية الدون لهن، وإظهار

أنه لا اختيار للزوجين، فما اختاره الله وشاءه وهبه لها ولو خالف رغبتها وإرادتها.

١٩- إثبات صفة العلم الواسع لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ﴾.

٢٠- أنه عز وجل ذو القدرة التامة على كل شيء؛ لقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾.

٢١- في اقتران صفة العلم الواسع والقدرة التامة في حقه عز وجل إثبات كمال

خلقه؛ كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

٢٢- أنه ما كان لبشر أن يكلمه الله إلا من طريق الوحي، بأن يلقي ويقذف في

قلب الرسول ويلهمه ما يعلم يقيناً أنه من عند الله، أو يكلمه من وراء حجاب؛ كما كلم

موسى عليه السلام، أو يرسل رسولاً من الملائكة كجبريل عليه السلام أو غيره،

فيوحي بإذنه تعالى إلى الرسول ما يشاؤه سبحانه من الوحي، وليس ثمة طريق غير هذه

الطرق الثلاث؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ

أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

٢٣- إثبات عظمة الله تعالى، وأنه لا يستطيع أحد من البشر تلقي كلامه عز وجل

إلا وحيًا، أو من وراء حجاب، أو بواسطة رسول يرسله من الملائكة.

٢٤- إثبات تكليم الله تعالى للرسول بالطرق الثلاث، وإثبات كون الرسل من

البشر؛ خلافاً لمن أنكر ذلك من الأمم المكذبة للرسول.

٢٥- إثبات وجود الملائكة، وأن منهم الرسل بينه وبين الرسل من البشر، وبينه

وبين خلقه.

٢٦- إثبات صفة العلو المطلق لله تعالى: علو الذات، وعلو الصفات، وعلو القهر،

وعلو القدر؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلِيُّ﴾.

٢٧- إثبات أنه سبحانه ذو الحكم التام: الكوني، والشرعي، والجزائي. وذو

الحكمة البالغة: الغائية، والصورية؛ لقوله تعالى: ﴿حَكِيمٌ﴾.

٢٨- امتنان الله بإنزال الوحي عليه ﷺ في ختام هذه السورة؛ كما امتن عليه بذلك

في أولها، وتشريفه بخطاب الله تعالى له؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾؛

كما قال في أولها: ﴿كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣].
 ٢٩- أن القرآن الكريم روح من أمر الله تعالى به حياة القلوب؛ لقوله تعالى:
 ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

٣٠- أنه ﷺ قبل وحي الله تعالى إليه ما كان عنده علم بالكتاب، لا بالقرآن ولا بالكتابة، ولا بالإيمان، حتى أنزل الله عليه القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتَبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾.

٣١- منة الله تعالى ونعمته في جعله القرآن نورًا وهدى يوفق بسببه الذي يشاء هدايته وتوفيقه من عباده؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.
 ٣٢- أن الهداية والإضلال بمشيئة الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿تَهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٣٣- إثبات عبودية الخلق كلهم لله تعالى عبودية عامة، وعبودية من اهتدى منهم عبودية خاصة؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾.

٣٤- تشریفه عز وجل لنبيه ﷺ بخطابه له، وشهادته له، وثناؤه عليه وعلى هديه، وأنه يهدي إلى صراط مستقيم، وهو صراط الله ودين الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

٣٥- امتداحه عز وجل لصراطه ودينه، والإغراء باتباعه وتعظيمه لنفسه بعموم ملكه وسعته؛ لقوله تعالى: ﴿صِرَاطُ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

٣٦- أن مصير جميع لأمر ومردها إلى الله تعالى، يفصل ويحكم فيها، وأن مرجع جميع الخلائق إليه تعالى، إليه إياهم، وعليه حسابهم؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

فهرس الموضوعات

- ٥..... تفسير سورة الزمر
- ٧..... المقدمة
- ٧..... أ- اسم السورة:
- ٧..... ب- مكان نزولها:
- ٧..... ج- فضلها:
- ٧..... د- موضوعاتها:
- ١٣..... ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾...﴾ الآيات [١-٨]..... ١٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ فَأَنَاءَ الْبَيْتِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً
- رَبِّهِ...﴾ الآيات [٩-٢٠]..... ٣١
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآيات
- [٢٦-٢١]..... ٤٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ...﴾ الآيات [٢٧-
- ٣٥]..... ٥٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ...﴾ الآيات [٣٦-٤٨]..... ٦٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِمَّا قَالِ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى
- عِلْمٍ...﴾ الآيات [٤٩-٥٩]..... ٨٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُؤْا عَلَى اللَّهِ وَجُوهُهُم مُّسْوَدَةٌ...﴾ الآيات
- [٦٧-٦٠]..... ١٠١
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَتُفَيْخُ فِي الضُّبُورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
- اللَّهُ...﴾ الآيات [٦٨-٧٥]..... ١١٠
- ١٢٩..... تفسير سورة خافر
- ١٣١..... المقدمة
- ١٣١..... أ- اسم السورة:

- ب- مكان نزولها: ١٣١
- ج- فضلها: ١٣١
- د- موضوعاتها: ١٣١
- تفسير قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ...﴾ الآيات [١-٦] ١٣٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ...﴾ الآيات [٧-١٧] ١٤٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرَهُمْ يَوْمَ الْأَرْفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ...﴾ الآيات [١٨-٢٢] ١٦٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ...﴾ الآيات [٢٣-٣٥] ١٧٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَيْهاتُ أَبْنِ لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ...﴾ الآيات [٣٦-٤٦] ١٩٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجَّوْنَ فِي النَّارِ...﴾ الآيات [٤٧-٥٦] ٢٠٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ...﴾ الآيات [٥٧-٦٥] ٢١٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآيات [٦٦-٧٦] ٢٣١
- تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ...﴾ الآيات [٧٧-٨٥] ٢٤٢
- تفسير سورة فصلت ٢٥٣
- المقدمة ٢٥٥
- أ- اسم السورة: ٢٥٥
- ب- مكان نزولها: ٢٥٥
- ج- فضلها: ٢٥٥
- د- موضوعاتها: ٢٥٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝١ تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ...﴾ الآيات [١-٨] ٢٦٠

- تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ... ﴾ الآيات [٩-١٨] ٢٦٩
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ... ﴾ الآيات [١٩-٢٩] ٢٨٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا... ﴾ الآيات [٣٠-٣٦] ٢٩٥
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ... ﴾ الآيات [٣٧-٤٥] ٣٠٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا... ﴾ الآيات [٤٦-٥٤] ٣٢٢
- تفسير سورة الشورى ٣٣٥
- المقدمة ٣٣٧
- أ- اسم السورة: ٣٣٧
- ب- مكان نزولها: ٣٣٧
- ج- موضوعاتها: ٣٣٧
- تفسير قوله تعالى: ﴿ حَمَّ ۝١ عَسَقَ ۝٢ ﴾ الآيات [١-٨] ٣٤٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿ أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ... ﴾ الآيات [٩-١٨] ٣٥٢
- تفسير قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ... ﴾ الآيات [١٩-٢٦] ٣٧٣
- تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ... ﴾ الآيات [٢٧-٣٥] ٣٨٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿ فَمَا أوتَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا... ﴾ الآيات [٣٦-٤٦] ٣٩٦
- تفسير قوله تعالى: ﴿ أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ... ﴾ الآيات [٤٧-٥٣] ٤١١
- فهرس الموضوعات ٤٢٣

دار ابن الجوزي 8428146



9 786038 274958